

# عَوْنُ الْحَمِيْنِ فِي تَفْسِيْرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأَلَّفَ

أ.د. سُلَيْمَانُ بْنُ بَرَاهِيْمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّاحِمِ

الْأَسْتَاذِ فِي قِسْمِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ

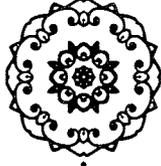
بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - جَامِعَةِ الْقَصِيْمِ

الْمَجْلَدُ الثَّلَاثُ وَالْعِشْرُونَ

تَفْسِيْرُ سُورَةِ الْمَلِكِ إِلَى سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الْحَمِيدِ  
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

(٢٣)



دار ابن الجوزي

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٢

ص.ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٥٠٢٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

📌 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ  
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله  
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد  
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ

٣٨١ ص؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام  
أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

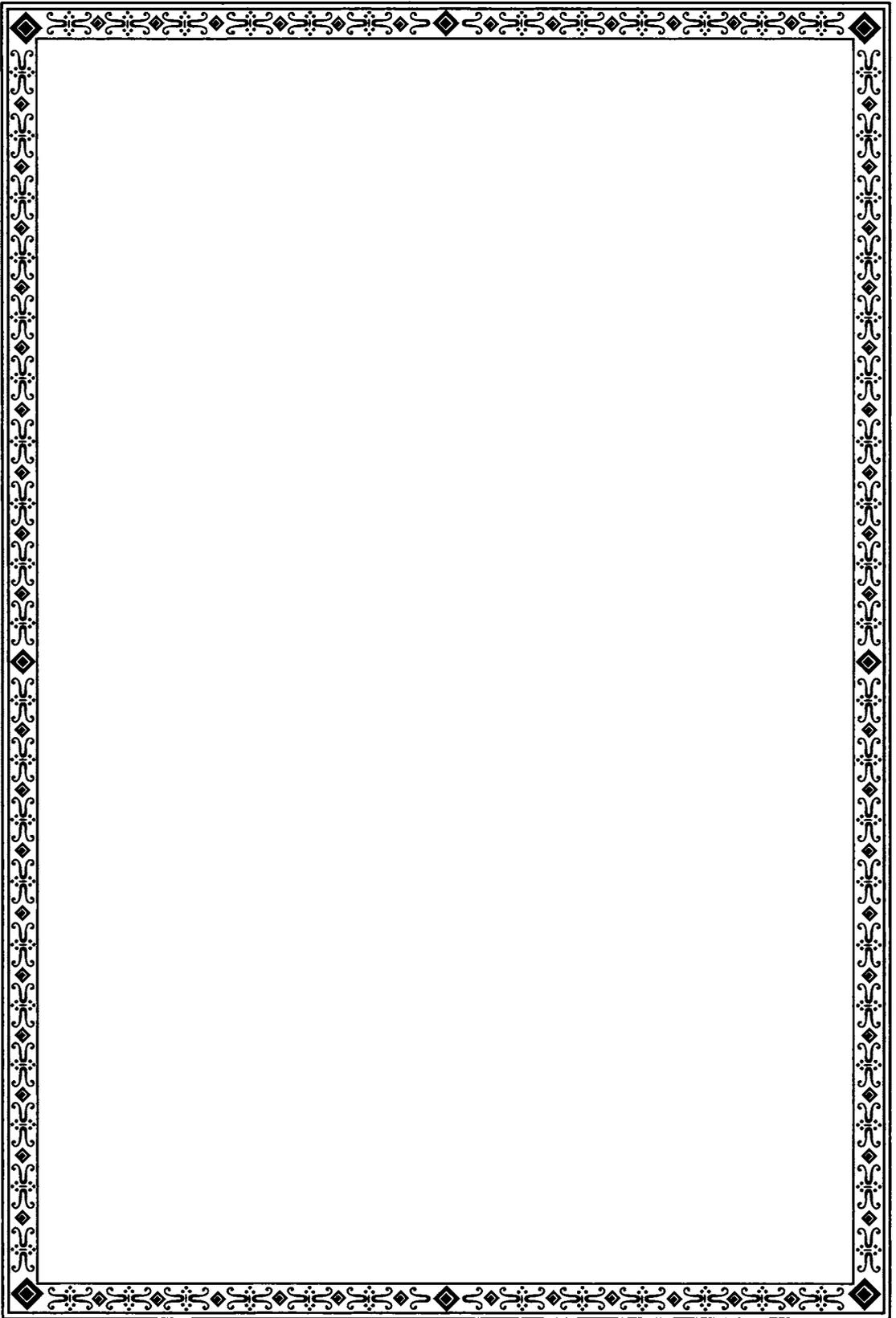
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب  
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام  
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي  
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَلِكِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الملك»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة تبارك الذي بيده الملك»، كما جاء في حديث أبي هريرة، وأنس، وابن عباس، وجابر رضي الله عنهم.

وتسمى: «سورة تبارك الملك»، و«المانعة»، و«المنجية»، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما. كما تسمى: «الواقية».

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- فضلها:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له؛ وهي سورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»<sup>(١)</sup>.

وعن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن، خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة؛ وهي سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة «تبارك؛ الملك» حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٠٠، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٦، وأحمد ٢/٢٩٩، ٣٢١، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه الطبراني والحافظ المقدسي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٠١/٨.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٩٠ - وقال: «حديث غريب».

وعن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الَّذِي تَزِيلُ﴾،  
و﴿بَنَزَكَ الَّذِي يَبْدِيهِ الْمَلِكُ﴾ (١).

#### د- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن عظمة الله تعالى، واختصاصه بالملك، وعن مظاهر تمام قدرته في خلق الموت والحياة؛ ابتلاءً للعباد أيهم أحسن عملاً، وفي خلق السماوات السبع الطباق، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح، وغير ذلك: ﴿بَنَزَكَ الَّذِي يَبْدِيهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (٥).

٢- وعيد الذين كفروا بربههم بعذاب جهنم وبئس المصير، وسوء حالهم فيها، وتقريعهم واعترافهم بتكذيبهم النذر وندمهم حيث لا ينفع الندم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٦) إلى قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١١).

٣- وعد الذين يخشون ربهم بالغيب بالمغفرة والأجر الكبير.

٤- إحاطة علم الله بالسر والجمهور، وما في الصدور، وبجميع خلقه.

٥- الامتنان على العباد ويجعل الأرض لهم ذللاً يمشون في مناكبها ويأكلون من رزقه وإليه مردهم.

٦- تحذير المكذبين من بطش الله وعقابه وتهديدهم بما حل بالمكذبين من قبلهم: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١١) أم أمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨).

٧- تقرير مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى في إمساك الطير بين السماء والأرض.

٨- الإنكار على المشركين غرورهم وعتوهم وعنادهم، واستعجالهم العذاب، وعدم تأملهم في مظاهر قدرة الله تعالى، وفي نعمه تعالى عليهم ﴿في رزقهم وفي خلقهم

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٩٢.

وغير ذلك، وتهديدهم ووعدهم: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ  
إِلَّا فِي عُرْوٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) ﴿﴾

قوله: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ﴿بَرَكَ﴾ أي: تعاضم وتعالى وكثر خيره وإنعامه وعم إحسانه، وهذا ثناء وتمجيد من الله عز وجل لنفسه الكريمة؛ لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد والتعظيم؛ ولهذا كان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجند منك الجد» (١).

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» (٢).

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، أي: الذي من عظمته عز وجل أن بيده الملك كله، علويه وسفليه؛ السموات والأرض ومن فيهن، وما بينهن؛ مالكة وخالقه والمتصرف فيه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو - سبحانه - ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أيًا كان هذا الشيء

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

صغيرًا أو كبيرًا، قليلاً أو كثيرًا، خفيًا أو جليًا، دقيقًا أو جليًا، أو غير ذلك.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة نافذة؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].  
وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لتأكيد كمال قدرته، عز وجل وشمولها لكل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

وقد أثنى عز وجل على نفسه هنا بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ مقرونًا بذكر كمال ملكه وقدرته وعظيم آياته في الكون من خلق الموت والحياة وابتلاء الناس أيهم أحسن عملاً وخلق السموات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [١١] وهو الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٢﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

وأثنى على نفسه عز وجل بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ مقرونًا بذكر انفراده بالخلق والأمر وربوبيته للعالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ومقرونًا بذكر أطوار خلق الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [١٢] إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وأثنى على نفسه - سبحانه - بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ مقرونًا بذكر امتنانه بإنزال القرآن الكريم وملكه السموات والأرض: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ



قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾؛ لأن الموت سابق للحياة.

فسبحان من أوجد الإنسان في هذه الحياة، فجعله بها يؤمل الآمال العريضة؛ من أجل أن يعمر هذا الكون بأمر الله عز وجل حتى إن الساعة لتقوم ورجل يحمل فسيلة نخل ليغرسها<sup>(١)</sup>، فالله أكبر.

وسبحان من فضح الدنيا بالموت فلم يدع لذي لب بها فرحاً، أذل الجبارة، وقصر الأقاصدة، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الخلائق إذ في إحيائهم نعمة من الله - عز وجل - عليهم؛ ليعملوا صالحاً يسعدوا به في دنياهم وأخراهم، وفي إمامتهم جميعاً عدل بينهم ليعتصموا جميعاً ويحازيهم بأعمالهم وينتصر لمظلومهم من ظالمه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، ويختبركم ويمتحنكم، والخطاب للناس عامة.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِيَبْلُوهَا أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئُوكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبِّئُوكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَبْلُونَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

(١) قال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»، أخرجه أحمد ٣/ ١٨٤، ١٩١ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال أبو تمام (١):

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت      ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أي: إن الله عز وجل أحياكم وأوجدكم لأجل أن يبلوكم ويختبركم ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أيكم أصلح عبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الفضيل بن عياض: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أخلصه وأصوبه؛ فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة (٢).

قال ابن كثير (٣): «أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسنًا، حتى يكون خالصًا لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين بطل وحبط».

فالمهم في العمل أن يكون خالصًا لله عز وجل، صوابًا على سنة رسول الله ﷺ. ولهذا قال أبو بكر المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه» (٤).

فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ ولهذا قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» (٥).

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل» (٦).

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٥٧٧).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥)، «الإخلاص والنية» لابن أبي الدنيا (ص ٥٠).

(٣) في «تفسيره» ٤/ ٢٤١ وانظر ٢/ ٣٧٤.

(٤) ذكره في «المقاصد الحسنة» ص ٣٦٩ حديث ٩٧٠، وانظر «التفسير الكبير» ٩/ ١١.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) كما في حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ سئل أي الصدقة أفضل؟ قال:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم ألف درهم» (١).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، أي: وهو - سبحانه - العزيز، ذو العزة التامة: عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة.

وهو - سبحانه - «الغفور» ذو المغفرة الواسعة، وهي: ستر ذنوب عباده عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليها، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٥٦] [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

ومن المهم هنا أن نلمح المعنى العظيم، وهو كمال الصفة باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفور» فله العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وله كمال الاتصاف بهتين الصفتين مقترنتين بكون مغفرته مع عزة، وعزته مع مغفرة، فهو كمال إلى كمال. وهذا بخلاف المخلوق الضعيف - والله المثل الأعلى - فإن اعترز فقد تحمله عزته على عدم الستر والتجاوز، بل قد يغتر بها فتحمله على الظلم والغشم، وإن غفر وستر وتجاوز فقد يكون بسبب ضعفه لا عن عزة.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، أي: أوجد سبع سموات.

﴿طِبَاقًا﴾، أي: كل واحدة فوق الأخرى، طبقة فوق طبقة، وكل سماء مقبية على الأخرى، وكل واحدة منهن أوسع من التي تحتها سعة عظيمة فأصغرهن السماء الدنيا، وأعظمهن وأوسعهن السماء السابعة، وليس معنى ذلك أن كل واحدة منهن ملتصقة بالأخرى.

وقد دل على هذا حديث الإسراء كما في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره:

«جهد المقل» أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٦.

(١) أخرجه النسائي في الزكاة - باب جهد المقل ٢٥٢٧، وابن خزيمة في صحيحه (٩٩/٤) (٢٤٤٣)، وابن

حبان في صحيحه (١٣٥/٥) (٣٣٤٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٠٥/٤) (٧٧٧٩).

«أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السماء السابعة»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟، قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينها مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعله كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»<sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»<sup>(٣)</sup>.

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾، «ما» نافية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ما تشاهد أيها الناظر والمتأمل في خلق الرحمن من تفاوت. ولم يقل: ما ترى فيهن من تفاوت؛ تعظيماً لخالقهن وتنبهاً على سبب سلامتهن من التفاوت وهو كونهن خلق الرحمن سبحانه وتعالى.

و﴿الرَّحْمَنِ﴾ هو ثاني اسم من أسماء الله - عز وجل - كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وكما قال عز وجل في الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] ﴿[الآيات: ٢، ٣]﴾.

وقال عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال عز وجل في البسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٤٩، ١٦٣، ومسلم في الإيمان - الإسراء برسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٢٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٣.

(٣) أخرجه ابن مهدي فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص ٧٣٥. وأخرجه بمعناه الدارمي في «الرد على الجهمية» ص ٢١ وابن خزيمة في التوحيد ص ٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٧٨/٢٣.

﴿مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «تَفَوُّتٌ» بضم الواو مشددة من غير ألف.  
وقرأ الباقون: ﴿تَفَوُّتٍ﴾ بالألف والتخفيف.

و«مِنْ» في قوله: ﴿مِنْ تَفَوُّتٍ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما ترى وتشاهد أيها الناظر المتأمل في خلق الرحمن أيّ تفاوت مهما قل.

والتفاوت: الاختلاف والتنافر والخلل والنقص والعيب والاضطراب وعدم التناسب.

﴿فَأَرْجِعْ أَبْصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾، أي: انظر إلى السماء ببصرك وتأمل فيها جيدا هل ترى وتشاهد فيها.

﴿مِنْ فُطُورٍ﴾، أي: من شقوق وصدوع وفتوق أو خلل ونقص وعيب، و«من» كسابقها زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى.

﴿ثُمَّ أَرْجِعْ أَبْصَرَ كَرِيْنٍ﴾، أي: مرتين؛ مرة بعد أخرى.

﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصْرُ خَاسِئًا﴾، أي: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه حسيراً، أي: وهو كليل منقطع نظره من الإعياء من كثرة التكرار وعدم وجود النقص.

والمعنى: فارجع البصر وكرره مرة بعد أخرى، فمهما كررت سيرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً وهو كليل منقطع من الإعياء من كثرة التكرار عاجزاً أن يرى فطوراً وشقوقاً أو عيباً وخللاً في خلق السموات.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾.

يبيّن عز وجل في الآيتين السابقتين إحكام خلقه السموات السبع الطباق وكماله، وخلوّه من التفاوت والنقص، ثم أتبع ذلك ببيان أنه زين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، وهذه الآية كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢].

قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام للقسم، و«قد»

للتحقيق، أي: والله لقد زينا السماء الدنيا، أي: جملناها.  
و«السماء الدنيا» هي التي تلي الأرض والتي نشاهدها.  
و«المصابيح» هي الكواكب النيرة التي تنير الكون، الثابتة والسيارة، كالشمس والقمر والنجوم.

قال السعدي<sup>(١)</sup>: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾، أي: ولقد جملنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿بِمَصَابِيحٍ﴾ وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة وجمالاً ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السموات السبع، فإن السموات شفافة وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وجعلناها جعلاً كونياً ﴿رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾، أي: يرمم بها الشياطين عند محاولتهم استراق السمع من السماء.  
و«الشياطين» جمع شيطان، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله - عز وجل.  
قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «عاد الضمير في ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها».

﴿وَأَعَدَدْنَا﴾، أي: وأعددنا وهياناً وجهزنا ﴿لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، أي: عذاب النار المستعرة المتوقدة المشتعلة ف«السعير» «فعليل» بمعنى «مفعول»، فهي «سعير» بمعنى مسعورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهي نزلهم وضيافتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعَدَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقال تعالى:

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٤.

﴿ هَذَا نَزَّلْنَاهُ بِقَوْلِ الْكَافِرِ ﴾ [الواقعة: ٥٦].

والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ للشياطين.

أي: جعلنا المصاييح رجوماً للشياطين خزيًا وعذابًا لهم في الدنيا، وأعدنا وهياتنا لهم في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ ۖ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ آلَمِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخُورًا ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

وعن قتادة قال: «إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»<sup>(١)</sup>.

#### الفوائد والأحكام:

- ١- بركة المولى عز وجل وعلوه وكثرة خيره، واختصاصه بالملك وقدرته التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- ٢- إثبات اليد لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته.
- ٣- الاستدلال على كمال ملكه، وتمام قدرته عز وجل بخلق الموت والحياة، وخلق السموات السبع وإحكام خلقها، وتزيين السماء الدنيا بالمصاييح وجعلها رجومًا للشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۗ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۗ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

٤- أن كسوف الشمس وخسوف القمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده؛ لأن الله لو شاء ما حصل ذلك.

٥- أن الحكمة من إيجاد الموت والحياة، وخلق الخلق من العدم وإماتهم ومن ثم

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣ / ١٢٣.

بعثهم هي ابتلاؤهم وامتحانهم أيهم أخلص عملا وأصوبه؛ ليجازوا على أعمالهم.  
٦- الحث والترغيب في المنافسة في تحسين العمل إخلاصاً لله عز وجل ومتابعة

للسول ﷺ لقوله: ﴿لِبَلْوَاكُمْ أَتُكْرَهُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٧- إثبات أن من أساء الله عز وجل: «العزیز»، و«الغفور»، و«الرحمن»، وما يؤخذ من ذلك من إثبات صفة العزة التامة، والمغفرة الواسعة والرحمة العامة والخاصة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾.

٨- عظم خلق السموات السبع الطباق، وإحكامها وحبكها بلا فطور ولا شقوق، وتماثل خلقه عز وجل وشدته، بلا اختلاف ولا تفاوت؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ الآيات.

٩- تزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، كما أنها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

١٠- الوعيد الشديد للشياطين بعذاب السعير في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

١١- أن النار موجودة الآن مهياً لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وهي تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه أعتد للشياطين عذاب السعير، ثم ذكر ما أعتده لأتباعهم الذين كفروا بربههم من عذاب جهنم الحسي والمعنوي وأن مآل الفريقين المتبوع والتابع عذاب جهنم وعذاب السعير.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الواو: استثنائية. والكفر في اللغة: الستر والتغطية.

ومعنى ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، أي: جحدوا وجود الله، وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئًا من ذلك، ولم يؤمنوا.

وتقديم الخبر وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يفيد تخصيصهم بالعذاب وحصره فيهم. و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها.

والجزء من جنس العمل فحيث كان الكفار يتخبطون في الدنيا بظلمات الكفر والشك والجهل كان عذابهم جهنم التي هذا وصفها.

﴿وَيْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: وساء وقبح المنقلب والمآل والمأوى والمرجع جهنم. ولا يستطيع أحد أن يقدر عظم سوئها وقبحها - إلا من وصفها بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا سيقوا ودفعوا إليها وأدخلوا فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك: ٨].

وعبر عن سوقهم إليها وإدخالهم فيها بالقائهم فيها؛ تحقيراً وإهانة لهم، فهم يلقون فيها كما يلقى الحجر في اليم لا يؤبه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

ولأنهم أيضاً يساقون إليها سوقاً بشدة، ويدفعون إليها دفعا بعنف، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ [مريم: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَيْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَّاتٌ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].  
وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ [نور: ٣٠].  
الْجَحِيمَ صَلْوُهُ﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١].

﴿سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا﴾، أي: صوتاً عاليًا فظيعاً قال في اللسان<sup>(١)</sup>: «الشهيق أقبح الأصوات».

والشهيق في الأصل ما يسمع من صوت الهواء الداخل إلى الرئة، ويقابله الزفير صوت الهواء الخارج من الرئة. قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].  
وفي الأثر: «أن الرجل يجر إلى النار فتشهب إليه كما تشهب البغلة إلى الشعير»<sup>(٢)</sup>.  
وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال عز وجل: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧].  
وهذا من عذاب الأسعاع التي صمت عن الحق، واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهِيَ تَقُورٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها تقور، أي: تغلي وتتقلب من شدة حرارتها يقال: فار القدر أو فار الماء في القدر إذا غلى وأخذ يتقلب من شدة الحرارة.  
كما يقال فار القدر أو الإناء إذا امتلأ ماءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ النَّتُورُ﴾ [هود: ١٧٩].

(١) مادة «شهب».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن يحيى فيما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٢٤٨.

٤٠، المؤمنون: ٢٧].

﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تكاد: تقارب. و«كاد» كغيرها من الأفعال على الصحيح  
 نفيها نفي، وإثباتها إثبات، فقوله: ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ ﴾، أي: تقارب.  
 ﴿ تَمَيِّزُ ﴾ أصلها تميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، أي: تتفرق وتتقطع،  
 وينفصل بعضها عن بعض، كما قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ  
 بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿ مِنَ الْغَيْظِ ﴾، أي: من شدة الغيظ والحنق عليهم، لشدة غضب الجبار عليهم.  
 ﴿ كَلَّمَ الْقَى ﴾، أي: كلما ألقى وأدخل ﴿ فِيهَا ﴾، أي: في جهنم ﴿ فَوَجَّ ﴾، أي: جماعة  
 كثيرة منهم ﴿ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا ﴾؛ إنكاراً عليهم وتوبيخاً وتبكيئاً لهم وتعذيباً لقلوبهم.  
 و«خزنتها»: هم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

﴿ أَلْتَرِيَاتِكُمْ ﴾، أي: ألم يأتكم ويبعث إليكم ﴿ نَذِيرٌ ﴾ مخوف ومحذر يندركم ويحذركم  
 جهنم وعذابها، وهم رسل الله عز وجل وأنبيأؤه كما قال عز وجل: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ  
 وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على قلوبهم؛ لأن العذاب نوعان: عذاب  
 جسمي حسي يؤلم الأبدان، وهو إصلاؤها بالنار، وعذاب معنوي يؤلم القلوب، وهو  
 التوبيخ والتفريع لهم.

والاستفهام هنا للتقرير؛ ولهذا اعترفوا وأجابوا بقولهم: ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ وأقروا  
 بما قابلوا به نذر الله عز وجل ورسله فقالوا: ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي  
 ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾؛ وذلك لافتضاحهم بظهور الحقائق ومعابنتها، فليس المقام مقام إنكار،  
 وليس الخبر كالعيان<sup>(١)</sup>.

والمعنى: ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أنذرنا وحذرنا عذاب جهنم.

(١) كما جاء في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير .

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، أي: نفينا وأنكرنا أن يكون الله نزل أي شيء من الكتب،  
وقلنا للنذر الذين جاؤونا مكذبين لهم:

﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ ، «إن» نافية، أي: ما أنتم أيها النذر.

﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ، أي: إلا في بُعد وتيه عن الحق كبير.

فجمعوا بين أمور ثلاثة، كل واحد منها أسوأ مما قبله: أولاً: كذبوا رسولهم. ثانياً  
نفوا أن يكون الله نزل شيئاً من الوحي على الرسل هداية الخلق، وبهذا كذبوا جميع  
الرسل والكتب، ثالثاً: رموا الرسل الهداة المهتدين المبعوثين هداية الخلق بالضلال  
الكبير.

وهذه عادة المكذبين للرسول يرمونهم بأبشع الصفات؛ لينفروا الناس منهم ومن  
دعوتهم، وفي هذا درس عظيم للدعاة إلى الله والمصلحين والمربين؛ ليعلموا أن طريق  
الجنة شاق، وليس مفروشاً بالورود والرياحين، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ  
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]،  
وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ  
الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾  
[البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] ولقد  
فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [الروم: ٢، ٣].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»<sup>(١)</sup>.

وقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم به الأشواك تكثر لا الورود<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ من حديث  
أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت لوليد الأعظمي انظر «ديوانه الزوابع» ص ٦٩.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ندموا على تكذيبهم نذر الله وما نزله عليهم، وودوا وتمنوا أنهم سمعوا وتعقلوا ما جاءتهم به النذر فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾، أي: سماع انتفاع لما جاءت به النذر، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقل انتفاع بذلك، فنفوا عن أنفسهم أعظم طرق الهداية، وهما: السمع والعقل؛ لعدم انتفاعهم بهما.

﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: ما كنا في عداد أصحاب السعير وساكنيها وملازميها فندموا حين لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم.

كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَيَّ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾، أي: لو كانت لنا عقول نتفعل بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم».

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾، أي: فاعترفوا على أنفسهم بذنبهم بتكذيبهم نذر الله وما نزل عليهم، ورميهم إياهم بالضلال الكبير، وأنهم ما سمعوا ما جاءتهم به النذر ولا تعقلوه.

﴿فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ هذا حكم من الله عز وجل عليهم بالبعد والهلاك، أي: فبعدًا وهلاكًا لأصحاب السعير وساكنيها وملازميها، فما أشقاهم وأرداهم وأي بعد وهلاك كبعد وهلاك من حكم الله عليهم بذلك فما لهم من سلامة ولا قرب. وفي هذا الاعتراف من المكذبين دلالة على عدله عز وجل في خلقه وأنه لا يعذب أحدًا من الخلق إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا

(١) في «تفسيره» ٢٠٥/٨.

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذه الآية كقوله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ وَهِيَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ [الزمر: ٧١].

وقد روى أبو البختري الطائي، عن سمع رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»<sup>(١)</sup>.

#### الفوائد والأحكام:

١- الوعيد الشديد للذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وأنها بئس المآل والمنقلب؛

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾.

٣- فظاعة جهنم وقيح صوتها وشدة غليانها وغيظها على من يلقي فيها؛ لقوله

تعالى: ﴿إِذَا الْقُفُوفُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَيْقَاقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

٤- تبكيت وتوبيخ وتقريع خزنة النار لمن يلقي فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا

فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب، لا يقل عن العذاب الحسي.

٥- إقرار المكذبين واعترافهم في ذلك اليوم بما جاءهم من النذر، وأنهم كذبوهم

وكذبوا ما جاؤوا به من الوحي من عند الله ورموهم بالضلال الكبير، لكن هذا الإقرار

لا ينفعهم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ

أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّارًا وَّأَبَاسًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا

كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

٦- شدة مكابرة المكذبين للرسول واجترائهم على رميهم بأقبح الصفات تنفيرًا

للناس عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٦٠، وانظر أيضًا ٥/٢٩٣.

٧- شدة حسرة المكذبين للرسول وندمهم واعترافهم بذنبهم، وأنهم لم يستفيدوا من سمعهم ولا من عقولهم بل كانت وبالاً عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴿١١﴾.

٨- حكم الله- عز وجل- على المكذبين بالبعد والهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) وَأَيُّرَأَوْ قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ إِذَاتُ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَنْشَأُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) .

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعدّه للشياطين وأتباعهم الكافرين من عذاب جهنم والسعير وحالهم فيها ومقالمهم واعترافهم على أنفسهم وندمهم حيث لا ينفع الندم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعدّه لمن خشي ربه بالغيب من المغفرة والأجر الكبير وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب. ثم أتبع ذلك بما يدل على كمال علمه وعدله عز وجل بين الخلائق وسعة علمه - سبحانه - بخلقه وأحوالهم وأقوالهم؛ ممتناً عليهم بتذليل الأرض وتسخير خيراتها لهم، ومنبهاً أن إليه مردهم.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ .

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلْهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٣-٣٤].

والخشية: أشد الخوف؛ لأنها أخص منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا قال بعض أهل العلم: من شرط الخشية عظم المخشي، وعلم الخاشي استدلالاً بهذه الآية.

﴿رَبَّهُمْ﴾، أي: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

وأضاف اسم الرب إلى ضميرهم؛ تكريماً وتشريفاً لهم؛ لأن الربوبية قسمان: ربوبية خاصة، وربوبية عامة، والمراد بها هنا الربوبية الخاصة، ربوبية التكريم والتشريف والهداية والتوفيق والحفظ.

والمعنى: أنهم يخشون ربهم ويخافونه، فيمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه.

﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي: وهو سبحانه غيب لم يروه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾

[ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ وَالْغَيْبِ﴾ [النساء: ٩٤].

والغيب ما غاب عن الحواس، قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>.

وسأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»<sup>(٢)</sup>.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»<sup>(٣)</sup>.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرن الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، والله ما رأوك، قال: فكيف لو رأوني...» الحديث<sup>(٤)</sup>.

وأيضاً: ﴿يَخْتَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله» - إلى أن قال: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٥٠، ومسلم في الإبان ٩، والنسائي في الإبان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإبان ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢ - من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإبان ١٧٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، وأحمد ٢/٢٥١.

بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» الحديث (١).

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر، قُدم؛ لإفادة الحصر والتخصيص، أي: لهم خاصة مغفرة وأجر عظيم دون غيرهم.

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، أي لهم مغفرة لذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب عظيم في جنات النعيم. وإذا كان المولى العظيم وصف أجرهم بأنه عظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه.

وسمى عز وجل ثوابهم أجراً مع أنه لا يجب عليه - سبحانه - شيء لخلقه؛ تكراً منه - سبحانه - وامتناناً عليهم؛ لأنه هو الذي تكفل به وأوجهه على نفسه، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن القيم (٢):

هو أوجب الأجر العظيم الشان	ما للعباد عليه حق واجب
إن كان بالإخلاص والإحسان	كلا ولا عمل لديه ضائع
فبفضله والفضل للمنان	إن عذبوا فبعدله أو نعموا

فجمع لهم عز وجل بين مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها، وبذلك يزول المرهوب، وبين إثابهم بالأجر العظيم وبذلك يحصل المطلوب. وقدم مغفرة الذنوب؛ لأن التخلية قبل التحلية.

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١.

(٢) في «النونية» ص ١٤٩ - ١٥٠.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

في ذكر هذا بعد ذكره عذاب من كفروا بربههم، وثواب الذين يخشون ربهم بالغيب إشارة إلى أن هذا الجزاء عن علم تام منه عز وجل بخلقه وأحوالهم وأقوالهم.

قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾، أي: إن شئتم فأسروا قولكم، وإن شئتم فاجهروا به، فالسر والعلانية عنده - سبحانه - سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ قِنْدُمَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ٧].

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام بصاحبة الصدور، وهي القلوب، أي: بما تخفيه وتنطوي عليه القلوب من المكنونات والخواطر، والاعتقادات والإرادات والحب والبغض، مما لم تنطق به الألسن لا سرا ولا جهرا. وإذا كان عالما بما في القلوب فعلمه بما عدا ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، «ألا»: استفهام إنكار على من أنكروا علمه، عز وجل. و«من» موصولة في محل رفع فاعل، والتقدير: ألا يعلم الخالق الذي خلق الخلق وأتقنه وأحسنه مخلوقه ومصنوعه، وقد تكون «من» في محل نصب مفعول، أي: ألا يعلم الرب مخلوقه.

وفي هذا أبلغ التقرير لكمال علمه عز وجل بالدليل العقلي، وفيه أعظم الإفحام لمنكري علمه عز وجل، فحيث كانوا يقرون بأنه خالقهم وخالق صدورهم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع لا بد أن يعلم مصنوعه.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الواو: حالية، و«اللطيف الخبير» اسمان من أسمائه - عز وجل - كل منهما على وزن «فعليل».

يدل «اللطيف» على دقة لطفه وإحسانه - عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه سبحانه.

ف«اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي، أي: المحيط علمًا بالدقائق والخفيات والسرائر والمضمرات.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي: أحدها: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها.

الثاني: أنه مستلزم للإرادة والمشئمة فيلزم تصور المراد، وهذه الطريقة المشهورة عند أهل الكلام.

الثالث: أنها صادرة عنه وهو سببها التام والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع، فعلمه بنفسه يستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

الرابع: أنه «لطيف» يدرك الدقيق «خبير» يدرك الخفي. وهذا هو المقتضي للعلم بالأشياء فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام».

وقال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأمور وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحتويه الضمائر وتخفيه الصدور».

وقد أحسن القائل<sup>(٣)</sup>:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة  
خلوت ولكن قل علي رقيب  
ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

(١) انظر «دقائق التفسير» ١٣/٥.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/٤٩٤. وانظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ

كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

(٣) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ٣٤.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾.

في هذا امتنان من الله عز وجل على عباده، أي: هو سبحانه الذي امتن عليكم بأن جعل الأرض كونًا وقدرًا مذلة منقادة للسير عليها والبناء عليها وحفرها وشقها واستخراج الماء منها واستخراج خيراتها؛ ولهذا قال:

﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، أي: سيروا وسافروا حيث شئتم في طرقها وفجاجها وأرجائها ونواحيها وأطرافها في جبالها وأوديتها وسهولها.

﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾، أي: وكلوا مما أودعه فيها، وأخرجه لكم منها من رزقه وعطائه مما يستخرج منها من الحبوب والثمار والفواكه وغير ذلك.

والتعبير بالأكل؛ لأنه الأهم فهو كسوة الباطن - لا يستطيع الإنسان الحياة بدونه وسائر الانتفاعات من الأرض وخيراتها - تبع لذلك.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup> في الكلام على هذه الآية: «ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهياً فيها من المنافع ومواقع الزروع والثمار؛ فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات».

وفي قوله: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي الجمع بين السعي وفعل الأسباب مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل، كما قال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَالِيَهُ النُّشُورُ﴾، أي: وإليه وحده عز وجل نشر الخلائق من قبورهم، وعليه حسابهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

(١) في «تفسيره» ٢٠٦/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد - ما جاء في الزهادة في الدنيا ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد - التوكل واليقين

٤١٦٤، وأحمد ١/٣٠، ٥٢، وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

وفي ذكر هذا بعد الامتنان بتذليل الأرض لهم يمشون عليها ويبنون ويسكنون ويأكلون من خيراتها تنبيه وتذكير إلى أن هذه الدار ليست دار بقاء، وأن الناس فيها غير مستوطنين ولا مقيمين بل هم عابرو سبيل يتزودون فيها للدار الباقية دار القرار، فهي دار عبور ومرور، لا دار استقرار وحبور، والجاهل المغبون من ركن إليها، والكيس الفطن العاقل الحازم اللبيب من لم يطمئن إليها.

كما رُوِيَ في الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- التنويه بما أعده الله من المغفرة والأجر الكبير لمن يخشونه ويخافونه وهو غيب لم يروه، وإن غابوا عن أعين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لأهل خشيته، وتكريمهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

٣- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن بالتخلية زوال المرهوب بمغفرة الذنوب، وبالتحلية حصول المطلوب بالأجر الكبير كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ الْتَّكَاثُرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤- امتنان الله عز وجل على عباده المؤمنين بتسمية ثوابهم أجراً، وإيجابه عز وجل على نفسه ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٥- علم الله عز وجل واطلاعه التام على ما أسر به الخلق أو جهروا به وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. وفي هذا ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠- من حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن».

- ٦- تأكيد علمه عز وجل بالخلق، وأنه أعلم بهم وأدرى؛ لأنه خالقهم وهم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.
- ٧- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «اللطيف» و«الخبير»، وما يؤخذ منهما من إثبات تمام لطفه عز وجل بإدراك أسرار الأمور، وإحسانه، وكمال خبرته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.
- ٨- نعمة الله عز وجل العظيمة على الخلق بتذليل الأرض لهم للسير عليها واستخراج خيراتها والأكل من رزقه الواسع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.
- ٩- إن الرزق كله من الله تعالى؛ لأن الله أضافه إليه.
- ١٠- إثبات نشر الخلائق وبعثهم من قبورهم، ورجوعهم إلى الله تعالى وحسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.
- ١١- الإشارة إلى أن الدنيا مزرعة للآخرة.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْوَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩).

لما ذكّر عز وجل الخلق بنعمته عليهم بتدليل الأرض لهم خوفاً للكاذبين وهددهم وتوعدهم بسلب هذه الصفة عنها بخسفها بهم وجعلها تمور، ثم خوفهم بإرسال الريح الحاصب عليهم، وبما حل بالمكذبين من قبلهم، ووجههم إلى رؤية عظيم قدرة الله عز وجل في الطير حال كونهن صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه: التهديد والوعيد، والخطاب للكفار المكذبين.

﴿مَن فِي السَّمَاءِ﴾، «مَن» للعالم، وهي: اسم موصول بمعنى «الذي»، أي: ءَأْمِنْتُمْ الذي في السماء، أي: الذي في العلو وهو الله عز وجل، الذي هو عال على خلقه بائن منهم مستو على عرشه، كما في حديث الجارية، قال ﷺ: «أين الله؟ قالت في السماء» (١).

﴿أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾، أي: يُغَوِّرُ بِكُمْ الْأَرْضَ، ويغييكم فيها. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي: تموج وترتج وتتكفأ وتذهب وتجيء وتضطرب وتزلزل، فلا يمكن العيش والحياة عليها، بعد أن كانت ذلولاً ثابتة مستقرة مهياً للاستقرار والحياة.

وفيما يقع ويشاهد من الزلازل المهلكة المدمرة التي تحصد أرواح مئات الآلاف من الناس وتقضي على الأخضر واليابس وتذر الديار بلاقع أعظم عبرة لمن يعتبر.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: بل ءَأْمِنْتُمْ الذي في السماء، وهو الله - عز وجل.

﴿أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، أي: أن يرسل عليكم ريحاً شديدة ترميكم بالحصباء

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

وهي الحجارة فتهلككم.

﴿فَسَتَأْمُونَ﴾، أي: فستعلمون بعد حلول العقوبة فيكم من خسف الأرض بكم أو إرسال الريح الحاصب عليكم.

﴿كَيْفَ نَذِيرٍ﴾، أي: كيف كان إنذاري لكم وعقوبة تكذيبكم للنذر، ومخالفتكم لهم، وكيف حل بكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

وفي هتين الآيتين تخويف وتحذير من الأمن من مكر الله وعقوبته في الدنيا لمن كفر به وخالف أمره بخسف الأرض بهم، أو بإرسال الريح الحاصب عليهم، وغير ذلك، وتنبيه لهم على قدرته التامة على ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتَ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا ﴿١٨﴾ أَمْ أَمِنْتَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

لكنه عز وجل يمهّل ولا يهمل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، و«قد»: للتحقيق، أي: والله لقد كذب الذين من قبلهم، أي: من قبل قومك يا محمد من الأمم السابقة،

كذبوا نذر الله ورسله وأنبياءه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان إنكارهم وعقابي لهم، أي: ما أشد إنكارهم عليهم وعقابي لهم بالإهلاك، أي: أن ذلك كان عظيمًا شديدًا فليأخذ قومك مما حل بأولئك الأقسام العظة والعبرة، فإن السعيد من وعظ بغيره.

﴿أَوْلَتْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

بعد ما خوفهم عذاب الله عز وجل وعقابه أنكر عليهم ووبخهم على عدم النظر والتأمل في عظيم آيات الله عز وجل وقدرته في جعل الطير تطير فوقهم صفات ويقبضن وإمساكها في الجو.

قوله: ﴿أَوْلَتْ يَرَوْا﴾، أي: أعموا ولم يروا، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أولم ينظروا إلى الطير فوقهم في السماء.

﴿صَفَقَتْ﴾، أي: حال كونهن باسطات ناشرات لأجنحتهن في الجو والهواء حال الطيران، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، أي: ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن حال الطيران، وعند وقوعهن.

﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾، «ما»: نافية، أي: ما يمسكهن في الجو والهواء عن السقوط.

﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ سبحانه وتعالى برحمته ولطفه وقدرته بما سخر لهن من الهواء، وبما جعل لهن من الأجنحة والزعانف، والخلقة المناسبة لذلك.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، أي: إنه عز وجل ذو بصر وخبرة وعلم في كل شيء من مخلوقاته، خلقها لها وملكا وتدبيرًا وغير ذلك.

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد شمول بصره وخبرته وعلمه بكل شيء أيًا كان ذلك الشيء.

والمراد: أولم ينظروا إلى الطير حال طيرانها، وعند وقوعها، فيتأملوا في عظيم قدرة الله عز وجل وبصره في مخلوقاته، حيث جعل الطير تطير على هذه الكيفية، وأمسكها في الجو والهواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِجُ

لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّنَتْ كُلُّ قَدَعٍ لِمَ صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ، ﴿النور: ٤١﴾.

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾.
- ٢- تخويف الكافرين والمكذبين بالعقوبات الكونية الدنيوية من خسف الأرض بهم أو إرسال الريح الحاصب عليهم، والوعيد والتهديد لهم بذلك، وتذكيرهم بها حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١١) أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴿١٧﴾ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴿﴾، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]
- ٣- التذكير بنعمة الله - عز وجل - بجعل الأرض مستقرة، وبعظيم قدرة الله عز وجل في إمساك الطير حال طيرانها بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾، ولقوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّنَتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.
- ٤- إثبات اسم الله - عز وجل - «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له - عز وجل - وإثبات أنه - عز وجل - بكل شيء بصير، وعلى كل شيء مطلع وبه خير؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٠﴾  
 أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١١﴾ أَمَّنْ يَمشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ  
 يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا  
 تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾  
 قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي  
 كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٠﴾  
 أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

بعدها أنكر عز وجل على المكذبين، وخوفهم عقابه الدنيوي وأن يحل بهم ما حل  
 بالمكذبين قبلهم منكرًا عليهم عدم التأمل والنظر في عظيم قدرة الله عز وجل في الطير  
 تطير في الجو فوقهم، أتبع ذلك بإنكار ما يعتقدونه في معبوداتهم وابتغونه منها من  
 النصر والرزق غرورًا منهم وعتوًّا.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ﴾ الهزمة: للاستفهام الإنكاري، أي: من هذا  
 الذي هو جند لكم وعون لكم أيها الكافرون يملك نصركم ويقدر عليه.

﴿مَنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: غير الرحمن، أهي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله،  
 كما تعتقدون ذلك؟ فليس الأمر كما تعتقدون، ولن يحصل لكم ما تؤملون.

﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما». أي ما الكافرون إلا في غرور من  
 الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾  
 [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَرَّتْكُمْ آمَنَاتُ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾  
 [الحديد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٢٠]،

وقال تعالى: ﴿وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤].

فهم في غرور من الشيطان حيث زين لهم عبادة غير الله، واعتقادهم فيها النصر،  
 وهي لا تملك نصر أنفسها فكيف تنصر غيرها- كما قال عز وجل-: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا

يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١١١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ [الأعراف: ١٩١]،  
 ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ  
 يَنْصُرُونَ ﴿١١٧﴾ [الأعراف: ١٩٧].

فلا ولي لهم من دون الرحمن ولا ناصر، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، التوبة: ١١٦، العنكبوت: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ  
 مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
 أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٣﴾ [هود: ١١٣].

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ الاستفهام كسابقه: للإنكار، أي: من هذا  
 الذي يرزقكم غير الله إن أمسك الله رزقه وقطعه عنكم، أهي معبوداتكم التي تعبدونها  
 من دون الله. والجواب: لا أحد يرزقكم سوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ  
 الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ  
 لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾ [العنكبوت: ١٧].  
 ﴿بل﴾، «بل» للإضراب، ﴿لَجُؤًا﴾، أي: استمروا وتمادوا في طغيانهم، كما قال عز  
 وجل: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ [المؤمنون:  
 ٧٥].

﴿فِ عَتْوٍ﴾ في قسوة، وعدم لين للحق، وعناد واستكبار، ومخالفة لأمر الله ونهيه،  
 كما قال تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَاذِبِينَ مِنْ قَرِيْبٍ عَنَتِ  
 عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً  
 خَاسِيَةً ﴿١٦٦﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا  
 كَبِيرًا ﴿٢١﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَنُفُورٍ﴾، أي: وشروء وبعد عن الحق بقلوبهم وأبدانهم، لا يستمعون إليه ولا  
 يفقهونه، ولا يتبعونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ  
 نُفُورًا ﴿٤١﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ

لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وكما قال نوح عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَآسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٥٧﴾﴾ [نوح: ٥٥-٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ذكر الله عز وجل فيما تقدم ما أعده لمن خشيه من المغفرة والثواب، وما أعده لمن كفر به من العقوبة والعذاب، ثم ضرب مثلًا فيه بيان الفرق الواسع والبون الشاسع بين حال المؤمن والكافر فقال: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ الهزمة: للاستفهام، أي: أفمن يسير منكسًا على وجهه واقعًا عليه، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله ﴿أَهْدَىٰ﴾، أي: أشد استقامة على الطريق.

﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: أفمن يسير سويًا منتصبًا على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله، لا شك أن هذا أهدى.

كما قال تعالى في سورة الفرقان في وصف نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥].

وهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر والمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْرَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤].

فمثل الله عز وجل الكافر بمن يمشي مكبًا على وجهه؛ لأنه ليس على هدى، بل يتخبط في ظلمات الكفر والشك والجهل؛ مخالفًا لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

كما قال تعالى في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الآيتين: ٣٩، ٤٠].

ومثل عز وجل المؤمن بمن يمشي مستوي القامة منتصباً على رجله على فطرة الله لأنه يمشي على طريق معتدل وهدى ونور من الله وعلى صراطه المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

أي: ضرب الله مثلاً لمن يشرك مع الله غيره ويعبد أكثر من معبود، ومن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، برجل مشترك بين عدة شركاء مختلفون حوله، ورجلاً خالصاً لرجل واحد.

فستان بين من يمشي مكباً على وجهه منكوس الفطرة يشرك مع الله غيره، وبين من يمشي سويّاً على الفطرة التي فطر الله الناس عليها يؤمن بربه ويوحده، فما بينهما أبعد مما بين الثرى والثريا، وما بين المشرق والمغرب.

شтан بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان مجتمعان<sup>(١)</sup>

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه، أي: من يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدي ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾، أي: منتصب القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ﴾ على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة فالؤمن يحشر سويًا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم».

كما قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾<sup>(٢٢)</sup> مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ<sup>(٢٣)</sup> وَقَفَّوهُمْ<sup>ط</sup> إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ<sup>(٢٤)</sup> مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ<sup>(٢٥)</sup> بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ<sup>(٢٦)</sup> [الصفات: ٢٢-٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

وليس في قوله: ﴿أَهْدَى﴾ ما يدل على أن من يمشي مكبًا على وجهه وهو الكافر عنده شيء من الهداية؛ لأن اسم التفضيل قد يستعمل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾<sup>(٢٤)</sup> [الفرقان: ٢٤]. إذ ليس في النار شيء من الخيرية أو حسن المقييل البتة، فهي شر محض.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾، الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث من قومك، هو الذي ابتداء خلقكم وأوجدكم من العدم.

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص ١١.

(٢) في «تفسيره» ٢٠٨/٨.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٨٠٦، وأحمد

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، أي: كمل خلقكم بهذه الجوارح السمع والأبصار، والأفئدة، وهي العقول.

وخص هذه الجوارح بالذكر لفضلها فالسمع والأبصار أدوات وطرق وصول الحق إلى القلوب، والقلوب هي محل الإدراك ومناط التكليف وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»<sup>(١)</sup>.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: قليلاً الذي تشكرون، أو قليلاً شكركم، أي: قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر. والآية خبر، وفيها معنى الأمر، أي: اشكروا. والشكر: باستعمال هذه الجوارح وغيرها من نعم الله التي لا تحصى في طاعة الله عز وجل، بفعل أو امره وترك نواهيه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: قل لهم يا محمد هو الله الذي بثكم ونشركم وفرقكم في أقطار الأرض وأرجائها على اختلاف صوركم وأشكالكم وألوانكم ولغاتكم.

﴿وَالْيَوْمَ تُحْشَرُونَ﴾، أي: إليه تجمعون يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ [٤٩] ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التغابن: ٩].

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ - من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم».

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار؛ إنكارًا للبعث واستبعادًا لوقوعه: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾، أي: متى وقوع هذا الذي تعدنا به من البعث والحشر والجمع بعد التفرق والموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدونا ونخبروننا به، وجمعوا الضمير باعتبار الخبر عن الله ورسوله ﷺ، أو بضميمة المؤمنين إليهم، أو أن دأب المكذبين قول هذا لرسولهم.

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إنما علم وقت الحشر وقيام الساعة عند الله عز وجل، لا يعلمه غيره.

كما قال تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَبًا﴾ [النازعات: ٤٤].

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ الواو: عاطفة و«إنما»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أنذركم وقوع ذلك الوعد، وأخبركم أنه واقع لا محالة، وأحذركم عذاب الله.

﴿مُبِينٌ﴾، أي: بين واضح، ومبين ما أمرت بإبانتته لكم من النذارة والتحذير والتخويف من عذاب الله وقد أنذرتكم وبلغتكم، وقد أعذر من أنذر.

والحصر هنا إضافي، أي: ما أنا بالنسبة لأمر الحشر والبعث إلا نذير أنذركم بتحتم وقوعه، ولا أدري متى وقوعه.

لكنه ﷺ مع ذلك بشير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

ومكلف بالعمل كغيره، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

(١) في «تفسيره» ٢٠٨/٨.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾، أي: فلما رأوا ما وعدوا به من العذاب في الآخرة، وقيل عذاب يوم بدر ﴿زُفَّةً﴾، أي: قريبا.

﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ظهر على وجوه الذين كفروا بالله وأنكروا البعث والحشر الاستياء والكآبة والحزن وخابت ظنونهم، وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين والمصير إلى النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ قرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة: «تدعون».

وقرأ الباقون بفتحها مشددة: ﴿تَدْعُونَ﴾.

أي: وقيل لهم على وجه التفريع والتوبيخ ﴿هَذَا﴾، أي: البعث والحشر والحساب والعذاب ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾، أي: الذي كنتم في دار الدنيا تستعجلون وقوعه، وتطلبونه، إنكارًا له واستبعادًا لوقوعه، قد رأيتموه عيانًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧].

وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»<sup>(١)</sup> وهذا ما كانوا يستعجلونه كما قال تعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:

٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ

أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص:

١٦]، أي: عجل لنا نصيبنا من الحساب. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا

هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:

٣٢].

(١) سبق تخرجه.

## الفوائد والأحكام:

١- تسفيه عقول المشركين والإنكار عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم نصراً ولا رزقاً وغرورهم ومكابرتهم في ذلك وعتوهم ونفورهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوِّ وَنُفُورٍ﴾.

٢- إثبات اسم الله عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له - عز وجل، وأنه سبحانه هو الرب الذي بيده النصر ومنه الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾.

٣- أن الذي بيده النصر والرزق هو الله تعالى وحده.

٤- شتان بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فالكافر الفاجر كمن يمشي مكباً على وجهه، والمؤمن البر كمن يمشي سويًا معتدلاً على طريق مستقيم، فالمؤمن أهدى وأقوم سبيلاً، والكافر أعوج وأضل سبيلاً؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٥- أن اسم التفضيل قد يستعمل بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

٦- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية فيما يدعو إليه وفيما ينفر منه لقوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ولك أخي الكريم أن تتخيل حالة كل من هذين الصنفين، والبون الشاسع بينهما.  
٧- امتنان الله على الناس بإنشائهم، وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم وتذكيرهم بذلك، وبتمام قدرة الله تعالى ونعمته عليهم؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٨- قلة شكر الناس للنعم وقلة الشاكر منهم، لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

٩- تذكير الخلق بقدرته تعالى على بعثهم، فهو الذي نشرهم وفرقهم في الأرض، وإليه حشرهم وجمعهم وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [١٤]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

[٢٦، ٢٥].

١٠- استبعاد الكافرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ تكذيباً لذلك، وإنكاراً له، وتكذيباً له ﷺ ولما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١١- أن علم المعاد وبعث العباد عند الله عز وجل لا يعلمه سواه، ومهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْعَمُّ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٢- تغير وجوه الكفار ومساءتها واسودادها عند معاينة العذاب قريباً منهم وتبكيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٣- تقريعهم وتعذيب قلوبهم معنوياً بأن يقال لهم: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾، أي: هذا العذاب الذي كنتم تستعجلونه.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾ ۞ .

قوله: ﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين من قومك الذين يترصدون بهلاكك، كما قال الله عز وجل عنهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: ٣٠].  
﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾، أي: أخبروني، ﴿ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ ﴾، أي: إن عذبنني الله ومن معي من المؤمنين فأهلكنا كما تتمنون، ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ فأثابنا ونعمنا.

﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾، أي: فمن يجيركم من عذاب الله أيها الكافرون، فأنتم معذبون لا محالة ولا يجير لكم من عذاب الله، سواءً أهلكنا الله أو رحمنا، فاعملوا على خلاص أنفسكم بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.  
ولم يقل: فمن يجيركم من عذاب أليم - والله أعلم - للتنصيص على كفرهم، وربط العقوبة بالعذاب بسببها وهو الكفر، ويشمل هذا الوعيد كل كافر.  
﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ ﴾، أي: قل هو الرحمن صدقنا به ربًا ومعبودًا وانقدنا له ظاهرًا وباطنًا.

﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾، أي: وعليه - وحده - اعتمدنا وفوضنا جميع أمورنا مع تمام الثقة به سبحانه.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين الإيمان به، وعبادته وبين التوكل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

والتوكل داخل في الإيمان ومن جملة لوازمه، لكنه خص بالذكر من بين سائر الأعمال؛ لعظم مكانته من الإيمان، وكون الأعمال صحتها وكما لها متوقفين عليه. كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قرأ الكسائي بالغيب: «فسيعلمون» وقرأ الباقون

بالخطاب: ﴿فَسَتَلْمُونَ﴾.

أي: فستعلمون من هو في بعد وتيه عن الحق، أهو نحن أم أنتم، ولئن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة أهي لنا، أم لكم؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائرًا ذاهبًا في الأرض، لا تستطيعون الوصول إليه بأي وسيلة.

﴿فَمَنْ يَأْتِكُمْ﴾، أي: فمن الذي يأتيكم ﴿بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾، أي: بماء نابع سائح جار ظاهر على وجه الأرض، تراه العيون، لا ينضب، تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم، أي: لا أحد يستطيع أن يأتيكم بذلك إلا الله عز وجل.

وفي هذا تخويف لهم من سلب نعمة الماء شريان الحياة ومادتها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

وتذكير لهم بإنعامه وإفضاله عليهم بها، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

### الفوائد والأحكام:

١- تربص الكافرين هلاك الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾.

٢- التهديد للكافرين، وأنه لا مجير لهم من العذاب الأليم في النار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكٰفِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

٣- التنزل مع الكفار والمكذبين لتقريرهم ليتبين لهم أنهم ليسوا على شيء لقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ وإلا فلا شك أنه ﷺ يعلم أنه ومن معه من المرحومين بإذن الله - عز وجل.

٤- أن عذاب الكافرين المكذبين مؤلم موجه حسًا للأجساد، ومؤلم موجه معنى للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكٰفِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

٥- إثبات اسم الله «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل.

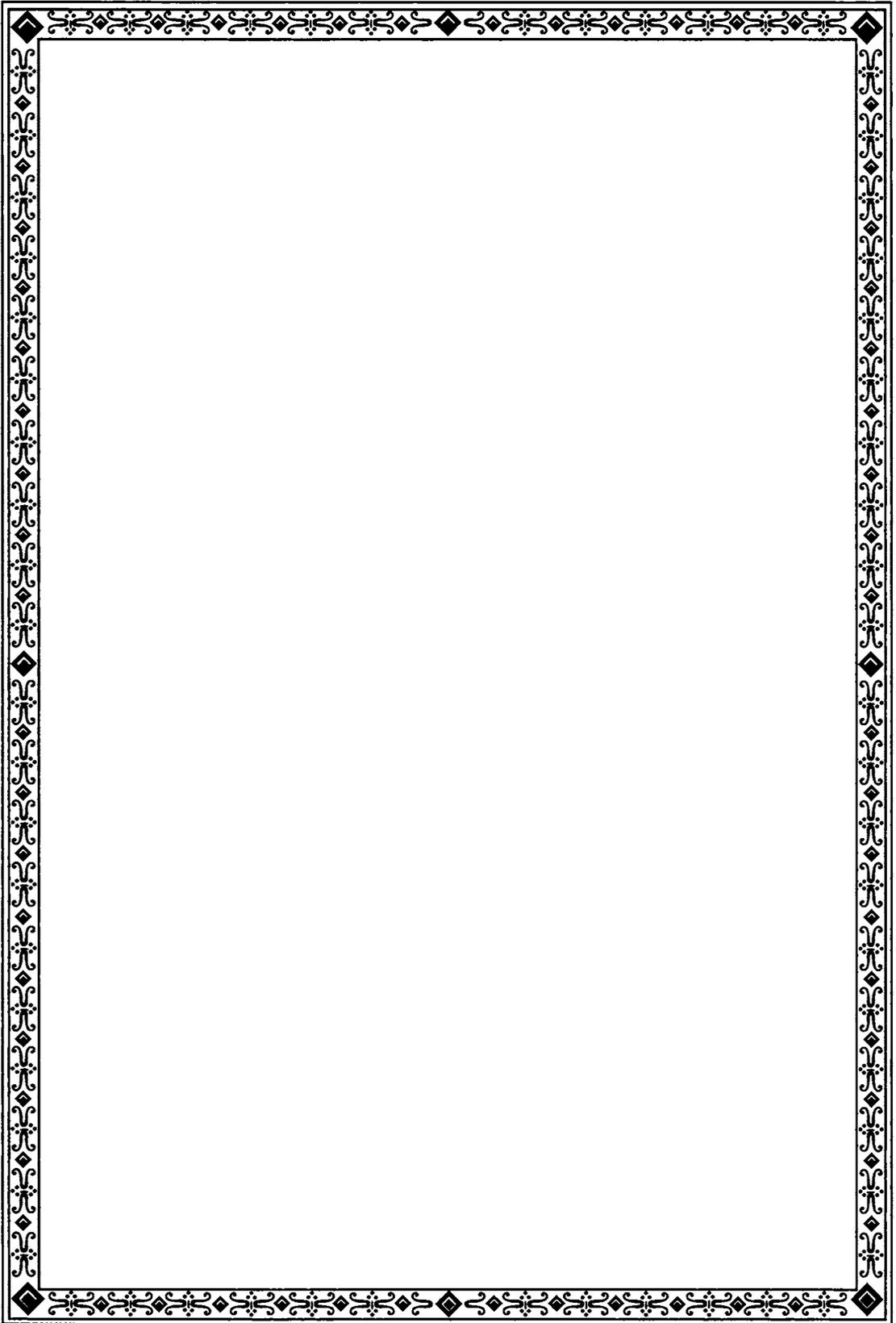
٦- وجوب الإيمان بالله والتوكل عليه، وأن الإيمان الحق لا يقوم إلا على هاتين الدعامين؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن الله عز وجل بينهما في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَابِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٧- وعيد الكفار المكذبين بأنهم سيعلمون حقًا أنهم هم الذين كانوا في ضلال مبين، وليس ذلك هو الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، كما زعموا، وذلك بوقوع العذاب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

٨- امتنان الله عز وجل على الناس بالماء الذي يشربون، وتخويفهم من سلبه منهم وتغويره عنهم فلا أحد غيره - سبحانه - يستطيع أن يأتيهم بهاء معين لا ينضب. وبهذا جمع الله لهم بين التخويف بالعقاب الدنيوي والعذاب الأخروي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَلَامِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة القلم»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالقلم، بقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١).

وتسمى: «سورة ن»؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿نَّ﴾.

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿نَّ﴾؛ لبيان إعجاز القرآن والتحدي به.

٢- الإقسام بالقلم والكتابة؛ بياناً لفضل العلم.

٣- امتداحه ﷺ والثناء عليه والشهادة له بما هو عليه والخلق العظيم، ووعده بالأجر غير الممنون، ونفي ما اتهمه به المشركون من الجنون والفتون، ووعيد المكذبين وذمهم، والتحذير من مهادنتهم وطاعتهم: ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَبِّحْهُ وَابْحُرْهُ وَيُبْصُرْهُ (٥) يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرُوطِ﴾ (١١).

٤- أن ما يتقلب به المشركون من النعمة هو ابتلاء واستدراج لهم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا

بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الآية: ١٧].

٥- ذكر قصة أصحاب الجنة، وإهلاكها بسبب ظلمهم وطغيانها بمنع المساكين

حقهم فيها: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنْوَنَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

٦- وعد المتقين بجنات النعيم، وبيان أنه لا يستوي المسلمون والمجرمون، والرد

على من زعم ذلك من الكفار والمكذبين، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

جَنَّتِ النَّعِيمَ ﴿٣٤﴾ أَفَجَعَلُ الْمُتَسَابِعِينَ كَالْجُرْمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ﴾ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرُوقٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٧- حثه عز وجل النبي على الصبر لحكم ربه وما يلقاه من الأذى، ونهيه أن يكون كيونس عليه السلام في الاستعجال، وما ابتلاه الله به بسبب ذلك: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمُتُونِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

٨- شدة عداوة الكفار للنبي ﷺ ولما جاء به من الذكر واتهامه بالجنون، والرد عليهم: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِعِيمَةٍ رَبِّكَ يَمْجُنُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾  
وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْهُ وَيُبَصِّرُونَ ﴿٥﴾ يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ  
عَنْ سَبِيلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، «ن»: أحد حروف الهجاء، وأحد الحروف المقطعة التي تكون أوائل السور نحو «ص» و«ق».

وقد سبق الكلام على هذه الحروف، وذكر أقوال أهل العلم في معناها والمراد بها في مطلع «سورة البقرة».

وبيان أن أظهر الأقوال في معناها أنها ذكرت في مطلع بعض السور للتحدي والإعجاز، وأن العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، والذين نزل القرآن بلغتهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها.

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعدده، وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقيبح، وأقدرهم على التكلم بها... وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته».

﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: للقسم، و«القلم» مقسم به. والقلم: هو أداة الكتابة المعروفة، فبه كتب القدر، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/٤٩٩.

رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟»، قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»<sup>(١)</sup>.

وبه يكتب الملائكة أعمال بني آدم، وبه يكتب الذكر، وبه يكتب العلم.  
قال الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيده      قيّد صيودك بالحبال الوثائقه  
فمن الحماقة أن تصيد غزاة      وتركها بين الخلائق طالقته<sup>(٢)</sup>

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: عاطفة و«ما» موصولة، أي: والذي يكتبون، وقد تكون «ما» مصدرية، أي: وسطهم، أي: كتبهم.

كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾<sup>(٣)</sup> الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق: ٥-٣].

فأقسم عز وجل بأداة الكتابة وهو القلم، وبالذي يكتبون، وهو العلم.  
قال ابن تيمية<sup>(٣)</sup>: «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون: فإن القلم يكون به الكتاب الساطر للكلام المتضمن للأمر والنهي والإرادة والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه. أحدهما: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه، فإخباره عنه أحكم وأصدق.

الثاني: أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً، فليس كل معلوم مقولاً، ولا كل مقول مكتوباً، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتابة دون الكلام فقط، أو

(١) أخرجه أبو داود في السنة- باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥، وأحمد ٣١٧/٥، والطبري في «جامع البيان» ١٤٥/٢٣.

(٢) انظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» ص ٣٣-٣٤.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ١٥-١٤/٥.

دون العلم فقط».

ويؤخذ من افتتاح السورة بقوله: ﴿ت﴾، ومن الإقسام بالقلم، وبالمكتوب فضل العلم وأهله.

وقد أكد القرآن الكريم هذا في مواضع عدة، بل إن أول آية وأول سورة نزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ بالأمر بذلك، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١-٥].  
وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

قال البخاري «فبدأ بالعلم قبل القول والعمل»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑧﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وامتن عز وجل على عباده بالعلم بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④﴾ [الرحمن: ١-٤].

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»<sup>(٢)</sup>.

وقد سجل هذا معروف الرصافي بقوله<sup>(٣)</sup>:

هل العلم في الإسلام إلا فريضة      وهل أمة سادت بغير التعلم  
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلاما      بصائر أقوام عن المجد نوم

(١) انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩ - كتاب العلم - باب العلم قبل القول والعمل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤ - من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ١٨٩.

وحلت له الأيام عند قيامه  
فأشرق نور العلم من حجراته  
ودك حصون الجاهلية بالهدى  
وأنشط بالعلم العزائم وابتنى  
وأطلق أذهان الورى من قيودها  
وفك إसार القوم حتى تحفزوا  
جباها وأبدت منظر المتبسم  
على وجه عصر بالجهالة مظلم  
وقوَّض أطناب الضلال المخيم  
لأهليه مجداً ليس بالمتهدم  
فطارت بأفكارٍ على المجد حُوم  
نهوضاً إلى العلياء من كل بحم

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا مالاً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»<sup>(٢)</sup>.

وعن معاوية- رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي

(١) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣، وأحمد ١٩٦/٥.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٧١، ومسلم في الزكاة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١.

بها ويعلمها»<sup>(١)</sup>.

وقال عليه السلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»<sup>(٢)</sup>.

وقال عليه السلام: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»<sup>(٣)</sup>.

وقال عليه السلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»<sup>(٤)</sup>.

قال الشافعي<sup>(٥)</sup>: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

وبالعلم ارتفع كلب الصيد على غيره من الكلاب فجاز اقتناؤه وحل صيده.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان»<sup>(٦)</sup>.

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١ - من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه.

(٥) انظر: «المجموع» ٢٠/١، «نشر طي التعريف» ص ١٦٢، «الأخلاق الزكية» ص ٣٧. وليس فيها: «ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

(٦) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٤٨٠، ومسلم في المساقاة ١٥٧٤..

يحسنه»<sup>(١)</sup>.

وقال علي رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم  
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه  
فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً  
وقال الشاعر:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له  
العلم مبلغ قوم ذروة الشرف  
يا صاحب العلم مهلاً لا تدنسه  
وقال الآخر:

فصاحة حسان وخط ابن مقله  
لو اجتمعت في المرء والمرء جاهل  
وقال الشافعي<sup>(٥)</sup>:

ومن فاته التعليم وقت شبابه  
وذات الفتى - والله - بالعلم والتقوى  
وقال الآخر:

إذا ما مات ذو علم وتقوى  
وموت العابد القوام ليلاً

على الهدى لمن استهدى أدلاء  
والجاهلون لأهل العلم أعداء  
فالناس موتى وأهل العلم أحياء

والجهل يهدم بيت العز والشرف  
وصاحب العلم محفوظ من التلف  
في الموبقات فما للعلم من خلف<sup>(٣)</sup>

وحكمة لقمان وزهد بن أدهم  
ينادى عليه لا يسام بدرهم<sup>(٤)</sup>

فكبر عليه أربعاً لوفاته  
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

فقد ثلمت من الإسلام ثلمه  
يناجي ربه في كل ظلمه

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ٧٤.

(٢) انظر: «ديوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ص ٧، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣١.

(٣) الأبيات تنسب للطغرائي. انظر: «جواهر الأدب» ٢/ ٤٤٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣٤.

(٤) انظر: «نفحة اليمن» ص ١٢٥، «جواهر الأدب» ٢/ ٤٨٩.

(٥) انظر: «ديوانه» ص ٣٨.

وموت فتى كثير الجود مَحَلٌّ  
وموت الفارس الضرغام هدم  
وموت الحاكم العدل المولّى  
فحسبك خمسة يُكى عليهم  
وباقى الناس هم همج رعاع  
وقال الشافعي (٢):

أخي لن تنال العلم إلا بسة  
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة

قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾.

هذا هو المقسم عليه، وهو نفي الجنون عنه ﷺ، وإثبات الأجر غير الممنون له، وأنه على خلق عظيم.

قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، «ما»: نافية عاملة عمل ليس، والباء: للسببية، أي: لست يا محمد بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة.

﴿بِمَجْنُونٍ﴾، أي: بمعنوه فاقد العقل، كما يقوله الجهلة المكذبون المعاندون من قومك، كما هي عادة المكذبين للرسول، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٣﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فأقسم عز وجل على تبرئة نبيه ورسوله ﷺ عما يقوله المشركون، من أنه مجنون. وفي توسط قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ بين اسم «ما» وخبرها إشارة إلى عظيم نعمة الله عليه ﷺ، وأنه بهذه النبوة والرسالة منعم عليه مصطفى من بين العالمين، وتأکید لنفي

(١) الأبيات للشيخ عبدالعزيز الدبرني. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٢٠١/٨، «رياض

الرياحين في حكايات الصالحين» ص ٢٢٢، «أبراج الزجاج في سيرة الحجاج» ص ٢٠.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ١٣٨. وفيه: «وصحة أستاذ...».

ما رموه به من الجنون، إذ كيف تجعل النعمة العظيمة سبباً للجنون، وكيف تجعل النعمة نقمة، فهم أولى بوصف الجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ نكّر «أجراً»؛ للتعظيم، أي: وإن لك لأجراً عظيماً وثواباً جزيلاً غير منقطع، على تبليغك رسالة ربك، وأدائك الأمانة، ونصحك للأمة، وجهادك في الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْذُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، أي: غير مقطوع.

وأيضاً: غير ممنون به عليك كما يمن الخلق بإتباعهم ما يُعطون بالمن والأذى من تكبرهم على من يعطونه واحتقارهم له ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا قسم منه عز وجل، وهو أصدق القائلين، وشهادة منه عز وجل، وهو خير الشاهدين لرسوله ﷺ أنه على خلق عظيم، فأعظم به من قسم وأكرم بها من شهادة.

والمعنى: وإنك لعلى دين عظيم؛ لأنه ﷺ تخلق بأخلاق القرآن، وتأدب بآدابه امتثالاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه حتى صار ذلك له سجية وطبعاً مع ما جبله الله عليه من كريم السجايا وعظيم الصفات، أدباً وحياء، وشجاعة وكرماً، صفحاً وحلماً، شفقة ورحمة، صدقاً ومحبة.

ولهذا لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»<sup>(١)</sup>. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله؟ ألا فعلته؟، وكان

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين - جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في التطوع - صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ٨٦٠١، وأحمد ٥٣/٦، ١١١، ١١٦، ١٨٨، ٢١٦.

ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا مسست خزا ولا حريرا، ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»<sup>(١)</sup>. فكان له ﷺ من كل خصلة من مكارم الأخلاق أعلاها وأكملها وأجلها في حق ربه، وفي تعامله مع أهله وأزواجه وأصحابه وسائر الناس.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير»<sup>(٢)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خيّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمت الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «إنها بعثت لأتم صالح الأخلاق»<sup>(٤)</sup>.

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما حجني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رأي إلا تبسم في وجهي»<sup>(٥)</sup>.

وعن أبي مسعود البديري - رضي الله عنه - قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٥، وأخرجه مختصرًا البخاري في الوصايا ٢٧٦٨، ومسلم في الفضائل - كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا ٢٣٠٩، وأحمد ١٠٧/٣، ٢٠٠، ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب - صفة النبي - ﷺ ٣٥٤٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٣٧، والترمذي في اللباس ١٧٢٤.

(٣) أخرجه أحمد ٦/٢٣٢.

(٤) أخرجه أحمد ٢/٣٨١ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما فيما رواه أبو ذر - رضي الله عنه عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ فرجع فقال له: «رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق» أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٤.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٥، والترمذي في المناقب ٣٨٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٩.

ترعد فرائصه، فقال له: «هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»<sup>(١)</sup> وهذا تواضع منه ﷺ.

فلنا به ﷺ الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان ﷺ مع ما وهبه الله من خلق كريم يسأل ربه بقوله: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت»<sup>(٢)</sup>.

وأوصى ﷺ سلمان رضي الله عنه أن يقول: «اللهم إني أسألك صحة في إيمان وإيماناً في حسن خلق»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»<sup>(٤)</sup>.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»<sup>(٥)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أخيركم أحسنكم خلقاً» وفي رواية: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»<sup>(٦)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه ابن ماجه في الأظعمة ٣٣١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١ - من حديث طويل - عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢١/٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢، وقال: «حديث حسن صحيح» وأحمد ٤٥١/٦ - ٤٥٢.

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٨ وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٢٩، ٦٠٣٥، ومسلم في الفضائل ٢٣٢١، والترمذي في البر والصلة ١٩٧٥، وأحمد ١٨٥/٢.

(٧) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٦٢، والدارمي في الرقاق ٢٧٩٢، وأحمد ٢٥٠/٢.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه، قال: جاءت الأعراب فسألوا رسول الله ﷺ وقالوا: ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟ قال: «خلق حسن» وفي رواية عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «أحسنهم خلقًا»<sup>(١)</sup>.

وعن عمرو بن عبسة - رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وقلت: أي الإيوان أفضل؟ قال: «خلق حسن»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»<sup>(٣)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»<sup>(٤)</sup>.

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»<sup>(٥)</sup>.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»<sup>(٦)</sup>.

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة - ما جاء في معاشره النساء ١٩٨٧، وقال «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٨.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩، ٤٥١.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٠٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٣، وابن ماجه في المقدمة ٥١.

(٧) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠.

وقد أحسن القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت  
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا<sup>(١)</sup>

وقال الآخر:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه  
فقوم النفس بالأخلاق تستقم<sup>(٢)</sup>

فما أجمل الخلق الحسن وأفضله، ويا فوز من منحه الله ذلك، فوفقه للإحسان والندى، قولاً وفعلًا وبذلاً، وكف الأذى، والصبر عليه، وطلاقة الوجه وبشاشته وابتسامته، وغير ذلك.

وينبغي أن يعلم أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وقد أحسن القائل:

بيذل وحلم ساد في قومه الفتى  
وكونك إياه عليك يسير<sup>(٣)</sup>

وقد رُوي: «أن رجلاً وعظ المأمون وأغلظ عليه في القول، فقال له المأمون: إن الله قد بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْتًا﴾ [طه: ٤٤]»<sup>(٤)</sup>.  
وروي في العفو وحسن الخلق: «أن الحسن البصري قال له رجل: إن فلاناً قد اغتابك، فأرسل إليه طبقاً من الرطب، وقال: بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافئك بها على التمام»<sup>(٥)</sup>.  
وعن قتادة، قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟! كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك»<sup>(٦)</sup>.

(١) البيت لأحمد شوقي. انظر: «صيد الأفكار» ١/ ٤٨٨، «شعر شوقي في ميزان النقد» ص ٨٥.

(٢) انظر: «الشوقيات» لأحمد شوقي ص ٢٦١.

(٣) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولم ينسب لقائل. انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٣٩، «شرح ابن عقيل» ص ١٣٨، «شرح الشواهد الشعرية» ١/ ٤٠٤.

(٤) انظر: «تاريخ الطبري» ٨/ ٣٥٨، «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» ٨/ ٣٢٨، «مرآة الزمان» ١٣/ ١٨٣.

(٥) انظر: «تنبية الغافلين» للسمرقندي ص ١٦٤، «الرسالة القشيرية» ١٧/ ٢٩٢، «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٥٤، «نزهة المجالس» ١/ ١٥١.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٨٦، وعبد الرزاق في «التفسير» ١/ ٤١٣ (١٣٤). وأخرجه عن الحسن في «المصنف» ٩/ ٧٧ (١٦٤٠٨).

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له وناله منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه. فقال: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقته غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقته وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في الجنة»<sup>(٢)</sup>.

فتأمل أخي الكريم وأختي الكريمة في خلقه ﷺ، ولنا فيه أسوة، وتأمل فيما ذكرت لك من النصوص العظيمة والله الله بالخلق الطيب الحسن تبلغ به بإذن الله أعلى الدرجات، وتسعد به في دنياك وأخرائك، ويحبك الله ويحبك الناس، وتدرك من الخير والفضل من الله - عز وجل - بلاكد ولا تعب - ما لا يدركه غيرك بالصيام والقيام وبذل المال وغير ذلك، وإياك والكبر والغلظة والفضاضة والجفاء والحقد والحسد وسوء الظن وسوء الخلق فإنها من أسباب الشقاء في الدنيا والأخرة.

قوله: ﴿فَسَتْبِرْ وَيُبْرِوَنَ ۝٥ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾، أي: فستري وتعلم يا محمد، وسيري ويعلم المكذبون لك الزاعمون أنك مجنون، من المفتون منكم عن الحق الضال عنه أنت أم هم، وفي هذا وعد له ﷺ ولأتباعه، ووعد للمكذبين له.

وأدخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾، لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتْبِرْ وَيُبْرِوَنَ﴾ معنى العلم والإخبار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرَارِ ۝٦٦﴾ [القمر: ٢٦]، وقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن القيم<sup>(٣)</sup>: «و«ستبصر» مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدي بالباء، كما

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٠.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٥١١.

تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿الرَّبِّعَلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ﴿١٤﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي تاه وبعد عن طريقه عز وجل - الطريق المستقيم - وهم المكذبون لك وفي هذا تهديد ووعد لهم.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو أعلم بالمهتدين من العباد، ومنهم أنت وأصحابك وأتباعك، وفيه وعد لهم، كما أن في هذا بيان لحكمته عز وجل في هداية من يصلح للهداية دون غيره قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾ [الأنعام: ١١٦، ١١٧].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

والمعنى: إن ربك هو أعلم بأنهم هم وأتباعهم الضالون عن سبيله، وهو أعلم بأنك وأصحابك وأتباعك أتم المهتدون.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تحدي العرب بالقرآن وقد نزل بلغتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ت﴾.
- ٢- إقسام المولى عز وجل بالقلم والكتابة على أنه ﷺ ليس بما أنعم الله به عليه بمجنون، وأن له أجراً غير ممنون، وأنه على خلق عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾.
- ٣- أن الله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٤- تعظيم العلم؛ لأن الله أقسم بالقلم وما يسطر به من العلم.

- ٥- إثبات رسالة النبي ﷺ ونعمة الله عليه بالنبوة، ونفي ما رماه به المكذبون من الجنون؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.
- ٦- عظم اجترأ المكذبين للرسول وللدعاة إلى الله برميهم لهم بأقبح الأوصاف كالجنون والسحر والكهانة ونحو ذلك.
- ٧- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه له بذلك وتكريمه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.
- ٨- وعد الله عز وجل لنبيه ﷺ بالأجر العظيم غير المقطوع وغير الممنون به عليه، كما يمن الخلق بما يُعطون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.
- ٩- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ وشهادته له بالخلق العظيم، فأعظم بها من شهادة من خير الشاهدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.
- ١٠- وعد الرسول ﷺ والمؤمنين معه ووعيد المكذبين له بظهور حقيقة كل منهم وطمأنة الرسول ﷺ، وأن العاقبة له وللمتقين لقوله تعالى: ﴿فَسَتَبَصِّرُ وَبَصِيرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ أَلْفَتُونَ﴾.
- ١١- علم الله عز وجل التام بالضالين عن سبيله وبالْمُهْتَدِينَ إِلَيْهِ، وفي هذا أيضًا وعد للمهتدين ووعيد للضالين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكذِبِينَ﴾ (٨) ﴿وَدُوًّا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٩) ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِينٍ﴾ (١٠) ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبِينٍ﴾ (١١) ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢) ﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (١٣) ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٤) ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَا كَاسْطِيرٍ الْأُولِينَ﴾ (١٥) ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُوطِ﴾ (١٦).

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على نفي ما رمى به المكذبون رسوله ﷺ من الجنون، وعلى وعده ﷺ بالأجر غير المنقطع، والشهادة له بالخلق العظيم، والوعد له والوعيد لهم بأن الله سيدين لكل منهم حقيقة حاله، فهو عز وجل الأعلّم بمن ضل عن سبيله وهو أعلّم بالمهتدين، ثم حذر النبي ﷺ من طاعتهم والتنازل معهم فيما يطلبون من المداهنة، ومن الاغترار بحلفهم الكاذب.

قوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكذِبِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلا تطع يا محمد المكذبين من قومك وغيرهم فيما يطلبون منك من المداهنة وغير ذلك مما فيه مخالفة الشرع وهم غالبًا لا يأمرؤن بخير.

وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين في مواضع عدة من كتابه، كما قال تعالى في مطلع سورة الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَنَوَكَّ عَلَىٰ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

ونهى ﷺ عن طاعة المكذبين والكافرين والمنافقين نهي له ولأمته، وليس في نهيه ﷺ عن طاعة المكذبين دلالة أو إشارة إلى أنه قد يطيعهم.

وقد ذكر ابن تيمية (١) رحمه الله أن قوله: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكذِبِينَ﴾ (٨) الآيات تتضمن أصليين:

«أحدهما: أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين، فكان فيه فوائد:  
منها: أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى فلا يطاع المكذب

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/١٥-١٦.

والخلاف ولا يعمل بمثل عملها.. فإن النهي عن قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به لوجوه، منها: أن ذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله: (لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز) ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبسًا بهذه الأخلاق لما فيه من تشريفه وبراءته.

ومنها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره، فإنه محتاج إلى مخالطتهم؛ لأجل دعوتهم إلى الله تعالى. ومنها: أنهم يُيدون مصالح فيما يأمرون به، فلا تطع من كان هكذا، ولو أبداها، فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسدًا لم يقبل الأمر، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسدًا لم يردّها، وهذا معنى بليغ.

والأصل الثاني أنه ذكر قسمين، المكذبين، وذوي الأخلاق الفاسدة، وذلك لوجوه: أحدها: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح، فضده التكذيب والعمل الفاسد. والثاني: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، منهيون عن قبول ضده وهو التكذيب بالحق والترك للصبر».

﴿وَدُّوا﴾، أي: أحب المكذبون وتمنوا.

﴿لَوْ يَدْرَهُنَّ فَيَدَّبُهُنَّ﴾، أي: لو ترخص لهم وتلين - على حساب دينك - فيلينون، وذلك بأن تطيعهم في بعض ما يأمرونك به، أو تتنازل عن شيء من دينك، فيطيعونك في بعض ما لا يعارض أهواءهم.

أي: أحبوا ملايته لهم بالتنازل عن بعض ما هو عليه من الحق وقبول بعض ما هم عليه من الباطل، كما قال بعضهم: «اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة».

ولهذا امتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بثبته له أمام هذه الدعوات، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبَنَّكَ لَفَدَّ كَدَّتْ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥) [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وما نداءات القائلين بالتقارب بين الأديان، والتقريب بين أهل السنة والرافضة،

كما ينادي بذلك بعض المفتونين والمخدوعين، ممن لا يميزون بين الحق والباطل إلا من هذا المنبع الآسن، فإن الإيمان لا يجتمع مع الكفر، وإن السنة لا تجتمع مع البدعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولَى (١٥).

نهی عز وجل عن طاعة المكذبين عموماً، ثم أكد النهي، وخص من بينهم الموصوفين بهذه الصفات القبيحة في الآيات.

قوله ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ﴾، أي: ولا تطع كل إنسان حلاف. و«حلاف»: على وزن «فعلال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حلاف في أقواله، كثير الحلف والأيمان الفاجرة الكاذبة؛ مما يدل على اجترائه على الله والاستهانة بأسماؤه وصفاته.

ولهذا قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه» (١).

﴿مَّهِينٍ﴾ في أفعاله، حقير ضعيف الرأي والتدبير. و«مهين» على وزن «فعليل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على أنه بلغ الغاية في المهانة والحقارة، وذلك أن كثرة الحلف تدل غالباً على ضعف الحالف وكذبه وتستره بالأيمان الكثيرة الكاذبة، كما ذكر الله عز وجل عن المنافقين ﴿أَتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢]. ولا أذل ولا أحقر ولا أهون ممن عصى الله وخالفه، وأثر شهوات نفسه.

﴿هَمَّازٍ﴾ على وزن «فعلال»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: كثير الهمز، وهو الاغتياب والعيب للناس والاستهزاء بهم بقوله ولسانه، وقد يكون بالفعل والإشارة (٢).

(١) أخرجه الطبراني بسند صحيح فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر «فتح المجيد» ص ٤١٦-٤١٨.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «فالهمز أقوى من اللمز وأشد، سواء كان همز صوت أو همز حركة، والهجاز المبالغ في العيب نوعاً وقدرًا».

وقد عظم الإسلام أمر الغيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَّ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»<sup>(٢)</sup>.

﴿مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ﴾، أي: كثير المشي بالنميمة، والنميمة: نقل الحديث بين الناس للإفساد والتحريش بينهم.

قال ابن تيمية<sup>(٣)</sup>: «والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا، فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة، والعياب بالضعف، والعياب في مشهد، والعياب في مغيب».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»<sup>(٤)</sup>.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

(١) انظر «دقائق التفسير» ١٧/٥.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤. من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ١٧/٥.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء - من الكبائر أن لا يستتر من بوله ٢١٦، ومسلم في الطهارة - الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة وسنها ٣٤٧.

وفي بعض الروايات «لا يدخل الجنة نمام»<sup>(١)</sup>.  
وعن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.  
ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت»<sup>(٣)</sup> «(٤)».

﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾، «مناع»: كحلاف، و«مشاء» على وزن «فعال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: أنه بلغ الغاية في منع الخير، فلا يمكن أن يعمل أو يقول أو يقدم خيراً، بل يمنع ما عليه من حقوق من الأعمال والنفقات الواجبة والزكوات والكفارات ولا يبذل شيئاً مما لديه.

﴿مُعْتَدٍ﴾، أي: معتد على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، متجاوز العدل إلى الظلم، والحق إلى الباطل في حقوق الخلق.

﴿أَنِيمٍ﴾ كثير الإثم لمنعه الحقوق الواجبة لله وارتكابه المحرمات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن تيمية<sup>(٥)</sup>: «وأما ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيمٍ﴾، فإن الظلم نوعان: ترك الواجب، وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي».

وقال السعدي<sup>(٦)</sup>: «﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق بظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم

(١) أخرجه البخاري في الأدب- ما يكره من النميمة ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان- بيان غلظ تحريم النميمة ١٠٥، وأبو داود في الأدب- باب القتات ٤٨٧١، والترمذي في أبواب البر- ما جاء في النمام ٢٠٢٦، وأحمد ٣٨٢/٥، ٣٨٩، ٣٩١.

(٢) أي: أنهم يذكرون بالله عز وجل بكثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة خوفهم وخشيتهم وتقاهم وورعهم.

(٣) أي: الذين يطلبون للبريء المشقة، بحيث يرمونه بما ليس فيه.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد- من لا يؤبه به ٤١١٩، وأحمد ٤٥٩/٦.

وأخرجه أحمد أيضاً ٢٢٧/٤- من حديث عبدالرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ١٧/٥.

(٦) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤٤٦/٧-٤٤٧.

﴿زَيْنِمٍ﴾، أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله.

﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العتل: هو الفظ الغليظ الجافي، شرس الخلق، الذي لا يتقاد للحق. عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَّصَعَفٌ لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر، وفي رواية «كل جواظ جعظري»<sup>(١)</sup> مستكبر» وفي رواية: «كل جَوَاطٍ زَيْنِمٍ مُتَكَبِّرٍ»<sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع»<sup>(٣)</sup>.

وقد وردت عدة أحاديث مرسلة وعدة آثار عن السلف أن العتل أيضًا هو الشديد الخلق صحيح الجسم الأكل الشروب الظلوم للناس<sup>(٤)</sup>. وهو بمعنى ما سبق.

﴿زَيْنِمٍ﴾ الزنيم: ولد الزنا، الملحق بالقوم الملقق بهم وليس منهم، اللثيم المريب، المشهور بالشر والظلم من شدة تجبره وغلظته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿زَيْنِمٍ﴾ قال: «الدعي، الفاحش اللثيم»<sup>(٥)</sup>. قال الشاعر:

زنيم تداعاه الرجال زيادة      كما زيد في عرض الأديم الأكارع<sup>(٦)</sup>

(١) الجواظ: الجموع المتنوع، وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل القصير البطين. الجعظري: الفظ الغليظ، وقيل هو الذي يتنفخ بما ليس عنده، وفيه قصر. انظر: «لسان العرب»: مادة «جعظري» ومادة «جوظ».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٥، وابن ماجه في الزهد ٤١١٦، وأحمد ٣٠٦/٤.

(٣) أخرجه أحمد ١٦٩/٢، ٢١٤.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢٣/١٦١-١٦٤، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/٣٣٦٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٦٥.

(٦) البيت ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة، وابن منظور في «اللسان» مادة «زنم» ونسبه إلى الخطيم التميمي الجاهلي.

وقال حسان رضي الله عنه<sup>(١)</sup> في ذم بعض المشركين:  
وأنت زنيم نيط في آل هاشم      كما نيط خلف الراكب القدح الفرد  
وقال الآخر:

زنيم ليس يعرف من أبوه      بغبي الأم ذو حسب لئيم<sup>(٢)</sup>  
عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عتل بعد ذلك زنيم» قال: رجل من قريش له  
زنمة مثل زنمة الشاة<sup>(٣)</sup>(٤).

قال ابن كثير<sup>(٥)</sup> بعد أن ذكر قول ابن عباس السابق: «ومعنى هذا أنه كان مشهوراً  
بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها».

وقال أيضاً<sup>(٦)</sup> بعد سياق كثير من الأقوال: «والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما  
قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به بين الناس، وغالبًا يكون دعياً  
ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه، ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في  
الحديث «لا يدخل الجنة ولد زنا»<sup>(٧)</sup> وفي الحديث الآخر «ولد الزنا شر الثلاثة»<sup>(٨)</sup>.  
وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «هو أشر الثلاثة، إذا  
عمل بعمل أبويه يعني ولد الزنا»<sup>(٩)</sup>.

قال ابن تيمية<sup>(١٠)</sup>: «ويشبهه - والله أعلم - أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم  
من جنس واحد، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال، والمناع المعتدي الأثيم العتل

(١) انظر «ديوانه» ص ١١٨.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/١٦٤.

(٣) زنمة الشاة: شيء يقطع من أذن الشاة، ويترك معلقاً بها. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «زنم».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٧.

(٥) في «تفسيره» ٨/٢١٩.

(٦) في «تفسيره» ٨/٢٢١.

(٧) أخرجه أحمد ٢/٢٠٣ - من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه أبو داود في العتق - عتق ولد الزنا ٣٩٦٣، وأحمد ٢/٣١١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) أخرجه أحمد ٦/١٠٩.

(١٠) انظر «دقائق التفسير» ٥/١٧.

الزنيب من جنس واحد، وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك».

فجمع الله عز وجل في وصف هذا الذي نهى نبيه ﷺ عن طاعته أقبح الصفات، فهو كثير الحلف، حقير مغتاب للناس، ساع بنقل الكلام بينهم بقصد الإفساد والتحريش بينهم، مناع لما عليه من حقوق لا يعمل ولا يقدم شيئاً من الخير، متجاوز الحلال إلى الحرام، والعدل والحق إلى الظلم والباطل، كثير الإثم، تارك للواجبات، مرتكب للمحرمات فظ غليظ جاف جموع ممنوع، زنيب ملحق ملصق في قوم وليس منهم.

فهذه تسع صفات تدل على إغراقه في الشر وبعده عن كل خير، وأنه وصل إلى الغاية العظمى في ذلك؛ لأن الذي وصفه بهذه الصفات ونعته بها هو العليم الخبير سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، فبعداً لمن هذه صفاته وسحقاً.

وإذا سبرت أحوال المسلمين وجدت كثيراً منهم لا يخلو من بعض هذه الصفات، مما يوجب علينا جميعاً محاسبة النفس في استعمال ما منحنا الله عز وجل من الجوارح الظاهرة والباطنة في طاعة الله، وفيما خلقت له، والبعد بها عما يسخط الله، ومحاسبة النفس في أداء الحقوق، وبذل الخير، والبعد عن الحرام والظلم والإثم، والغلظة والفظاظة والله المستعان.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «أن كان» بهمزتين على الاستفهام للتوبيخ والتقريع.

وقرأ الباقون: ﴿أَنْ كَانَ﴾ بهمزة واحدة على الخبر، أي: بسبب أن كان ذا مال وبنين. أي: بسبب إنعامنا عليه بالمال والبنين.

وقوله: ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، أي: صاحب مال وبنين. فاغتر بباله وبنيه قال تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمعنى: مقابل إنعامنا عليه بالمال والبنين اتصف بهذه الصفات المذمومة السابقة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾، أي: إذا قرئت عليه آياتنا الشرعية القرآن الكريم قال

عنها.

﴿أَسْطُرُ الْأُولَىٰ﴾، أي: كذب بها وكفر، وقال: هي مما سطره الأولون من

الحكايات والخرافات التي لا تكاد تصدق.

كما قال تعالى عنه في سورة المدثر ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدُتٌ لَهُ، تَمَهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأْرِهْقُهُ، صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَاسٌ يُؤْتِرُنِي ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: ١١-٢٦].

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُورِ﴾، أي: سنذله غاية الإذلال، وسنجعل له وسماً يعرف به، حتى يتبين أمره ويفتضح، والوسم: ما يوضع على الشيء من علامة تميزه عن غيره، ومنه وسم بهيمة الأنعام: الإبل والبقر، والضأن والمعز بعلامة يعرفها بها صاحبها وغيره.

﴿عَلَى الْخُرْطُورِ﴾، أي: على الأنف؛ لأنه أبين وأرفع الوجه. والمعنى: سنجعل فيه علامة سيئة على أنفه يشهر به فيها، ونسود وجهه ونبين أمره بياناً واضحاً ونفضحه على رؤوس الخلائق كما قال تعالى في المنافقين ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٠].

قال ابن تيمية (١): «قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُورِ﴾، فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً، فإن الله جعل للصالحين سيما، وجعل للفاجرين سيما، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].»

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة أو غيره فإنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفات؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

### الفوائد والأحكام:

١- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين، وهو نهي له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

٢- تمنى المكذبين ومحبتهم ملاينة الرسول ﷺ لهم وملايتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيْدْهِنُونَ﴾.

(١) انظر «دقائق التفسير» ١٧/٥.

٣- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ - وهو نهي له ولأمته - عن طاعة كل من كان كثير الحلف حقيراً ضعيف الرأي، ينتقص الناس بقوله وفعله، ويمشي بينهم بالنميمة، مناعاً للخير، معتدياً على الخلق، تاركاً للواجبات، مرتكباً للمحرمات، كثير الإثم، فظاً غليظاً، جافياً كثير الشر، مغتراً بهاله وبنيه، راداً للحق، زنياً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

٤- وجوب الحذر من الاتصاف بالصفات الذميمة المذكورة في الآية.

٥- ينبغي عدم الاعتراض بالمال والبنين لقوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

٦- الوعيد للموصوف بتلك الصفات الذميمة سواء كان هو الوليد بن المغيرة أو غيره بوضع وسم وعلامة على أنفه تشهيراً به بين الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُورِ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْقُوا لَكُمْ أَلَّا تَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا نَبِئْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْمَنَابُ وَالْمَنَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾».

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾».

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ﴾ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الغيبة في قوله: ﴿بَلَوْتَهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين للرسول ﷺ من قومه. والابتلاء: الامتحان، ويكون بالخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت

ويبتلي الله بعض القوم بالنعم<sup>(٢)</sup>  
أي: امتحانهم فيما أنعمنا عليهم من الخير من بعثة محمد ﷺ وبما أوجبنا عليهم من التكاليف ليثابوا عليها كما امتحانهم بما أغدقنا عليهم من النعم وبما أمددناهم به من الأموال والأولاد والإمهال استدراجاً لهم.

﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾، أي: كما امتحنا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، أي: أصحاب البستان. وسمي البستان جنة؛ لأنه يُجَن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة الكثيرة وثماره، كما قال تعالى:

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص ٥٧٧.

﴿ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَبَّاجِنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّةِينَ مِّنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٣﴾ كَلَّا الْجَنَّةِينَ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَطْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

وأصحاب الجنة هؤلاء هم نفر من بني إسرائيل امتحنهم الله عز وجل بأن ملكهم هذه الجنة التي ورثوها عن والدهم.

قال الإمام أحمد: «هذه مدينة ضروان قد مررت بها، وهي قريبة من عبد الرزاق، رأيتها سوداء حمراء، أثر النار تبين منها، ليس فيها أثر ولا زرع ولا خضرة»<sup>(١)</sup>.

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين حلفوا.

﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والصرم: الجذاذ والقطع، أي: ليقطعنها ويجذّن ثمرها.

﴿ مُصْبِحِينَ ﴾: حال، أي: حال كونهم مصبحين، أي: داخلين في الصباح - وذلك اغتراراً منهم.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «أي: حلفوا فيما بينهم ليجذّن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء».

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد في الليل»<sup>(٣)</sup>.

﴿ وَلَا يَسْتَنُونَ ﴾ حصة المساكين، أو، ولا يستنون في حلفهم، أي: لم يقولوا: إن شاء الله؛ ولهذا حنّهم الله في أيانهم، فأهلكها، قال تعالى: ﴿ نَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾، أي: فنزل بها بلاء محيط، وطرقها طارق ليلاً من أمر الله تعالى وعذابه.

﴿ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ الواو: حالية، أي: أصابتها آفة سهاوية فأحرقتها حال كونهم نائمين. فالمصائب والبليات والرزايا أكثر ما تصيب الناس وهم على غرة غافلون.

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ١٠٩/٣.

(٢) في «تفسيره» ٢٢٢/٨.

(٣) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٢٣/٨.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقد قيل:

يا راقد الليل مسرورًا بأوله  
لا تفرحن بليل طاب أوله  
إن الحوادث قد يطرقن أسحارا  
وقال الآخر:

هي الليالي وقاك الله صولتها  
فأيقظتنا سهام للردى صعب  
تصول حتى على الآساد في الأجم  
نمنا بها تحت أفنان من النعم  
يُرمى بأفجع حتفٍ من بهن رُمي (٢)

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي: فأصبحت كالليل الأسود البهيم من شدة الاحتراق، أو كالهشيم اليابس وبقية الثمر المصروم، والزرع المحصود.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيء له» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ قد حُرِّمُوا خَيْرَ جَنَّتِهِمْ (٣).

﴿فَنَادُوا مُصِيبِينَ﴾، أي: فتنادوا وقت الصباح، أي: نادى بعضهم بعضاً، قائلين:  
﴿أَن آغْدُوا عَلَيَّ حَرْبَكُمْ﴾، أي: هيا اذهبوا إلى حرتكم، قال مجاهد: «كان حرتهم

(١) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي. انظر: «ديوانه» ص ٥٦.

(٢) الأبيات لأبي عبد الله الغفيلي. انظر: «نفع الطيب» ٤/ ٥٢٩.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٣ ونسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

عنبًا» (١).

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾، أي: إن كنتم عازمين على الصرام والجذاذ، ولم تعلموا ما طاف بجنّتهم وما حل بها من العذاب.

﴿فَانْطَلِقُوا﴾، أي: فانطلقوا قاصدين جنّتهم، ﴿وَهُمْ يَنْخَفُونَ﴾ الواو: حالية. والمخافتة: المسارة بالكلام، أي: فانطلقوا قاصدين جنّتهم لجذاذها حال كونهم يتناجون سرًا فيما بينهم - خوفًا أن يسمعهم أحد - بمنع حق الله تعالى فيها، قائلًا بعضهم لبعض:

﴿أَنْ لَا يَدْخُلُنَا﴾، أي: ينبغي أن لا يدخلن جنّتك اليوم، أي: يوم صرّمها. ﴿عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾، أي: فقير محتاج يطلب منكم الصدقة والإحسان إليه منها، أو يلتقط ما يتساقط من ثمرها.

ومن شدة حرصهم وبخلهم مخافتهم بهذا الكلام؛ خوفًا أن يسمعهم المساكين أو من يخبرهم.

﴿وَعَدُوا﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم قبل انتشار الناس، حتى لا يراهم أحد.

﴿عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ﴾، أي: على إمساك ومنع لحق الله وحق المساكين وانفراد عنهم.

﴿قَدِيرِينَ﴾ جازمين بقدرتهم على ذلك، حسب زعمهم واعتقادهم.

فظنوا أنهم بما أضمره من جذاذها ليلا ومنع المساكين من دخولها قادرون على الحفاظ عليها وحيازتها، فأحاط بها من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال بسبب سوء نيتهم، بل وتصميمهم وعزمهم على منع حق الله تعالى فيها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ﴾، أي: فلما وصلوا إليها، وشاهدوها على الوصف الذي

ذكر الله ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ قد تبدلت خضرتها ونضارتها بالسواد.

﴿قَالُوا﴾ من شدة الحيرة والانزعاج والذهول: ﴿إِنَّا لَصَّالُونَ﴾، أي: تائهون عنها

أخطأنا طريقها، فليست هذه بجنّتنا، وذلك لما شاهدوا من البون الشاسع بين حالتها

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٢٢/٨. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/٢٥٤ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالأمس وحالها اليوم.

﴿بَلْ نَحْنُ مُخْرَمُونَ﴾ قالوا: هذا بعد أن تيقنوا أن هذه هي جنتهم استحالت هكذا، أي: بل هذه هي، حرمانا خيرها وثمرتها عقوبة لنا على سوء قصدنا. وفي الحديث «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»<sup>(١)</sup>.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، أي: أعدلهم وخيرهم وأصوبهم رأياً وأحسنهم طريقة.

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام ومعناه التوبيخ: ﴿أَلَمْ تَسْبِحُون﴾، «لولا» للتخصيص، أي: ألم أقل لكم هلا تسبحون.

ومعنى ﴿تُسَبِّحُونَ﴾، أي: تنزهون الله عما لا يليق به بقولكم: «سبحان ربنا، سبحان الله»، ومن ذلك أيضاً أن تستنوا في يمينكم فتقولوا: والله لنصر منها مصبحين إن شاء الله، فهذا من تعظيم الله عز وجل وتنزيهه أن يقع ما لا يريده.

أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم بأداء حق الله تعالى فيه، ومنه حق المساكين لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ سبحوا الرب ونزهوه وندموا حيث لا ينفع الندم، وبعد أن وقع على جنتهم العذاب الذي لا يرفع.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: أقرروا بظلمهم، أي: إنا كنا ظالمين لأنفسنا بترك تسبيح الله والاستثناء في اليمين، وبسوء نياتنا في حرمان المساكين، وظالمين للمساكين بمنع حقهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾، أي: أخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما حصل منهم، قائلاً بعضهم لبعض تحويلاً:

﴿يَوَيْلْنَا﴾ الويل: كلمة تهديد ووعيد، أي: يا شدة عذابنا، أو ما أشد عذابنا، فلام بعضهم بعضاً على فعلهم، وتوقعوا عقوبة أشد مما وقع بهم وأعظم.

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢ - من حديث ثوبان رضي الله عنه.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: إنا كنا متجاوزين الحق والعدل إلى الباطل والظلم. فأقروا واعترفوا بذنبهم وخطئهم، وأن ما أصابهم بسبب طغيانهم واعتدائهم وبغيهم، وظلمهم للمساكين.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾، «عسى» للترجي، أي: نرجو ربنا خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا أن يبدلنا ويعوضنا خيرًا من جنتنا التي صارت كالصرير.

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾، أي: إنا راغبون في التقرب إلى ربنا، وطاعته وترك مخالفته تائبون إليه، وراغبون فيما عنده من الخير الدنيوي والأخروي، وبأن يعوضنا عن جنتنا خيرًا منها في الدنيا، ويشبنا على خسارتنا فيها وما فاتنا من ثمرتها.

ويحتمل أنهم أرادوا خيرًا منها في الآخرة، ويحتمل الأمران. قال السعدي<sup>(١)</sup>: «فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا ورغب إليه ورجاه أعطاه سُؤله»،

ولعل من أسباب توفيق الله لهم إلى التوبة صلاح أبيهم الذي كان يأكل ثلث الثمرة ويتصدق بثلثها ويرد فيها ثلثًا، فإن صلاح الآباء قد ينفع الأولاد.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ الكاف: صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي أهلك الله به حرثهم يعذب من عصى الله وخالف أمره ولم يشكره، ومنع حق الله فيما آتاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرِتِ وَيَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال ابن تيمية<sup>(٢)</sup>: «وقوله: ﴿إِنَّا بَلَّوْنَهُمْ﴾ إلخ فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال، إما إغراقًا، وإما إحراقًا، وإما نهبًا، وإما

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤٥١/٧.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ١٨/٥.

مصادرة، وإما في شهوات الغي، وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمنعون الحق، وليس لهم إقدام في صنائع المعروف، وهو قوله: ﴿مَنَاعَ لَلْخَيْرِ﴾ وهو أحد نوعي الظلم، كما أخبروا به عن نفوسهم في قوله: ﴿يُوْتِلْنَا إِنَّا كُنَّا طَعِينٌ﴾، وكما قال ﷺ: «مطل الغني ظلم»<sup>(١)</sup>. فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة».

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الواو: عاطفة، و«اللام» لام الابتداء والتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، مهما كان عذاب الدنيا شديداً، كما قال تعالى: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحُزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ [الغاشية: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿هُمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، «لو» شرطية، أي: لو كانوا يعلمون علماً ينفعهم أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فيعملون على اتقائه والخلاص منه، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

وفي هذا وعيد للمكذبين للرسول ﷺ من قومه، الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم في بعثته ﷺ فيهم، ووعيد لكل من كفر بالله، أو بنعمه، ولم يؤد شكرها وحق الله فيها. وقد ذكر المفسرون - رحمهم الله - أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل الكتاب،

(١) أخرجه البخاري في الحوالات ٢٢٨٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٣٤٥، والنسائي في البيوع ٤٦٨٨، والترمذي في البيوع ١٣٠٨، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكانوا ورثوها من أبيهم، وكان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان يقسم ما يخرج منها أثلاثاً، يأكل منها ثلثاً، ويتصدق بثلث، ويرد فيها ثلثاً، فلما مات وورثها عنه بنوه فخالفوا هذه السيرة الحسنة، وعزموا على منع المساكين من دخولها وأكل حقهم فيها، وحيازة ثمرها كله لهم، واتهموا أباهم بالحمق وسوء التصرف، فعوقبوا بنقيض قصدهم، فأحاط بها كلها من أمر الله ما أحاط بها، فخسروا رأس المال والربح والصدقة، ولم يبق لهم شيء.

وهكذا عاقبة من منع حق الله الذي شرعه في المال من حق الفقراء والمساكين وغيرهم من الصدقات والنفقات وغير ذلك؛ لأن حق الله الذي جعله في المال قليل من كثير، فمن منعه وشح به فقد عرض نفسه لمحق البركة وتلف القليل والكثير، مع العذاب الأخروي.

ولهذا جاء في الأثر: «ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة»<sup>(١)</sup>. والشواهد على هذا من الواقع كثيرة فإن من أخذ المال من طرق حلال، وأنفقه في الحلال، وأدى حق الله فيه للفقراء والمساكين وغيرهم بارك الله له في ماله وسعد به في دنياه وأخراه، بخلاف من منع حق الله في ماله، فإن ذلك يكون سبباً لمحق بركته، بل سبباً لتسلط الآفات السماوية والأرضية عليه، وتسلط أهل السطو والسرقات عليه. فالحقوق الواجبة في المال من الزكاة والنفقات والصدقات وغيرها إذا أخرجت من المال زكته وزادته نهاءً وبركة، وإن تركت فيه كانت سبباً لمحق بركته وتلفه، مع العقوبة الشديدة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١/ ٢٤ - من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه. وانظر: «كنز

القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحى عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار..»<sup>(١)</sup>.

#### الفوائد والأحكام:

- ١- ابتلاء الله للكفار والمكذبين بما آتاهم من الأموال والأولاد مما حملهم على التكذيب والكفر والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾.
- ٢- أن الابتلاء يكون بالخير والشر.
- ٣- أن كفر النعم وعدم شكرها سبب لزوالها، وهكذا حصل لأصحاب الجنة المذكورة لما عزموا على منع حق المساكين فيها، وأقسموا على ذلك أهلك الله حرثهم، وقد حفظها الله عز وجل لأبيهم في حياته لشكره وأدائه حق الله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾

- ٤- وجوب الحذر من فتنة المال مما يحمل على منع حق الله فيه وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنْوْنَ﴾.
- ٥- مشروعية الاستثناء باليمين حتى لا يقع الحالف في الحنث فيأثم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَنْوْنَ﴾.

- ٦- عظم عقوبات الله تعالى وتما قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.
- ٧- وجوب الاعتماد على الله وحوله وقوته، والبراءة من اعتماد الإنسان على حوله وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرِينَ﴾.
- ٨- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

- ٩- أن المصائب والرزايا أكثر ما تقع على الناس في ساعة الغفلة والاغترار؛ لقوله

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٥٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَهُرَّ نَائِمُونَ﴾.

١٠- حرمان الإنسان الرزق بسبب الذنب يصيبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا

لضَالُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٣٧﴾.

١١- الحذر من سوء النية والقصد وخطورة ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظَرُوا وَهَرَّ

يَخْفَتُونَ ﴿٣٨﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٣٩﴾.

١٢- في قصص المبتلين وعقوبات العاصين عظة وعبرة لمن يعتبر.

١٣- توفيق الله عز وجل لأصحاب الجنة بعد هلاك جنتهم إلى الندم وتسبيح الله

عز وجل والاعتراف بظلمهم وإقبال بعض على بعض يتلاومون والإقرار بطغيانهم

وسؤالهم الله عز وجل أن يبدهم خيراً منها ورغبتهم إليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ

أَوْسَطُهُمْ أَلْرَأْفَلْ لَكَ لَوْلَا تَسْتَحِينُ ﴿٣٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴿٣٠﴾

قَالُوا يَا بُولَاقَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾.

١٤- وجوب التوبة إلى الله عز وجل، وإثبات ربوبية الله الخاصة لمن تاب وأتاب

إليه؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

١٥- الوعيد والتهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي لكل من كفر نعم الله من

أهل مكة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْأَخْرَى أَكْبَرُ﴾.

١٦- أن عذاب الآخرة لمن كفر نعم الله وعصاه ولم يشكره أشد من عذاب الدنيا

وعقوباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْأَخْرَى أَكْبَرُ﴾.

١٧- الحض والحث على العلم الذي ينفع صاحبه في الآخرة وهو العلم بالله عز

وجل وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٦﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْفَهُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَىٰ يَمِينِكُمْ أَنَّ تَأْتُوا بِلُغْوِكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ إِنَّ لَكُمْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا بَيْنَهُمْ بِذَلِكَ رِزْقًا ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ۖ

نهى الله عز وجل عن طاعة المكذبين وبين أنه ابتلاهم بما أنعم به عليهم من النعم وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، كما ابتلى أصحاب البستان الذين منعوا حق الله فيه، فأحاط به من أمر الله ما أحاط به، عقوبة عاجلة وعذاباً في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لمن عصى الله وكفر نعمه، ولم يؤد حق الله فيها، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعدده للمتقين من جنات النعيم التي لا تفتنى ولا تعترها الآفات، وأنهم لا يستوون مع المجرمين المكذبين والرد على من زعم ذلك، أو طمع فيه، وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أو امره واجتناب نواهي، ومن ذلك أداء ما عليهم من حقوق وواجبات بدنية أو مالية.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف اسم الرب أو وصفه إلى الضمير العائد إلى المتقين تشريفاً وتكريماً لهم، وإشارة لضمان ذلك لهم؛ لأن الرب هو الخالق المالك المتصرف.

﴿جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾، أي: المنازل التي أعدها الله لهم، وسماها ﴿جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ لما فيها من ألوان النعيم والنعم، ولما فيها من البساتين والأشجار والثمار، ولما فيها من أنواع التنعم، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»<sup>(١)</sup>.

﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتقريع، والنفي. أي: أفنساوي بين المسلمين والمجرمين في الجزاء الدنيوي والأخروي، أي: لا يمكن أن نساوي بينهم؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى ذلك، وكذا عدله سبحانه،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فللمسلمين النعيم والثواب، وللمجرمين العذاب والعقاب.  
والمراد بالجعل هنا الجعل الشرعي الجزائي و«المسلمين» هم الذين استسلموا لله عز وجل وانقادوا له بجوارحهم الظاهرة والباطنة وهم المتقون.  
و«المجرمين» هم الذين ارتكبوا الجرائم وخالفوا أمر الله ونهيه، وكذبوا رسوله.  
﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، «ما»: استفهامية، أي: كيف تحكمون بهذا الحكم، وتظنون، فشتان بين من اتقى الله واستسلم له، وانقاد ظاهرًا وباطنًا، وبين من عصى الله وخالف أمره وارتكب نبيه في الجزاء الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [١٨] [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، «أم»: هي المنقطة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام التي للتوبيخ والتفريع، أي: بل، ألكم كتاب منزل من عند الله فيه تقرأون، فأخذتم منه هذا الحكم الجائر.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، أي: إن لكم في هذا الكتاب للذي تختارون لأنفسكم وتشتهونه.

والجواب: ليس لكم ولا عندكم كتاب أخذتم منه ذلك، فليس لكم ما تختيارون.  
﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلِغْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، «أم» كالتي قبلها، ومثلها التي بعدها، أي: بل، ألكم علينا ﴿آيَاتُنَا﴾، أي: عهود ومواثيق ﴿بَلِغْنَا﴾، أي: مؤكدة مستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تضمن وتكفل ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، أي: للذي تحكمون به لأنفسكم وتختارونه وتريدونه لها.

أي: ليس لكم علينا عهود ومواثيق بذلك، فليس لكم ما تحكمون.

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾، «الزعيم»: الكفيل الضامن، أي: سلِّموا يا محمد أيهم المتكفل الضامن أن المسلمين كالمجرمين في الجزاء، وأن للمجرمين ما يتخيرون وما يحكمون حتى يتبين ضعف هذا الادعاء وهذا الظن، إذ لا أحد يتكفل لهم بهذا ويضمنه لهم.

﴿أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا﴾، أي: بل، ألهم شركاء من الأصنام والأنداد أشركوهم مع الله، فتكفلوا لهم بذلك وضمنوه لهم.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾، أي: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ويحضروهم؛ ليعطوهم ما تكفلوا به لهم.

﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾، أي: إن كانوا صادقين في زعمهم ودعواهم أن لهم ما يتخيرون وما يحكمون به لأنفسهم، أو إن كان هؤلاء الشركاء صادقين.

وكل ما ذكر منتف عنهم فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله، ولا لهم شركاء يستطيعون تحقيق ذلك لهم فدعواهم فاسدة وحكمهم باطل.

### الفوائد والأحكام:

١- وعد الله للمتقين وبشارتهم بما أعد لهم عند ربهم من جنات النعيم وفي هذا ترغيب بتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة للمؤمنين وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٣- شتان بين المسلمين وبين المجرمين فيما أعد الله لكل منهم فالمسلمون لهم السعادة وجنات النعيم، والمجرمون لهم الشقاء وعذاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُتَّبِعِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾.

٤- كمال عدل الله عز وجل، وقيام أحكامه الكونية والشرعية والجزائية على العدل بأكمل صورته وأسمى معانيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

٥- خطأ المكذبين والمجرمين وضعف رأيهم وبطلان معتقدتهم في التسوية بين المسلمين والمجرمين، وأن لهم ما يتخيرون وما يحكمون، فليس لهم ما يحكمون وما يتخيرون، ولا حجة لهم على ذلك ولا دليل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣١) أم لكم كتب فيه تدرسون (٣٧) إن لكم فيه ما تحيرون (٣٨).

٦- تحدي المكذبين بأن يأتوا بمن يضمن لهم ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم من زعيم أو شريك، وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَلُّهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

٧- خذلان الشركاء يوم القيامة وبراءتهم ممن أشركوهم مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ .

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأَمْلَى لَهُمْ أَنْ كِيدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ لَا يَكْتُمُونَ (٤٧) .

لما ذكر الله عز وجل أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، وأنه لا يمكن أن يجعل المسلمين كالمجرمين في الجزاء، بل لكل جزاؤه، فللمسلمين الثواب، وللمجرمين العقاب، أتبع ذلك بيان متى يكون ذلك فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ الآيات.

قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، «يوم» ظرف زمان متعلق بما قبله، أي أن جزاء المتقين بجنات النعيم، وجزاء غيرهم بما يستحقون يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً» (١).

وهذا الحديث أولى ما تفسر به الآية فيكون معناها: يوم يكشف الله عز وجل عن ساقه. ويؤخذ منها ومن الحديث إثبات الساق لله عز وجل وكشفه ذلك اليوم، كما يليق بجلال الله وعظمته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ولا ينافي هذا ما جاء عن بعض السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، أي: يوم يكشف عن ساق الجذ، أي: يوم الكرب الشديد، والهول الفظيع، والأمر الشديد (٢)، كما يقال: كشفت الحرب عن ساقها قال حاتم الطائي (٣):

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا  
كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُورًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١)

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٩، ومسلم في الإيمان ١٨٢.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٣ / ١٨٦ - ١٩٦.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٥٠.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٤٢﴾ [الحج: ١، ٢].

فالأية تحمل على هذا وهذا ولا تنافي بينهما، وكل ما ذكر يحصل يوم القيامة وأشد منه. وقد مال ابن تيمية وابن القيم<sup>(١)</sup> - رحمهما الله - إلى أن ظاهر القرآن لا يدل على إثبات صفة الساق لله - عز وجل؛ لأن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضيفها إلى الله ولم يقل: عن ساقه، وإنما الذي يدل على ذلك حديث أبي سعيد. والذي يظهر - والله أعلم - من سياق الآية والحديث أن الحديث شرح وتفسير للآية، وبهذا تجتمع الآيه مع الحديث، في الدلالة على هذه الصفة.

﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ويطلب من المجرمين تبيكيتاً لهم أن يسجدوا كالمؤمنين فلا يقدرُونَ عليه ولا يستطيعون الانحناء - لتصلب ظهورهم - . كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وذلك؛ لأنهم امتنعوا عن السجود لله عز وجل وتوحيده في الدنيا يوم أن كان ذلك باستطاعتهم وينفعهم فعوقبوا بهذا، والجزاء من جنس العمل.

والسجود في الأصل يطلق على الانقياد والخضوع مطلقاً، ويطلق على الصلاة كلها كما في قوله: ﴿أَسْلَحْتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَّرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلت الطائفة الأولى فليكونوا من ورائكم يحرسون.

ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة كما هو المشهور وهو المراد في الآية هنا. ﴿خَنِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾، أي: ذليلة منكسرة خاضعة أبصار المكذبين والمجرمين يوم القيامة. ﴿زَهْفُهُمْ﴾، أي: تغشاهم ﴿ذَلَّةٌ﴾، أي: ذل وخوف وهوان وصغار. ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ الواو: حالية و«قد»: للتحقيق. ﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ الواو أيضاً: حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا يطلب منهم السجود حال كونهم سالمي الأعضاء فلا يسجدون، فعوقبوا بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة.

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٩٤، «الصواعق المرسله» ١/ ٢٥٢.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلّى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون».

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«من» موصولة، والمراد بالحديث: القرآن، أي: فدعني يا محمد واتركني والذي يكذب بهذا القرآن، ولا تستعجل له، فأمره إليّ في حياته وبعد مماته، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن كذب بالقرآن، وتقوية لقلب النبي ﷺ، وتسليّة له، ودفاع عنه.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) وَأَتْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿﴾ هذا مما توعدهم الله به في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾؛ وذلك باستدراجهم والكيد لهم؛ ليتبادوا في غيهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومعنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: نأخذهم شيئاً فشيئاً من حيث لا يعلمون، وذلك بتمتعهم في الدنيا بالأموال والأولاد والأرزاق والأعمال والأعمار ليتبادوا في طغيانهم، ثم نأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وَأَتْلَى لَهُمْ﴾، أي: أمهلهم وأنظرهم وأمدهم؛ لكي يتبادوا في غيهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ الكيد: المكر بخفية، أي: إن مكري الخفي.

﴿مَتِينٌ﴾، أي: عظيم لمن كذب رسلي وكتبي، فكيف بمن كذب أفضل رسلي محمداً ﷺ وأعظم كتبي القرآن الكريم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿﴾ (١٦) فَهَلِ الْكٰفِرِينَ أَهْمَهُمْ رُؤْيَا ﴿﴾ (١٧) [الطارق:

١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ﴾ (٣٠) [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: أني أمهلهم وأنظرهم، بل وأمدهم لكي يتبادوا في غيهم، ولا أمهلهم، بل

(١) في «تفسيره» ٨ / ٢٢٥-٢٢٦.

أکید لهم في الخفاء، وأمكر بهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذُوا مِنْ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنُ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾، «أم» هي المنقطعة، أي: بل أتسألهم أجراً يعني على تبليغك الرسالة لهم؟

﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ﴾، أي: فهم من هذا الغرم وهو الأجر الذي طلب منهم.

﴿مُثْقَلُونَ﴾، أي: أثقلهم هذا الغرم وعجزوا عن حمله، وحال ذلك بينهم وبين

الاستجابة لدعوتك. والجواب: أنك لم تسألهم على ذلك أجراً، فلماذا لا يستجيبون؟

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾، أي: بل أعندهم الغيب، أي: أعندهم علم ما غاب عن الحواس من الغيبات الموجودة، والسابقة واللاحقة من أحوال وأمور الدنيا والآخرة وعلم اللوح المحفوظ؟

﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون، وأنهم على كفرهم أفضل

منزلة عند الله من أهل الإيمان، وأنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله.

والجواب: أنه ليس عندهم علم الغيب فيكتبوا لأنفسهم ما يريدون، بل الغيب لا

يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

وإذا لم يكن عندهم علم الغيب، فلماذا يكذبون رسل الله وكتبه، وهو عالم الغيب

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في

التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

والشهادة وهو العليم الخبير.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات الساق لله عز وجل على ما يليق بجلاله، كما دل على ذلك حديث أبي

سعيد رضي الله عنه المتفق على صحته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

٢- شدة أهوال يوم القيامة وكربه.

٣- عقوبة المجرمين الكافرين بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة؛ لأنهم لم

يسجدوا لله في الدنيا مع قدرتهم على ذلك، وفي هذا فضيحة وتوبيخ لهم، والجزاء من

جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى

السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾.

٤- انكسار وذل أبصار المجرمين يوم القيامة وهوانهم وصغارهم؛ لقوله تعالى:

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للمكذبين بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿قَدَرْنَا وَمَن يَكْذِبْ بِهِذَا

الْحَدِيثِ﴾.

٦- استدراج المكذبين وإمهالهم ثم أخذهم بشدة على غفلة منهم وغرّة؛ لقوله

تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٤٥).

٧- أن الله عز وجل يكيد لمن كاد لدينه ولأوليائه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ

كَيْدًا﴾ (١٥) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦) [الطارق: ١٥، ١٦].

٨- انقطاع حجج المكذبين وأعدارهم، فلم يسألهم النبي ﷺ أجراً مقابل

تصديقهم به وبما جاء به فيحتجون بثقل هذه الغرامة، ولم يكن لديهم علم الغيب

فيكتبون لأنفسهم ما يريدون ويختارون لها ما يشتهون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ

مِن مَّغْرُورٍ مُّقْتَلُونَ﴾ (٤٦) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (٤٧).

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّىٰ أَنْ تَدْرِكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لِنَيْذِ الْبَعْرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآيات السابقة أن يترك أمر المكذبين إليه سبحانه فقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ يَهْدَا الْحَدِيثَ﴾ الآيات وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه، ثم أمره بالصبر لحكم الله، ومن ذلك الصبر على أذاهم.

قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الأمر والخطاب للنبي ﷺ، والصبر في اللغة: الحبس، أي: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله. وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله. وحكم الرب ينقسم إلى أقسام ثلاثة: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي. أي: فاصبر لحكم ربك الشرعي في تبليغ رسالته وعبادته، واصبر لحكمه الكوني فيما ينالك من أذى قومك وغير ذلك.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية، والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض والغضب والأذى فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم».

وقال السعدي<sup>(٢)</sup>: «﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، والحكم القدري يُصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد لأمره».

وأضاف عز وجل حكمه إلى اسمه عز وجل «الرب» الذي معناه الخالق المالك المدبر إشارة إلى أن الأمر له في ذلك كله.

(١) انظر «دقائق التفسير» ١٩/٥.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٤٥٤.

﴿وَلَا تَكُنْ﴾، أي: ولا تكن في الاستعجال والمغاضبة وقلة الصبر.

﴿كَصَاحِبِ الْحَوْتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام- حين غضب على قومه، ولم يصبر، وذهب متجها إلى البحر، وركبه وما جرى له في ذلك حيث اقترع أهل السفينة لما ثقلت بهم واشتدت بهم الأمواج أيهم يُلقى لثلا يغرقوا، فوقعت القرعة عليه أكثر من مرة ابتلاءً من الله له، فألقوه فالتقمه الحوت وهو مليم.

﴿إِذْ نَادَى﴾، أي: إذ نادى ربه ودعاه، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مكظومًا.

ومعنى ﴿مَكْظُومٌ﴾، أي: مغموم مكروب، قد امتلأ همًا وحزنًا، في بطن الحوت، وغمرات اليم بعد ما التقمه الحوت وغاص به في لجج البحر.

قال تعالى: ﴿فَالنَّعْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مِلِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»<sup>(١)</sup>.

والمراد: لا تكن مثله في الاستعجال والمغاضبة، وليس النهي عن كونه مثله في مناداة ربه، فإن الله أثنى عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه بسببه فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُفَجِّى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، «لولا»: شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: لولا أن أدركه نعمة من ربه، ولطف منه عز وجل، فرحه وتاب عليه.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: تعظيم لهذه النعمة؛ لأنها من «ربه»؛ خالقه ومالكة ومدبره. وفي إضافة «الرب» أو وصفه إلى ضميره تشرية وتكريم ليونس - عليه السلام.

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، وأحمد ١/ ١٧٠.

﴿لِنُدِّبَ بِالْعَرَاءِ﴾، أي: لطرَح في الأرض الفضاء الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مذمومًا غير ممدوح، مليًا بذنب، لكن الله عز وجل تداركه بنعمته ولطف به برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى؛ ولهذا قال:

﴿فَأَجْنِبْهُ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤٤]، [الصفات: ١٤٣، ١٤٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تحدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة؟ قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين» فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: لا يارب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل مقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء» (٢).

﴿فَأَجْنِبْهُ رَبُّهُ﴾، أي: استخلصه ربه واصطفاه واختاره ونقاه من كل كدر.

(١) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥ / ٣٦٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨ / ٢٤٦٤ في تفسير سورة الأنبياء.

﴿فَجَعَلَهُ﴾ بتوفيقه وتقديره الشرعي والكوني.

﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المرسلين المخلصين العبادة له- سبحانه- وفق شرعه وأمره ونبيه الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فصارت حاله خيرًا وأحسن من حاله الأولى.

كما صارت حال آدم وزوجه عليهما السلام بعد توبتهما أفضل من حالهما قبل الذنب والأكل من الشجرة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الواو: استئنافية، أي: ويقارب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله.

﴿لَيَرْزُقَنكَ بِأَبْصَرِهِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «ليرزقونك» بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَيَرْزُقَنَّكَ﴾.

أي: لينفذونك بأبصارهم، أي ليصيبونك بأعينهم ويصرعونك من شدة نظرهم إليك وحسدهم وحنقهم وغيظهم، لولا حفظ الله لك وحمايته إياك منهم.

وهذا غاية ما يقدرون عليه من الأذى له ﷺ، والله حافظه وناصره، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾، أي: حين سمعوا القرآن منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية دليل على أن العين حق، لكن إصابتها وتأثيرها بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث من طرق متعددة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٧، وأبو داود في السنة ٤٦٦٩، وأحمد

القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»<sup>(٢)</sup>.

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل»<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعوذُ بالحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم»، قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»<sup>(٥)</sup>.

وعنه رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك»<sup>(٦)</sup>.

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: «مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كالיום ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبطَ به<sup>(٧)</sup> فأُتي به النبي ﷺ فقيل

(١) أخرجه مسلم في السلام - باب الطب والمرض ٢١٨٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الطب - باب العين حق ٥٧٤٠، ومسلم في الباب السابق ٢١٨٧، وابن ماجه في الطب، باب العين ٣٥٠٧، وأحمد ٢ / ٣١٨ - ٣١٩، ٤٨٧.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الطب ما جاء أن العين حق والغسل لها ٢٠٦١، وأحمد ٢ / ٢٨٩، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء - ما جاء في الرقية من العين ٣٣٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٣٧، والترمذي في أبواب الطب ٢٠٦٠، وابن ماجه في الطب ٣٥٢٥.

(٥) أخرجه مسلم في السلام - الطب والمرض والرقى ٢١٨٦، والترمذي في الجنائز - ما جاء في التعوذ للمريض ٩٧٢، وابن ماجه في الطب - من استرقى من العين ٣٥٢٣، وأحمد ٣ / ٢٨، ٥٦، ٥٨، ٧٥.

(٦) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢١٣٥، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٧) أي: صرع وسقط إلى الأرض.

له أدرك سهلاً صريعاً، قال: «من تتهمون به؟» قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بباء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخله إزاره، وأمره أن يصب عليه»<sup>(١)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين»<sup>(٢)</sup>.  
وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق»<sup>(٣)</sup>.

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: يا رسول إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»<sup>(٤)</sup>.  
وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق»<sup>(٥)</sup>.

فهذه الأحاديث كلها تدل مع الآية على أن العين حق، وأنها قد تقتل وقد تمرض، وغير ذلك، وكل ذلك بإرادة الله عز وجل.

كما يدل بعض هذه الأحاديث على مشروعية التعوذ وتعويد الأولاد من العين، والرقية والاسترقاء منها، وأنه ينبغي إذا رأى الإنسان ما يعجبه أن يدعو له بالبركة. وإذا كانت الإصابة بالعين حقاً بإرادة الله عز وجل فليس معنى ذلك أن نستسلم للأوهام والوساوس، ولما يقوله السحرة والمشعوذون والدجالون ومردة الجان من الأكاذيب في هذا، بل يجب على المسلم الاعتماد على الله عز وجل والتعوذ والتحصن

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب - باب العين ٣٥٠٩، وأحمد ٤٤٧/٣، ٤٨٦، ٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطب - رقية العين ٥٧٣٨ ومسلم في السلام، استحباب الرقية من العين ٢١٩٣، وابن ماجه في الطب ٣٥١٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٨.

(٤) أخرجه الترمذي في الطب - ما جاء في الرقية من العين ٢١٣٦، ٢١٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥١٠، وأحمد ٤٣٨/٦، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه أحمد ٢٢٢/٢.

بالأدعية والأوراد الشرعية، فإنها حصن حصين به يحفظ الله الإنسان من العين والسحر والجن وسائر الشرور قبل الإصابة بها وبعدها فإن شياطين الإنس والجن جعلوا من الإصابة بهذه الأمور مركباً لهم لتشكيك المسلمين في عقائدهم، ونقلهم من بر الأمان بالاعتماد على الله عز وجل والثقة به واللجوء إليه في حال السراء والضراء والتعلق به وحده سبحانه إلى حياة الأوهام والوساوس والمخاوف والقلق، ليروجوا بأبطلهم ودجلهم وكذبهم، ليأكلوا بذلك أموال الناس بالباطل، فإذا جاءهم المريض، أو من ليس عنده إلا وساوس وأوهام سارعوا إلى إدخاله في دوامة لا يخرج منها مدة حياته. فحكموا- قطعاً- بأنه مسحور، أو مصاب بالعين، أو فيه مس من الجنون رجماً بالغيب، فمن راجعهم لا يسلم من أحد الأمور الثلاثة حتى ولو كان جاء ليختبرهم وهو سليم معافى، حتى اتهم أناس بالسحر والعين وهم من ذلك براء، وحصلت بسبب ذلك عداوات وفرقة بين الأقارب والأزواج والإخوة والجيران، ومن بينهم تعامل وتعارف. وكل هذا من تلبيس الشيطان ووساوسه وأوهامه؛ ليفسد على الناس دينهم وعقائدهم، بل ودنياهم، ويؤجج ذلك ويروج له أكلة أموال الناس بالباطل من شياطين الإنس من السحرة والمشعوذين والدجالين ومرضى القلوب من بعض القراء هداهم الله، وكذا بعض مفسري الأحلام، ممن يريدون الشهرة، ولو على حساب دينهم- نسأل الله السلامة والعافية، وأن يكفي المسلمين شرورهم.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: ويقولون: إن محمداً لمجنون، أي: مصاب بالجنون وفقدان العقل، معتوه؛ لأنه جاءهم بالقرآن من عند الله عز وجل، وهذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى القوي له ﷺ تارة يقولون مجنون، وتارة شاعر، وتارة ساحر، وتارة كاهن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ هذا رد عليهم، أي: ليس محمد ﷺ بمجنون كما تزعمون، وما القرآن الذي جاءكم به إلا ذكر من عند الله عز وجل للعالمين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال

تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكويد: ٢٧].

أي: يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

## الفوائد والأحكام:

١- تقوية الله عز وجل لقلب نبيه ﷺ وطمأنته له بأمره بالصبر، وإثبات ربوبيته الخاصة له وعونه له، وتشريفه بإضافة وصف الرب أو اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

٢- أن الصبر أكبر معين على القيام بالرسالة، والدعوة إلى الله، وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

٣- نهي الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ أن يكون في المغاضبة والاستعجال مثل يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

٤- أن ما حصل ليونس عليه السلام من الابتلاء من إلقائه في البحر والتقام الحوت له بسبب مغاضبته لقومه واستعجاله، وعدم صبره.

٥- أنه لا ملجأ في الشدائد إلا إلى الله عز وجل لهذا نادى يونس عليه السلام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧).

٦- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين عن الصغائر، لكنهم لا يقرون عليها بل سرعان ما ينبهون عليها ويحدثون منها توبة؛ ولهذا هنا لم يصرح بما حصل من يونس عليه السلام، بينما صرح في ندائه ربه وتوبته إليه.

٧- نعمة الله العظمى على يونس عليه السلام حيث تداركه بنعمته وتاب عليه واستخلصه وجعله من الصالحين، فصارت حاله خيراً وأحسن من حاله الأولى؛ لقوله

تعالى: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٤٩) ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٠).

٨- فضل نبينا محمد ﷺ على يونس عليه السلام وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

٩- شدة عداوة الذين كفروا للنبي ﷺ ولما جاء به، وحسد لهم له ومحاولتهم إصابته بأبصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾.

١٠- أن العين حق تصيب بإذن الله عز وجل. وذكر الله عز وجل والتعوذ به كما أمر وقاية منها بإذنه عز وجل قبل وقوعها وعلاج لها بعد وقوعها.

١١- أن ديدن المكذبين للرسول والدعاة إلى الله رميهم بأبشع الصفات تنفيراً

للناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

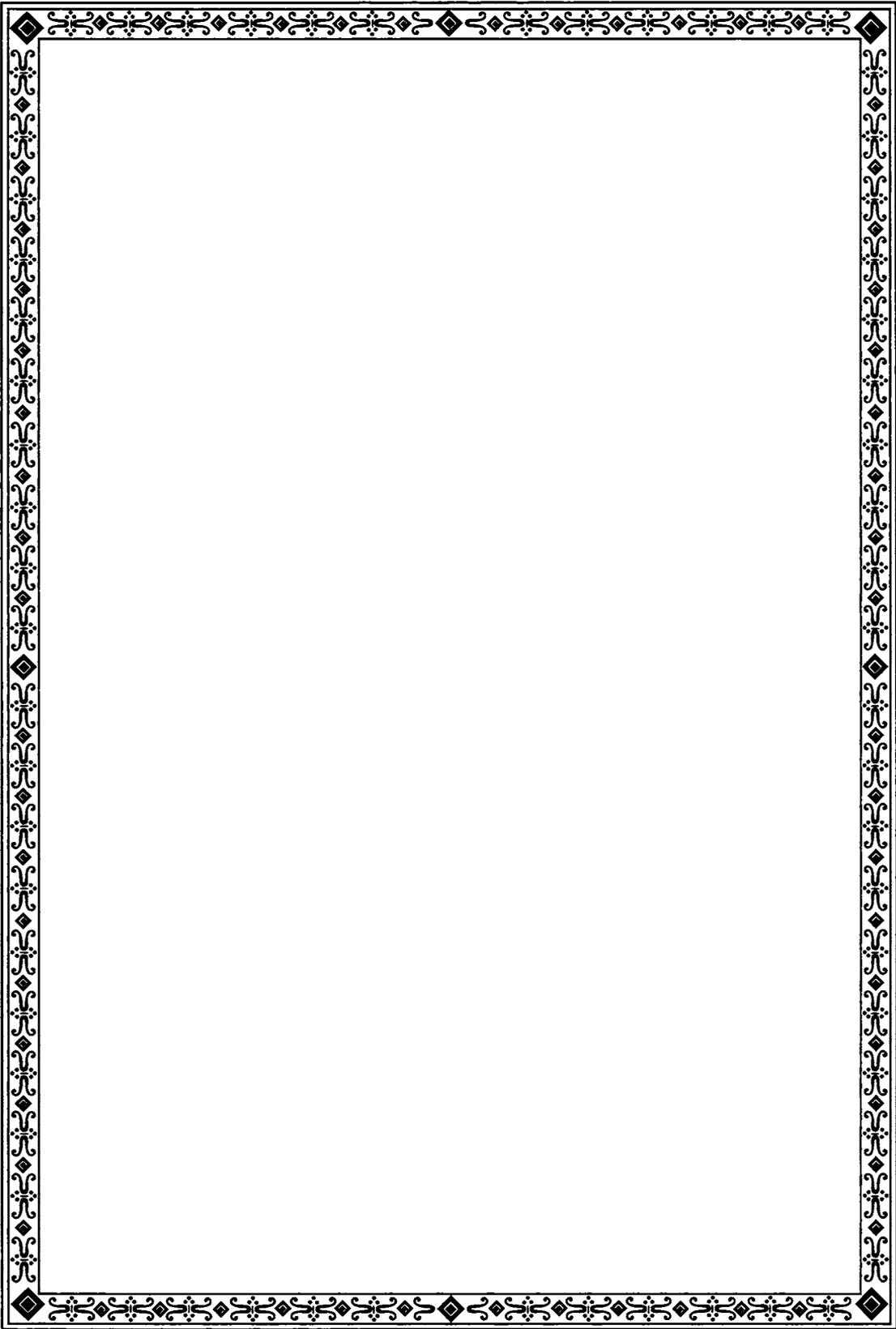
١٢- الرد على المكذبين في رميهم الرسول ﷺ بالجنون، وإثبات أن ما جاء به من

القرآن إنما هو ذكر للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

\* \* \*



# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَاقَّةِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت «سورة الحاقة» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجت يوماً بمكة أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، أي قلت في خاطري، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾، قلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ۝٤٢ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣﴾، إلى آخر السورة؛ فوقع الإسلام في قلبي كل موقع (١).

ويقال لها: «سورة السلسلة»؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْأَلُوهُ ۝٣٣﴾.

ويقال لها: «الواعية» أخذاً من قوله: ﴿وَتَعْبَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٣﴾.

## ب- مكان نزولها:

مكة.

## ج- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى قسمين: أخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾، ﴿فَإِذَا نْفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ ۝١٥ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي ۝١٦ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي ۝١٧ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝١٨ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٩ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٠ كُؤُوفٌ وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢١ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِشِمَالِهِ ۝٢٢ فَيَقُولُ بَلِّغْتَنِي لِمَ أَوتِيتُ كِتَابِي ۝٢٣﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ

(١) أخرجه أحمد (١/١٧).

هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ .

٢- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين من قومه بذكر تكذيب عاد و ثمود بالقيامة، وإهلاك عاد بالريح، وإهلاك ثمود بالصيحة الطاغية، وذكر تكذيب فرعون وقوم لوط وعصيانهم رسل ربهم، وأخذهم بشدة وإهلاكهم، ونجاة نوح ومن معه على السفينة لما طغى الماء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُوفِي الْجَارِيَةَ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ .

٣- تأكيد أن القرآن الكريم حق وصدق، وليس بقول شاعر ولا كاهن كما زعم المكذبون، بل تنزيل من رب العالمين، وتذكرة للمتقين، وحسرة على الكافرين وحق اليقين: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ .

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ حَاقِيَةٍ ٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ٩﴾ فَعَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٠ ﴿إِنَّا لَنَاطِقُا الْمَاءِ حَمَلَتِكُمْ فِي الْيَابِغَةِ ١١﴾ لِنَجْمَلَهَا لَكَ وَنَذَكْرَةً لِقَوْمِهَا أُذُنٌ وَنِعْمَةٌ ١٢ ﴿.

﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة، وسميت بذلك؛ لأنها محققة الوقوع، فهي واقعة لا محالة، ولأنها تظهر فيها الحقائق، ويتحقق فيها الوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَيُّومُ الْحَقِّ﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾، «ما» استفهامية. وهذا تعظيم لأمرها وتفخيم لشأنها، أي: ماهي الحاقة، أمرها عظيم، وشأنها كبير.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ تعظيم لأمرها بعد تعظيم، وتفخيم له بعد تفخيم. والواو: عاطفة و«ما»: استفهامية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له. أي: وما أعلمك ما هي الحاقة، إن أمرها عظيم، وشأنها جسيم، وخطرها كبير، وشرها مستطير، كما قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ [القارعة: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ١٦ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٧﴾ [الانفطار: ١٥-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢ ﴿ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ٣٥ ﴿ [النازعات: ٣٤-٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ ﴿وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ٣٥﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ

﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ﴾ الآيات.

عظم الله عز وجل أمر القيامة وشأنها ثم ذكر بعض الأمم المكذبين بها وما حل بهم من العقوبات الدنيوية قبل القيامة تمهيداً لتفصيل أهوال القيامة.

و«ثمود»: هم قوم نبي الله صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة بمدائن صالح.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد الأولى، وهم عاد إرم.

كما قال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ لَمْ

يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ ﴿٨﴾﴾ [الآيات: ٦-٨] مساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿بِالْقَارِعَةِ﴾، أي: بالقيامة، وسميت بذلك؛ لأنها تفرع القلوب، وتفزع الناس

وترزعجهم بأهوالها، كما قال عز وجل: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا

الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١-٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل.

﴿فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، أي: بالصيحة العالية الشديدة العظيمة الفظيعة التي

تجاوزت الحد، التي قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالطاغية: الطغيان والمعاصي والذنوب، كما قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١]، أي: بسبب طغيانها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين فبسبب طغيانهم أهلكوا بالطاغية، والجزاء من

جنس العمل.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾، «الريح»: تستعمل غالباً فيما يضر ويهلك، و«الرياح»

بضد ذلك تستعمل غالباً في الخير وفيما ينفع.

وفي الحديث في دعاء هبوب الريح: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم

اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»<sup>(١)</sup>.

وقد تستعمل «الريح» في الخير وفيها ينفع، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿صَرَّصِرٌ﴾: شديدة البرد، شديدة الصوت.

﴿عَاتِيَةٌ﴾: شديدة العصف والهبوب، عتت على «عاد» وزادت عن الحد.

وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»<sup>(٢)</sup>.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: سلطها عليهم.

﴿سَبَعَ لَيَالٍ وَتَمَنِينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، أي: متتابعات كاملات بلا زيادة ولا نقصان مشؤومات نحسات كما قال عز وجل في سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِبْهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. [الآية: ١٦].

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾، أي: مصروعين هالكين موتى.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٍ﴾ كأنهم جذوع وسيقان نخل قطعت رؤوسها.

﴿حَاوِيَةٍ﴾ ميته منقلعة من منابتها هامة ساقطة على الأرض، فهم أجساد بلا

رؤوس، كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾<sup>(٤)</sup> [القمر: ٢٠].

قال ابن كثير<sup>(٥)</sup>: «أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض، فيخر ميتًا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان»

﴿فَهَلْ رَرَىٰ لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ الفاء: عاطفة، و«هل»: حرف استفهام يفيد النفي.

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ص ٨١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» ٤/ ٣٤١ (٢٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» ١١/ ٢١٣ (١١٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٦.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: فهل تشاهد يا محمد ويا أيها الناظر لهم من باقية، أي: أنك لا ترى ولا تشاهد لهم من بقية، بل كلهم هلكوا وبادوا عن آخرهم. وهذه آثار الذنوب والمعاصي، فإنها تذر الديار بلاقع.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾، فرعون: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام والذي ادعى الربوبية والألوهية، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي بكسر القاف وفتح الباء: «ومن قبله»، أي: أتباعه وجنوده من كفار القبط.

وقرأ الباقون: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ بفتح القاف وسكون الباء، أي: ومن قبله من الأمم المكذبين للرسول.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ﴾: قرى قوم لوط التي أسقطها الله عز وجل، وجعل عاليها سافلها، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]. والمراد بالمؤتفكات أهلها.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾، أي: بالفعلة والأعمال الخاطئة، من الكفر وتكذيب رسل الله وكتبه والخطايا والمعاصي، ومنها إتيان الذكران من العالمين.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، أي: فعصوا رسول ربهم إليهم، و«رسول»: اسم جنس، أي: رسل ربهم، والضمير الواو في «عصوا»، وضمير «هم» في قوله «ربهم» يعودان إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات، أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم. كما قال تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ حَقٌّ وَعَيْدٍ﴾ [ق: ١٤].

ومن كذب رسوله كمن كذب جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

﴿فَأَخَذَهُمْ آخِذَةً رَابِيَةً﴾، أي: فأخذهم الله جميعاً آخِذَةً زَائِدَةً في شدتها وعظمتها على الحد والمقدار، مهلكة.

يقال: ربا، أي: زاد، ومنه سمي الربا، وهو الزيادة.

﴿إِنَّا لَنَّا طَغَا الْمَاءَ﴾، أي: لما زاد الماء على الحد، وارتفع على الأرض، وغمر السهل والجبل، وعمّ أهل الأرض الطوفان والغرق، إلا من كان مع نوح عليه السلام في السفينة.

﴿حَمَلْنَاكَ فِي الْجَارِيَةِ﴾، أي: في سفينة نوح عليه السلام الجارية على وجه الماء بقدرته الله عز وجل، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا من سواكم من أهل الأرض، فالناس بعد هذا كلهم من سلالة نوح عليه السلام ومن نجوا معه في السفينة. فامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم في الجارية وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، اللام: للتعليل، والضمير «ها» يعود إلى نعمة الله عز وجل ومنتته في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه، أي: لنجعلها لكم عبرة وعظة تتذكرون بها نعمة الله تعالى عليكم وعلى أجدادكم؛ لأن النعمة على السابق نعمة على اللاحق. ويحتمل عود الضمير على السفينة وكونها تجري على الماء، أي: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي: الجارية، والمراد جنسها.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار».

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿الزخرف: ١٢، ١٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

وقيل: الضمير يعود إلى نفس سفينة نوح عليه السلام بقيت حتى أدركها أول هذه الأمة.

﴿وَتَعْيَبَا أُذُنَ وَعِيَةٍ﴾، أي: وتسمعها وتحفظها وتعقلها أذن سامعة حافظة عاقلة،

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل.  
قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم،  
ووعى».

والمعنى: ويعقلها أولو الأبواب ويأخذون العبرة منها وفي هذا تعريض بأهل  
الإعراض والغفلة والبلادة وعدم الفطنة؛ لعدم وعيهم وتفكرهم في آيات الله الكونية  
والشرعية، وعدم انتفاعهم بها.  
**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات القيامة وتحقيق وقوعها وظهور الحقائق فيها لهذا سميت الحاقة؛ لقوله  
تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾.

٢- شدة أهوال القيامة وأحوالها، وعظم أمرها وخطورها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا  
الْحَاقَّةُ﴾ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾.

٣- تكذيب ثمود وعاد بالقيامة وما حل بهم من العقوبات العاجلة، فثمود  
أهلكوا بالصيحة الشديدة وعاد أهلكوا بالريح الصرصر العاتية؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ  
ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ﴿٤﴾.

٤- ارتكاب فرعون ومن قبله وقوم لوط للأفعال الخاطئة ومعصيتهم لرسول ربهم  
وأخذهم بشدة وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِئَةِ﴾ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا  
رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾.

٥- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾.

٦- شدة عذاب الله وعقابه وأخذه للظالمين والمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً  
رَابِيَةً﴾.

٧- التحذير من مسالك المكذبين للبعث المخالفين للرسول كثمود وعاد وفرعون  
ومن قبله والمؤتفكات، ومن أفعالهم الخاطئة بذكر ما حل بهم من العقوبات الشديدة

(١) في «تفسيره» ٢٣٧/٨.

والهلاك المدمر.

٨- سوء عاقبة الكفر والذنوب والمعاصي وأن عاقبتها الهلاك والدمار وترك الديار بلاقع.

٩- امتنان الله عز وجل على العباد وتذكيرهم بنعمة الله - عز وجل - على آبائهم بإنجائهم من الغرق بسفينة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

١٠- في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وتسيير السفن على البحار نعمة من الله - عز وجل، ودلالة على عظم قدرته - عز وجل، وعبرة وعظة لمن يعتبر ويتعظ؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَعِيَةٌ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَاذَكَّةُ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة عقوباته للمكذبين، وإنجاءه للرسول وأتباعهم في الدنيا، وهذا من الجزاء الدنيوي الدال على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، ثم أتبع ذلك بما هو أشد وأعظم، وهو القيامة ومقدماتها وأحوالها وأحوالها والجزاء الأخروي للفريقين.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الفاء: استثنائية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة بأمر الله عز وجل، وهي النفخة الثانية، إذا تكاملت الأجساد نابتة فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَلْسُلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَعْنَتُهُمْ جَمْعًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف: ٩٩].

وتسبقها النفخة الأولى لصعق وموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، كما قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وأكدتها بقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي: مرة واحدة بلا تكرار؛ لأن أمر الله عز وجل نافذ لا يخالف ولا يمانع، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾: رفعت من مكانها بأمر الله عز وجل.

﴿فَدُكَّنَاذَكَّةُ وَاحِدَةٌ﴾، أي: فدقنا وسويتنا. قال الطبري<sup>(١)</sup>: «زلزلتنا زلزلة واحدة».

وقال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: فمدت مد الأديم العكاظي، وتبدلت الأرض غير الأرض».

وقال السعدي<sup>(٢)</sup>: «أي فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها فكان الجميع قاعاً صنفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا».

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿فِيَوْمِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أي: فيوم ذاك وحينه قامت القيامة، وسميت القيامة بالواقعة لتحقق وقوعها، وقربه لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، أي: تفتطرت وتصدعت. كما قال تعالى: ﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَقَتْ﴾ [الإنفطار: ١].

﴿فِيهِ يَوْمِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة متداعية بعد أن كانت محبوكة قوية متماسكة، لا فطور فيها ولا شقوق، وبعد أن كانت يضرب فيها المثل في قوة الخلق وكبره وشدته.

كما قال عز وجل: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [٢٧] رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا [٢٨] [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الملك: اسم جنس، أي الملائكة الكرام.

﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾، أي: على جوانب السماء وأطرافها وأركانها خاضعين لربهم مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، أي: ويحمل عرش ربك يا محمد ورب كل مخلوق.

والعرش هو أكبر المخلوقات وأضافه إليه عز وجل؛ لأنه سبحانه استوى عليه،

كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

(١) في «تفسيره» ٢٣٨/٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٤٦١.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: ويحمل عرش ربك فوق الخلائق يوم القيامة ثمانية من الملائكة في غاية القوة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بعدما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبع مئة عام»<sup>(١)</sup>. وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»<sup>(٢)</sup>.

وقيل المراد بالعرش الذي يوضع في الأرض لفصل القضاء، كما قيل: إن المراد بقوله: ﴿ثَمَنِيَّةٌ﴾ ثمانية صفوف من الملائكة.

﴿يَوْمَ يَدْعُورُونَ﴾، أي: في ذلك اليوم تعرضون على الله للحساب والجزاء.  
﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «لا يخفى».  
وقرأ الباقون بالتاء: ﴿لَا تَخْفَى﴾ على التأنيث.

أي: لا تخفى عليه عز وجل منكم خافية من أقوالكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وغير ذلك؛ لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.  
عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجداول ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٧٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/٢٣٩، وقال: «وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة- باب الجهمية ٤٧٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد- ذكر البعث ٤٢٧٧، وأحمد ٤/٤١٤.

وأخرجه الترمذي في أبواب القيامة- ما جاء في العرض ٢٤٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولا من أبي موسى».  
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٢٣٠- من حديث أبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما- موقوفاً عليهما.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ووزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾» (١).

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات النفخ في الصور ورد الأرواح إلى أجسادها وبعث الناس للحساب والجزاء وقيام القيامة الكبرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.
- ٢- عظم أهوال يوم القيامة ففيها تحمل الأرض والجبال وتدك دكة واحدة وتنشق السماء وتتصدع وتتداعى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذِكَّةً وَاحِدَةً ﴿١١﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾.
- ٣- سرعة نفوذ أمر الله - عز وجل - وعظم قدرته.
- ٤- انتشار الملائكة على أرجاء السماء، وحمل ثمانية منهم عرش الرحمن فوق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾.
- ٥- إثبات العرش لله عز وجل واستوائه عز وجل عليه فوق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

- ٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.
- ٧- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطابه تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.
- ٨- عرض الخلائق على الله عز وجل في ذلك اليوم، وعرض أعمالهم لا يخفى منهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

\* \* \*

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٠.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ۖ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ۖ﴾ (٢٠) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ﴾ (٢٢) ﴿أَقْطُوفُهَا دَانِيَةً ۖ﴾ (٢٣) ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا وَهَنِيئًا مِمَّا اسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ﴾ (٢٤) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لِرَأُوتٍ كِنِيَّةٍ ۖ﴾ (٢٥) ﴿وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِيَةَ ۖ﴾ (٢٦) ﴿بَلَيَّتْهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ﴾ (٢٧) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ۖ﴾ (٢٨) ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۖ﴾ (٢٩) ﴿خَذُوهُ فَعَلُوهُ ۖ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۖ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ﴾ (٣٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ﴾ (٣٤) ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۖ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَنِينٍ ۖ﴾ (٣٦) ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ﴾ (٣٧).

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة النفخ في الصور والقيامة وبعض أهوالها وأحوالها، وعرض الخلائق على الله عز وجل، ثم أتبع ذلك بتفصيل حساب من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وماذا يقول كل منهما، وماذا يقال له، وحال كل منهما وماله وجزائه.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: أداة تفصيل، و«من»: موصولة.

أي: فأما الذي أعطي كتاب عمله بيده اليمنى، وهو المؤمن، تمييزاً وتكريماً له ورفعاً.

﴿فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾ [الإسراء: ٧١].

أي: فيقول لكل من لقيه من شدة فرحه واعتباطه واستبشاره وسروره:

﴿هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ۖ﴾، أي: خذوا وهاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، والهاء في «كتابه» في الموضوعين للسكت، وكذا في «حسابيه» في الموضوعين، وفي «ماليه»، و«سلطانيه».

فهو لما شاهد وقرأ في كتابه من الحسنات العظيمة الماحية للسيئات مما يبشر بالمغفرة والثواب العظيم ينادي فرحاً مسروراً، هاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ﴾ (٨) ﴿وَيَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ﴾ (٩) [الانشقاق: ٧-٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى: «إن الله

يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ (١).

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَّةٌ﴾، أي: إني علمت وتيقنت في حياتي في الدنيا أن البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأني ملاق ومقابل حسابي وجزائي في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: فاستعد- بتوفيق الله وفضله- بالعمل بما يكون سبباً للنجاة في ذلك اليوم.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، أي: في عيشة مرضية يرضاها لنفسه، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، كما قال عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ٨-١٠].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، أي: في جنة رفيعة المحل والمنازل والقصور والدور، نعيمها في أعلى وأرفع درجات النعيم؛ كيفاً وكمّاً ونوعاً وأبدية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله» (٢).

﴿قُطُوفُهَا﴾ قُطُوفُهَا: ما يقطف من ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾، أي: قريبة المنال، يتناولها من يريدها على أي حال كان واقفاً أو جالساً أو مضجعاً أو غير ذلك، لا يحول دونها شوك أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّنَّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، أي: يقال لهم هذا القول؛ تكريماً لهم

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن

ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

وامتناناً عليهم وتفضلاً، أي: كلوا من كل طعام لذيذ، واشربوا من كل شراب شهي. وخص الأكل والشرب من بين ألوان وأنواع النعيم؛ لأهميتها فهما كسوة الباطن.

﴿هَنِيئًا﴾ حال، أي: حال كون الأكل والشرب هنيئًا، والهنيء هو اللذيذ الطعم المستطاب أكله وشربه من غير مكدر ولا منغص.

﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ الباء: سببية، و«ما»: موصولة، أي بسبب الذي أسلفتم، وقدمتم من الأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله، وفعل لأوامر الله وترك لنواهيه.

﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، أي: في الأيام الماضية الفائتة في الدنيا التي جعلها الله مزرعة للآخرة.

فالأعمال الصالحة سبب لهذا النعيم، وليست عوضاً عنه، خلافاً للمعتزلة. وقد قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ الآيات.

بعدما ذكر الله مقال من يؤتى كتابه بيمينه ومآله، وما يقال له أتبع ذلك بذكر مقال من يؤتى كتابه بشماله ومآله، جمعاً بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقي الله.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾، أي: وأما الذي أوتي كتاب عمله بيده الشمال بعد أن تلوى وراء ظهره تمييزاً له وإذلاً وخزيًا له وفضيحة وعارًا، قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾<sup>(١٠)</sup> فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا<sup>(١١)</sup> وَيَصَلَّى سَعِيرًا<sup>(١٢)</sup> [الانشقاق: ١٠-١٢].

﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة الهم والغم والحزن: ﴿يَلْبِثُنِي لَمْرَأَتٌ كَنِييَةٌ﴾، أي: أتمنى أني لم أعط كتابي، وذلك لما يرى من السيئات الكثيرة والقبائح الفظيعة والبشارة له بدخول النار.

(١) أخرجه البخاري في المرضي ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَوْ أَدْرَمَ حَاسِبِيَّةً﴾، أي: ويا ليتني لم أدر ما هو حسابي، أي: لم أبعث ولم أحاسب.  
 ﴿بَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾، أي: يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية، أي: فلم أحي بعدها.

وقيل: إنه تمنى أن يموت مع أنه لم يكن شيء في الدنيا أكره إليه من الموت.  
 ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي﴾، «ما»: نافية، أي: ما نفعني مالي، ولا دفع عني شيئاً من عذاب الله تعالى لأنني لم أقدم منه شيئاً للآخرة.

﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً﴾، أي: ذهب واضمحل ما كان لي من الحججة والتسلط والقوة، من الجنود والمنعة والعدد والعدة والجاه العريض وغير ذلك.  
 أي: أن مالي وسلطاني ما نفعاني وما دفع عني عذاب الله تعالى.  
 ﴿خُذُوهُ﴾ أمر من الله عز وجل للزبانية الغلاظ الشداد بأن يأخذوا من أوتي كتابه بشماله ويمسكوا به بشدة وعنف وبلا رحمة في المحشر.

﴿فَعَلُوهُ﴾، أي: ففقدوه بالأغلال والأوثاق في عنقه ويديه وقدميه وناصيته.  
 كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].  
 وقد ذكر المفسرون أنه إذا قال الله للزبانية ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ﴾ الجحيم: النار العظيمة شديدة التوقد والاشتعال والحرارة والظلمة بعيدة القعر.

﴿صَلْوَةً﴾: أدخلوه واغمروه فيها، وقلوبه على جمرها وهبها.  
 ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ذَرَعَهَا﴾، أي: طولها بالذراع  
 ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، «الذراع»: من المرفق إلى نهاية الأصابع بذراع الرجل المعتدل، وقيل  
 بذراع الملك.

﴿فَأَسْلُكُوهُ﴾، أي: فانظموه فيها، وذلك بأن تدخل السلسلة من دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها في نار جهنم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُضَاصَةَ

مثل هذه، وأشار إلى مثل جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّهُ كَانَ﴾، أي: إنما عذب بما ذكر بسبب أنه كان ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾، أي: لا يصدق بالله العظيم الذي له غاية العظمة، بل يكفر بالله وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ولا ينقاد لأمره ونهيه.

﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، أي: ولا يحث أهله وغيرهم على إطعام المسكين من ماله وغيره.

والمسكين هو الفقير المحتاج، الذي أسكنه الفقر وأذله. وإذا كان لا يحث على إطعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المساكين، فلا إحسان لديه في عبادة الله، ولا إلى عباد الله، لهذا عذب بما ذكر. فهو لا يقوم بحق الله بعبادته وطاعته، ولا يؤدي حقوق خلقه في ما استخلفه الله فيه من المال؛ لأن الدين الإسلامي قائم على دعامتين هما: الإحسان في عبادة الله، إخلاصًا له، ومتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان بالقول والفعل وبذل المال والجاه وغير ذلك.

ولهذا أمر الله بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وقرن بينهما في نحو اثنين وثمانين موضعًا لأن في الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله. بل إن القرآن كله والسنة النبوية كلها الأمر فيهما دائر بين الأمر بالإحسانين: الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، وقد قبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فما زال يكررها حتى ما يفيض بها لسانه»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم - صفة طعام أهل النار ٢٥٨٨، وأحمد ١٩٧/٢ وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنايز - ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٥، وأحمد ٦/٢٩٠، ٣١١ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وأخرجه أحمد أيضًا ١/٧٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و٣/١١٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿فَلَيْسَ لَهُ آيَوْمٌ﴾، أي: يوم القيامة ﴿هَهُنَا﴾، أي: في الآخرة.  
 ﴿حَمِيمٌ﴾، أي: قريب، أو صديق مشفق يشفع له ويدفع عنه عذاب الله، كما قال  
 تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ  
 الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

والناس في الدنيا يتناصرون بينهم، ويدافع بعضهم عن بعض، ولكن في ذلك  
 اليوم لا أحد ينتصر لأحد، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُتَسَلِمُونَ ﴿١٦﴾  
 [الصافات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾، أي: وليس له في ذلك اليوم طعام إلا من غسالة صديد  
 وقيح ودم أهل النار، وهو شر طعام أهل النار في غاية الحرارة والمرارة وتتن الرياح  
 وقبح الطعم. وقيل: المراد بالغسلين شجرة الزقوم.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْآخِطُونَ﴾، أي: لا يأكل هذا الغسلين إلا أهل الخطايا المتعمدة من الكفر  
 وسائر المعاصي والذنوب، الذين أخطؤوا الطريق المستقيم، وسلكوا طريق الجحيم.  
 والخطئون: جمع خاطئ، وهو من تعمد الخطأ.

فالخطئون من تعمدوا الكفر والمعاصي والذنوب بخلاف المخطئ فهو من وقع في  
 الخطأ سهواً ومن غير قصد.

### الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: مؤمن أخذ كتابه بيمينه وكافر أخذ كتابه  
 بشماله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿١٥﴾ والآيات، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ  
 بِشِمَالِهِ﴾ ﴿١٦﴾ الآيات.

٢- فضل اليمين على الشمال.

٣- فرح واستبشار من أوتي كتابه بيمينه وعرضه لكتابه على من لقيه، وذكر  
 السبب الذي أوصله إلى ذلك وهو إيمانه بالبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى:  
 ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أقرءوا كِتَابِي﴾ ﴿١٧﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي﴾.

٤- عظم ما أعد الله لمن أوتي كتابه بيمينه من الثواب والأجر العظيم فعيشته

راضية، ومسكنه جنة عالية، ثمارها دانية، مع النعيم المعنوي بالتهنئة لهم على ما قدموا في الأيام الماضية، لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٤﴾.

٥- وجوب الإيمان بالبعث والاستعداد بالعمل الصالح.

٦- حزن واستياء من أوتي كتابه بشماله وهو الكافر، وتمنيه أنه لم يؤت كتابه ولم يدر ما حسابه، وأنه لم يبعث بعد الموت الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيِّنَنِي لَأُرْوَتَ كِتَابِيَّةٌ ﴿٢٥﴾ وَلَرَأَى مَا حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٦﴾ بَلَيَّتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾.

٧- اعتراف من أوتي كتابه بشماله بأنه لم ينفعه ماله الذي كان يجمعه، ولا دفع عنه عذاب الله سلطانه وقوته في الدنيا، وهما اللذان كانا من أسباب تجبره وتكبره ورده الحق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾.

٨- شدة عذاب من أوتي كتابه بشماله، والجمع له في النار بين العذاب المعنوي والعذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ففي هذا الأمر والقول عذاب معنوي، وفي إيقاعه عليه عذاب حسي.

٩- أن سبب تعذيب المعذبين هو عدم إيمانهم بالله العظيم، وعدم أداء حقوق المساكين من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾.

١٠- وجوب الإيمان بالله؛ إحساناً في عبادته وإخلاصاً له، والإحسان إلى خلقه وبهذا ينجو الإنسان من العذاب ويظفر بالشواب.

١١- ليس لمن أدخل النار قريب أو صديق ينفعه أو يدفع عنه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾.

١٢- ليس للمعذب في النار طعام سوى غسله وصيد أهل النار مما لا يأكله إلا من ارتكبوا الخطايا والآثام من الكفر وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَشِيلٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُمْ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة القيامة وأهوالها، وانقسام الناس فيها إلى قسمين من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وجزاء كل منهما، ثم أتبع ذلك بالإقسام على أن القرآن حق والرد على المكذبين.

قوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ الفاء: للاستئناف، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى، والقسم هو الحلف.

والمعنى: فأقسم بالذي ترون وتشاهدون أيها الخلق من الأشياء والذي لا ترونه ولا تشاهدونه منها، أي: أقسم بالأشياء كلها ويدخل في ذلك نفسه المقدسة.

وهذا أعم قسم في القرآن الكريم، فإنه يعم العالم العلوي والسفلي، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، من الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي وكل شيء، وكل ذلك من آيات الله ودلائل قدرته وربوبيته وصدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله وكلامه وتنزيله، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، وأنه حق من عند الله، كما أن هذه الأشياء كلها حق ما يرى منها وما لا يرى.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: هذا هو جواب القسم، والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، واللام: للتوكيد، أي: إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: محمداً ﷺ؛ لأنه هو المبلغ عن الله عز وجل؛ لهذا أضافه إليه.

كما أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي جبريل عليه السلام؛ لأنه الواسطة الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل إلى النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [الآيات: ١٩ - ٢١].

وأضافه إلى الرسول بلفظ القول بينما أضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ

يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ ﴿ [التوبة: ٦]؛ لأنه عز وجل هو المتكلم به، ولأن الرسول مأمور بأن يقول لمن أرسل إليهم ما أمره الله به، كما قال عز وجل: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]. ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير».

وقوله: ﴿ كَرِيمٌ ﴾، أي: كريم الصفات والسجايا والأخلاق صلوات الله وسلامه عليه، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

وهو كريم ﷺ بتبليغ رسالة ربه إلى الناس وبيان ما أنزل إليه من الوحي أتم بيان وأكملة، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤].

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله لكنتم ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»<sup>(٢)</sup>.

وهو ﷺ كريم جواد بالمال جاءه رجل فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه قائلاً: «يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة». وفي رواية «وما يخاف الفقر»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً

(١) انظر «بدائع التفسير» ٨/٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢ - من حديث أنس - رضي الله عنه.

وأوسع من الصبر»<sup>(١)</sup>.

ولقد أحسن القائل:

هو البحر من أي النواحي أتيته      فلجته المعروف والجود ساحله  
تعود بسط الكف حتى لو أنه      ثناها لقبض لم تجبه أنامله  
ولو لم يكن في كفه غير روحه      لجاد بها فليثق الله سائله<sup>(٢)</sup>

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، «ما»: نافية، أي: وما هو - يعني القرآن الكريم بقول شاعر كما

تزعمون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾<sup>(٣٠)</sup> [الطور: ٣٠].

وقال الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ فتوعده الله عز

وجل بقوله: ﴿سَأُصَلِّيهُ سَقَرًا﴾<sup>(٣١)</sup> وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ<sup>(٣٢)</sup> [المدثر: ٢٦، ٢٧].

﴿قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وهشام بالياء: «مَا يُؤْمِنُونَ» وكذا في قوله: «ما

يذكرون»، وقرأ الباقر في الموضوعين بالخطاب، أي: قليلاً إيمانكم.

والمراد: أنه لا إيمان عندكم، أي: فالذي حملكم على قولكم: إنه شاعر، هو عدم

إيمانكم.

وهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الله، وأن الله عز وجل هو الرب الخالق الرازق، كما

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال

تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾

[العنكبوت: ٦٣].

لكن هذا لم يدخلهم في الإيمان؛ لأنهم كذبوا بتوحيد الألوهية وبالرسالات

والكتب السماوية، وبهذا ينتقض إقرارهم بتوحيد الربوبية؛ لأن من لازمه الإقرار

بتوحيد الألوهية.

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٣.

(٢) الأبيات للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص ٢٣٢، «ديوان المعاني» ١/ ٢٥، «نهاية الأرب» ٣/ ١٨٤.

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾، أي: وليس القرآن ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ والكاهن: هو من يدعي علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿فَلِيلاً مَا نَذْكُرُونَ﴾، أي: قليلاً تذكركم وابتعاضكم. والذي حلكم على رميته بالكهانة هو عدم تذكركم، فلو آمنوا وتذكروا لعلموا أنه رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أن هذا القرآن العظيم منزل من رب العالمين؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم.

والعالمين: جمع «عالم»؛ عالم الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك من العوالم.

فهو كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس من كلام البشر، كما زعم المشركون أن الرسول ﷺ تقوله من عند نفسه، وليس مخلوقاً كما يقول المعتزلة.

تكلم الله عز وجل به حقيقة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي قوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأتي أن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ولا يحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين حق قدره ونسبه إلى ما لا يليق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ﴾ [٤٤] لأخذنا منه باليمين [٤٥] ثم لقطعنا منه الوتين [٤٦] فما منكر من أحدٍ عنه حاجزين [٤٧].

بعد ما بين الله عز وجل أن القرآن الكريم تنزيل منه عز وجل، جاء به من عنده المبلغ عنه رسوله ﷺ، ونفى أن يكون قول شاعر وكاهن كما زعم المشركون أتبع ذلك بيان أنه لا يمكن أن يكون الرسول ﷺ تقوله من عند نفسه كما يزعمون أيضاً.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَفْوَلُهُ<sup>٣٤</sup> بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣].

قوله: ﴿وَلَوْ نَفَقَلَّ عَلَيْنَا﴾ الواو: استثنائية، و«لو» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: ولو كذب وافتري علينا، واختلق من عند نفسه ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾، أي: بعض الأكاذيب والافتراءات والاختلاعات، أي: بأن يكون افتري القرآن من عند نفسه، كما يزعم المشركون، أو زاد فيه أو نقص أو غير وبدل في الرسالة ونسب ذلك إلينا.

﴿لَا خِذَانًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾، أي: لعاجلناه بالعقوبة، وأخذناه بيمينه، وبقدرة وقوة شديدة. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، «الوتين»: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، وهلك الإنسان، وقيل نخاع الظهر.

فلو قدر أن الرسول ﷺ تقول على الله - وحاشاه من ذلك - لعاجله الله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ لأن حكمته تقتضي أن لا يمهل من كذب وتقوّل عليه وبخاصة في أمر النبوة، فكيف ينصره ويؤيده بالمعجزات، فنصره له وتأيدته بالمعجزات والآيات البينات وتمكينه له أعظم شهادة منه على صدق رسالته.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما» نافية تعمل عمل ليس، و«أحد» في محل رفع اسمها، و«حاجزين» خبرها منصوب بالياء.

أي: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أيًا كان ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ يحجزون عنه عذابنا إذا استحق ذلك، ولا أحد منكم يمتنع منا إذا أردنا إهلاكه، لا بنفسه ولا بغيره. وليس بيننا وبين أحد من الخلق نسب ولا حسب، وإنما المعول في ذلك تقوى الله وطاعته.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُنذِرَ لِمَنْ يَحِبُّظَنَّ عَمَلَكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ولكنه ﷺ لم يتقول شيئاً من عند نفسه، ولم ينطق بشيء مما جاء به عن الهوى، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولهذا كان يقول ﷺ: «من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأِنَّهُ﴾، أي: القرآن الكريم، ﴿لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لتذكير وموعظة للمتقين، يتذكرون به عظمة الله عز وجل، وأسماءه وصفاته وأفعاله وثوابه وعقابه ووعدته ووعيده، وأمره ونهيه وما أعد له لأوليائه من الجنان والنعيم، وما أعد له لأعدائه من النار والجحيم، يتذكرون به أمور دينهم ودنياهم وأخراهم.

و«المتقين»: الذين يتقون الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وخص المتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به ويتذكرون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ مِنْكُمْ مُّكْذِبِينَ﴾، أي: وإنا لنعلم - أنه مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم أيها الناس من يكذب بالقرآن، وهم لا يخفون علينا، فسنبازيهم بتكذيبهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله (وإنا) وفي قوله (لقطعنا) لأنه العظيم سبحانه.

﴿وَأِنَّهُ﴾، أي: التكذيب بالقرآن والرسالة.

﴿لِحَسْرَةٍ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾، أي: أسى وندامة على الذين كذبوا وكفروا يوم القيامة، حيث لا ينفع الأسى والندم ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يٰلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ إلى القرآن.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به

لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذٰلِكَ سَلَكْنٰهُ فِي قُلُوْبِ الْمُجْرِمِيْنَ﴾

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٢٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠١ من

حديث جابر رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٢٤٦/٨.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤]». ويقوي هذا قوله بعد ذلك: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾.

وقال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «إن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعان فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة».

﴿ وَإِنَّهُ ﴾، أي: وإن القرآن ﴿ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾، و«اللام»: للتوكيد و«حق اليقين»: أعلى مراتب العلم. أي: وإنه للحق المتيقن، الذي لا مرية فيه.

أي: وإن القرآن للحق المتيقن، والخبر الصدق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَنْكَرَ لَأَرْبَابٍ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرْبَابٍ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ٢].

وأيضاً هو حق اليقين لما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية والبراهين القطعية. قال السعدي<sup>(٢)</sup>: «فأعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. و«اليقين» مراتبه ثلاث، كل واحدة أعلى مما قبلها، أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة».

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾، أي: بقولك: سبحان ربي العظيم. والذي معناه تنزيه الرب عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين وعمّا لا يليق بجلاله. و«العظيم» من أسماء الله - عز وجل على وزن «فعليل» يدل على إثبات صفة العظمة له - عز وجل، أي: الذي لا أعظم منه، وله الكبرياء والعظمة. فَعَظَّمَهُ بعبادته والخضوع له وتقواه حق تقاته، وذكر أوصاف جلاله ونعوت كماله.

(١) انظر «بدائع التفسير» ١٨/٥.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤٦٨/٧.

عن عقبه بن عامر رضي الله عنه: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»<sup>(١)</sup>.

رُوي بسند فيه انقطاع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَنَذِكُرُ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾»، قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع»<sup>(٢)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بما يُرى وبما لا يُرى- وهو أعظم قسم في القرآن- على تعظيم القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين، نزله الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا كاهن، وذم الذين لا يؤمنون ولا يتذكرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا بُصُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾».

٢- أن الله - عز وجل - أن يقسم بجميع مخلوقاته، وبما شاء منها.

٣- إثبات علو الله عز وجل على خلقه علو الذات وعلو الصفات، وربوبيته العامة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٤- أن القرآن كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة ومن سلك مسلكهم الضال.

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة - ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة - التسييح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٢) أخرجه أحمد ١٧/١ - ١٨. وانظر «تفسير ابن كثير» ٢٤٥/٨.

٥- ثناء الله - عز وجل - على رسوله ﷺ والرد على من يزعمون أنه تقول القرآن من عند نفسه، وبيان عدم استطاعة الرسول ﷺ، لا هو ولا غيره القول على الله والكذب عليه، ولو تقول عليه متقول لأهلكه؛ لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٦- لا أحد يستطيع أن يمتنع من الله - عز وجل وعذابه، لقوله تعالى: ﴿فَمَا يَنْكُرُونَ أَعْدِيئَهُ حَاجِرِينَ﴾.

٧- أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة وعبرة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٨- علم الله عز وجل بأن من الناس من يكذب بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ، والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾.

٩- أن التكذيب بالقرآن حسرة وندامة على الكافرين، لإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾.

١٠- أن القرآن الكريم هو الحق المتيقن، والخبر الصدق الذي لا شك فيه ولا مرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحَقِّ الْبَيِّنَاتِ﴾.

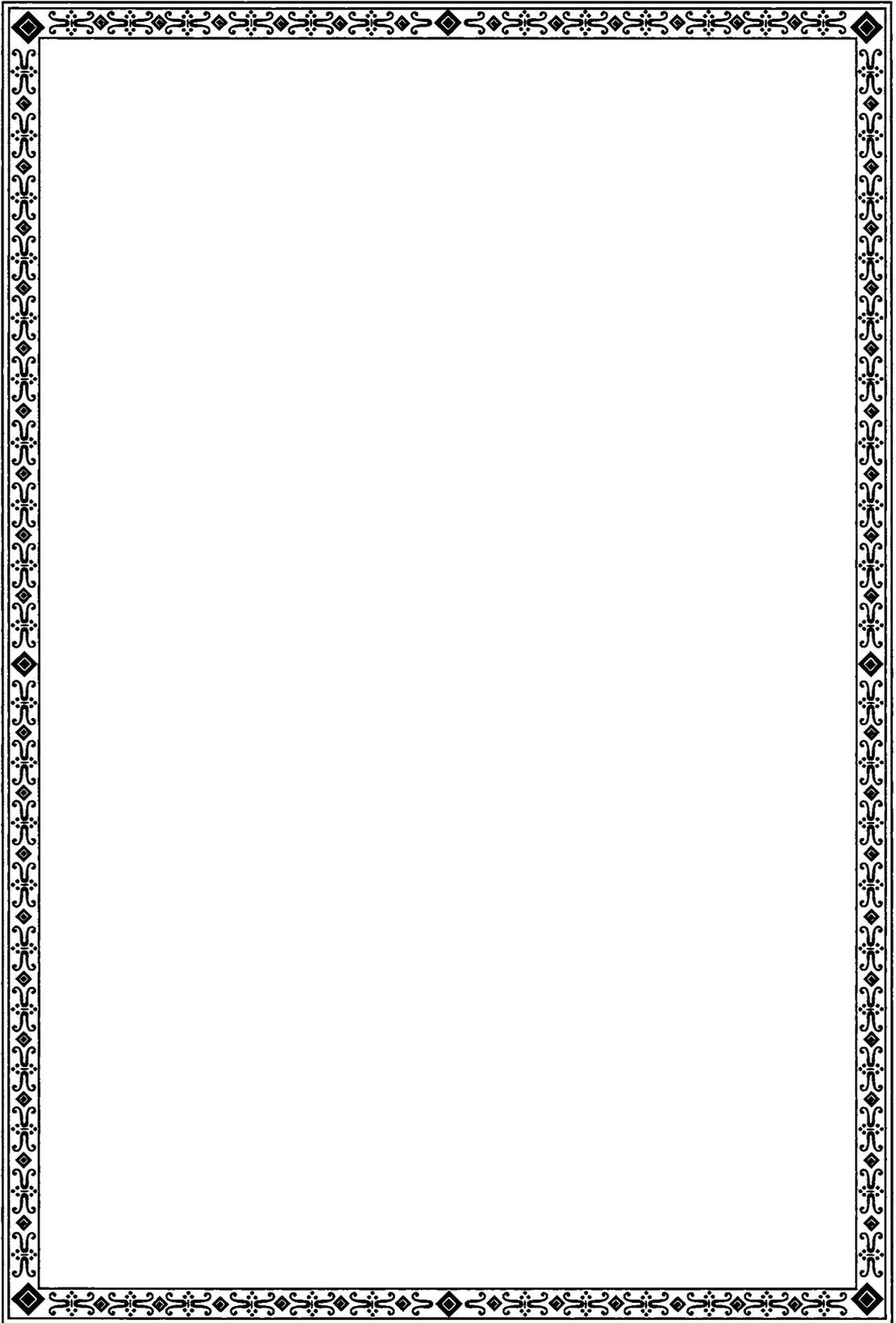
١١- مشروعية تسبيح الله عز وجل بتعظيمه وعبادته، وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷻ ولأوليائه عز وجل، وتشريفه ﷻ وتكريمه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٣- إثبات اسم الله - عز وجل «العظيم» وصفة العظمة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ ولهذا تكلم - عز وجل - عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآيات..



# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَعَارِجِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المعارج»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿تَبْتَكَ اللَّهُ ذِي

الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾.

وتسمى: «سورة سأل سائل»، و «سورة الواقع»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿سَأَلَ

سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾.

## ب- مكان نزولها:

مكة.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر سؤال المشركين عما توعدوا به من العذاب، متى يكون؟ استعجالاً له وتكذيباً له، والرد عليهم وتهديدهم بشدة أهوال ذلك اليوم، وسوء حالتهم آنذاك، والمصير إلى جهنم ولظاها: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَزَنَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْمَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوْءِ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مِن أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

٢- بيان ضعف الإنسان وهلعه وجزعه عند حصول الشر ومنعه عند حصول الخير، وأنه لا يسلم من هذا الوصف إلا المصلين المتصفين بالصفات المذكورة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّسَائِلٍ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ اللَّيْلِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٣- تهديد الكفار ووعيدهم: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا فَبِكَ مِهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ

عَزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُونُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانْتُهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا حَسِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَبَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُمْ بِوُدِّ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتِي تَتَوْبِهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْظَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةَ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرُ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿سَأَلَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر «سال» بألف دون همز. وقرأ الباقون بألف وهمز.

ومعنى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾: دعا داع، واستفتح مستفتح، تكذيبًا واستبعادًا وتعجيزًا ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ الباء تدل على تضمين الفعل «سأل» معنى فعل آخر نحو: «استعجل» أو «أجيب» ونحو ذلك.

وهذا أولى من القول بتضمين الحرف معنى حرف آخر - وإن كان الجميع واردًا في القرآن الكريم؛ لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر أكثر ورودًا في القرآن الكريم فينبغي الحمل عليه، فهو أولى، فيكون التقدير هنا: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع، أو استعجل سائل بعذاب واقع، أي: كان لا محالة.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق «بواقع»، أي: كائن للكافرين لا محالة لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم، فمنه ما قد يعجل لهم في الدنيا، ومنه ما يدخر لهم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: ١٦].

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ الآيات نزلت

في النضر بن الحارث بن كلدة»<sup>(١)</sup>.

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾، أي: ليس لهذا العذاب دافع يدفعه، ولا راد يردده ويمنعه عنهم قبل نزوله، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿مَنْ أَلَّهَ﴾، أي: هذا العذاب واقع بهم من الله عز وجل فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعا ولا منعا.

﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾، أي: صاحب السموات والعلو والجلال والعظمة والدرجات، والفواضل والنعيم.

﴿تَنْزِجُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾ قرأ الكسائي: «يعرج» بالياء على التذكير.

وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَنْزِجُ﴾.

أي: تصعد الملائكة والروح إليه عز وجل.

والملائكة: خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور يعبدون الله، ويأتمرون

بأمره، ولا يعصونه كما قال عز وجل: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦١﴾﴾

[التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والروح: جبريل عليه السلام، ملك الوحي، كما قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٠١﴾﴾

[الشعراء: ١٩٣].

فيكون عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام.

ويؤيد هذا ويقويه قوله عز وجل في سورة القدر: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ

رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿تَنْزِجُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾، أي: تصعد الملائكة، وجبريل عليهم

السلام إليه عز وجل بما وكل إليهم من الأمر.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٣٧٣.

ويحتمل أن يكون «الروح»: اسم جنس لأرواح بني آدم؛ لأن الروح إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، فأما روح المؤمن فما يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء السابعة بقربه عز وجل، وأما روح الكافر فتغلق دونها أبواب السماء فتعاد إلى الأرض. كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟».. إلى أن قال: «حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟» إلى أن قال: «حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له..» الحديث (١).

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ قال: «لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم، قال: يعني يوم القيامة» (٢). وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة» (٣).

وهكذا دلت السنة على هذا المعنى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

(١) أخرجه أحمد ٤ / ٢٨٧، ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٣٧٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٢٤٩، وقال: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣ / ٢٥٣.

رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» الحديث (١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا» (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. قال: «منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات ﴿مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، و﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]. يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام» (٣).

قال السعدي (٤) في كلامه على قوله تعالى: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر الله لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حلها وما تنتهي إليه من الملاء الأعلى - إلى أن قال: «هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا لأن السياق الأول يدل عليه، ويحتمل أن هذا في يوم القيامة لكن الله تعالى يخففه على المؤمن».

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: اصبر يا محمد على طاعة الله - عز وجل، وعلى دعوة قومك،

(١) أخرجه مسلم في الزكاة - إثم مانع الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة - باب في حقوق المال ١٦٥٨، والنسائي في الزكاة - التعليل في حبس الزكاة ٢٤٤٨، وأحمد ٢/٢٦٢، ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٧٥، وابن حبان ٧٣٣٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/٢٥٣، وأبو يعلى ١٣٩٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٧٣.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٤٧٠ - ٤٧١.

وعلى أقدار الله المؤلمة، ومن ذلك أذى قومك وتكذيبهم لك واستعجالهم العذاب.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾، «صبراً»: مصدر مؤكد، و«جميلاً» صفة له.

والمعنى: صبراً لا جزع فيه ولا قلق، ولا ملل ولا تَصَجُّر، ولا شكوى فيه لغير الله

كما قال تعالى: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ  
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، «إنهم» يعني المشركين والمكذبين للنبي ﷺ.

﴿يَرَوْنَهُ﴾، أي: يرون العذاب، وقيام الساعة، ﴿بَعِيدًا﴾، أي: مستحيل الوقوع

وينكرونه.

ولهذا استعجلوا وقوعه، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ  
بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَنَزَلَتْ قَرِيبًا﴾، أي: أنه عز وجل يرى قيام الساعة ووقوع العذاب قريباً؛ لأنه رفيق

حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، كما أخبر به عز وجل فقال: ﴿اقْرَبَتْ السَّاعَةُ

وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وكذلك المؤمنون يعتقدون قرب ذلك؛ لأن الله أخبر بذلك فهو آت، وكل آت

قريب، ولأن عمر الإنسان قصير، وكذلك عمر الدنيا كلها قصير بما في ذلك حياة

البرزخ بالنسبة للأخرة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩)، أي: أن قيام الساعة ووقوع

العذاب الذي يستعجلونه، والذي هو قريب يكون ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (٨) وَتَكُونُ

جِبَالٌ كَالْعِهْنِ.

و«المهل» دردي وعكر الزيت المغلي، أو الرصاص المذاب والفضة المذابة و«العهن»

الصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

فمن علامات قيام الساعة، ووقوع العذاب كون السماء المحبوكة الشديدة العظيمة

الخلقة تذب، فتكون كالزيت المغلي في الذوبان والحمرة، أو كالرصاص المذاب.

وكون الجبال الشاخات الراسيات كالصوف المنفوش في الخفة.

كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

[النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبا: ٢٠].

وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقها يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير،

فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَرِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾

[النازعات: ٢٧].

﴿ وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ قرأ أبو جعفر بضم الياء: «ولا يُسأل»، أي: ولا يُطلب

بعضهم من بعض، فلا يقال للحميم أين حميمك.

وقرأ الباقون: ﴿ وَلَا يَسْتَلُّ ﴾، أي: ويوم لا يسأل قريب قريبه عن حاله؛ لانشغال كل

بنفسه.

والحميم: القريب المشفق، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ

﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا

يَسْأَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [٣٤] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [٣٥] وَصَحْبِيهِ

﴿ وَبَنِيهِ ﴾ [٣٦] لِكُلِّ أُمَّرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقَوَارِيكُمْ

وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان:

٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [غافر: ١٨].

فالناس في الدنيا وبخاصة الأقارب يتناصرون فينصر بعضهم بعضا، وربما بالباطل

لكن في ذلك اليوم هيهات لا أحد ينصر أحدا.

﴿ يُبْصَرُونَهُمْ ﴾، أي: يُبصَّر الأقارب بعضهم بعضا ويُعرَّف بعضهم بعضا، ولا ينفع

أحد أحدا، بل يفر بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [٣٤] وَأُمِّهِ

﴿ وَأَبِيهِ ﴾ [٣٥] وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴾ [٣٦] لِكُلِّ أُمَّرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ ﴾، أي: يجب ويتمنى من اكتسب الجرائم من الكفر والذنوب والمعاصي،

وحق عليه العذاب.

﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾، أي: لو يتخلص وينجو ﴿مَنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ﴾، أي: من عذاب ذلك اليوم يوم القيامة.

﴿بَيْنِهِ﴾، أي: بأبنائه، وخص الأبناء دون البنات، لأنهم يعدون للدفع والمنع في الدنيا غالباً أما في الآخرة فهم والبنات سواء لا يملكون شيئاً من ذلك.

﴿وَصَحْبَتِهِ﴾ زوجته التي قد تكون أحب الناس إليه، ولا يرضى في الدنيا أن تنظر إليها العيون، ويقدم نفسه فداءً لها، وحفاظاً عليها في ذلك اليوم يوم القيامة يود لو قدمها فداءً لنفسه.

﴿وَأَخِيهِ﴾ الأخ من اشترك معك في أصلك «أبيك وأمك» وهو الشقيق، أو في أحدها وهو الأخ لأب، أو الأخ لأم.  
والأخ من أهم من يعد في الدنيا للمناصرة وفي الحديث «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»<sup>(١)</sup>.

وإن كان الحديث عاماً في أخوة الإسلام لكن يدخل فيه دخولاً أولياً من جمع بين الأختين أخوة الإسلام وأخوة النسب.

ويقول شاعرهم:

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجا بغير سلاح<sup>(٢)</sup>

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، أي: وعشيرته الأقربين، ﴿الَّتِي تُتَوَبَّه﴾، أي: التي تضمه في النسب وتنصره وتدافع عنه في الشدة ويأوي إليها.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ويود لو يفتدي من العذاب بكل الذين في الأرض جميعاً ولو كان أعلى ما لديه، وأحب شيء إليه.

﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾، أي: ثم يخلصه ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم، أو ثم يخلصه الله عز وجل مقابل ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم.

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥، من حديث أنس، رضي الله عنه.

(٢) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص ٢٩.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه».

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر والنفي، أي: ليس له ما يود.

﴿إِنَّمَا﴾، أي: النار، ﴿لَطَى﴾: اسم من أسماء النار، سميت به، لشده لظاها واشتعالها وحرارتها.

﴿نَزَاعَةً لِّلشَّوَى﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿نَزَاعَةً﴾ بالنصب.  
وقرأ الباقون بالرفع: «نزاعة».

أي: تنزع الشوى، وهو جلدة الرأس، أو ما دون العظم من اللحم، أو مكارم وجهه، وأطرافه، فهي تنزع اللحم حتى تصل إلى العظم، بل حتى تنفذ إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

والمعنى: ﴿كَلَّا﴾، ليس له ما يود، وليس له إلا النار الموصوفة بها ذكر.

﴿تَدْعُوا﴾، أي: تنادي النار إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾، أي: الذي أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه ﴿وَتَوَلَّى﴾، أي: أعرض عنه بجوارحه فلم يستعملها في طاعة الله، بل استعملها في معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾ [الملك: ٧].

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «تدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب».

﴿وَجَمَعَ﴾، أي: وجمع المال بعضه على بعض، وربما من أي طريق كان.

﴿فَأَوْعَى﴾، أي: جعله في أوعية وصناديق وأوكاه بالأقفال، ومنع حق الله فيه من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

(١) في «تفسيره» ٨ / ٢٥٢.

(٢) في «تفسيره» ٨ / ٢٥٢.

فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه، والتولي عن العمل بجواحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «لا توعي فيوعي الله عليك، ارضخي ما استطعت»<sup>(١)</sup>.

وكان عبد الله بن عكيم - رضي الله عنه - لا يربط كيسه، ويقول: «سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «يا ابن آدم، سمعت وعيداً، ثم أوعيت الدنيا»<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا ينبغي أن يحذر الإنسان من فتنة المال والدنيا، فكم زلت بسبب ذلك من أقدام. وقد حذر منها المصطفى ﷺ فقال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»<sup>(٤)</sup>. وهذا هو واقع كثير من أصحاب الأموال.

### الفوائد والأحكام:

١ - سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعاداً لوقوعه وتكديباً به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ﴾.

٢ - علو الله وعظمته وجلاله وإفضاله وإنعامه لقوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

٣ - إثبات وجود الملائكة، وفضل جبريل من بينهم، وعروجهم إلى الله عز وجل؛

(١) أخرجه البخاري في الزكاة - الصدقة فيما استطاع ١٤٣٤، ومسلم في الزكاة - الحث على الإنفاق وكرهه الإحصاء ١٠٢٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣ / ٢٦٥.

(٣) ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٢٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ - من حديث عمرو بن عوف - رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿تَمْرُجُ الْمَلَكِيَّةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

- ٤- إثبات يوم القيامة وطوله؛ لقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.
- ٥- أمر النبي ﷺ بالصبر الجميل على طاعة الله تعالى وعلى أقداره المؤلمة ومن ذلك الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أمر له ولكل من سلك طريقه من أمتة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.
- ٦- استبعاد المشركين للعذاب، وللبعث والحساب، بل وإنكارهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾.

- ٧- تعظيم الله - عز وجل - لنفسه لقوله (ونراه) وهو العظيم سبحانه.
- ٨- قرب قيام الساعة وعذاب المكذبين؛ لأن ذلك آت لا محالة وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان بل عمر الدنيا ليس بشيء بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَلَتْ قَرِيبًا﴾.
- ٩- شدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبطاء بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

- ١٠- تمنى المجرم أن يفتدي من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس عليه وأقربهم إليه، وغيرهم، وبكل شيء، ولكن هيهات ليس له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَحْبِهِهٖ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝١٣ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

- ١١- شدة النار ولظاها وعذابها، ومناداتها على أصحابها، ممن أدبر وتولى عن الإيمان وكان همه جمع الحطام وكنزه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ۝١٦ تَدْعُوا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ۝١٨﴾.

- ١٢- التحذير من الإدبار والتولي والإعراض عن الحق، والتهالك في جمع حطام الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوَاتِرَ الَّذِيْنَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ .

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها، وتمنيهم التخلص من عذاب ذلك اليوم، وأن لظى مرصدة تدعو كل من أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه، وأعرض عنه بجوارحه، وجعل همه الدنيا ثم أتبع ذلك ببيان ضعف الإنسان عموماً فهو جزوع إن أصابه الشر، ومنوع إن أصابه الخير، إلا المؤمنين المصلين الذين ذكر الله صفاتهم في هذه الآيات، فهم عند المصيبة يصبرون، وعند الخير لا يمنعون.

قوله: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾، أي: جنس الإنسان ﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾، أي: أوجد حال كونه هلوياً.

وقد فسر عز وجل قوله: ﴿ هَلُوعًا ﴾ بقوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

أي: إذا أصابه الشر والضر من فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من أهل أو ولد أو مال وغير ذلك ﴿ جَزُوعًا ﴾، أي: كثير الجزع والضجر والأسى، وربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الحدود وشق الجيوب، وربما أدى به ذلك إلى ما هو أشد من ذلك. نسأل الله الثبات والسلامة والعافية.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأي: أن يحصل له بعد ذلك خير».

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾، أي: وإذا حصل له الخير، بأن أنعم الله عليه بالمال ونحو ذلك

(١) في «تفسيره» ٢٥٣/٨.

﴿مَتَّوَعًا﴾: شديد الحرص كثير المنع والإمساك، يمنع حق الله في ذلك.

فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع»<sup>(١)</sup>.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، أي: إلا المؤمنين المصلين الموصوفين بما ذكر بعد من الصفات فهم مستثنون مما ذكر؛ لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء، لأنهم يأوون إلى ركن شديد، وحصن منيع، وهو إيمانهم بالله عز وجل، وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه».

وقال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، ولم يقل: إلا المؤمنين؛ لأن الصلاة عمود الإسلام، وأفضل العبادات وأعظمها، ولا يقيمها ويحافظ عليها إلا من كان مؤمنا.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: الذين هم على صلاتهم مواظبون يؤدونها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشرروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها، وتنهي عن الفحشاء والمنكر، فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير، وما عداها فلا، وكم من مصل، لكنه لا يتذوق هذه المعاني لخلل في صلاته، والله المستعان.

لهذا أكد هذا المعنى في آخر صفاتهم في هذه الآيات، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [الآيتان: ١، ٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دووم

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- باب في الجرأة والجبن ٢٥١١، وأحمد ٢/٣٢٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/٢٥٤.

عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، أي: في أموالهم حق محدد، ونصيب مقرر، مقدر من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

﴿لِسَائِلٍ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس، أي: يتدنى بالسؤال، وله حق.

كما جاء في الحديث: «للسائل حق وإن جاء على فرس»<sup>(٢)</sup>.

«والمحروم»: الذي لا يسأل مع فقره وحاجته، ولا يفتن له فيتصدق عليه، فهو محروم من العطاء لتعففه عن السؤال.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمٍ الَّذِينَ﴾، أي: والذين يصدقون ويوقنون بيوم القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، وإدانة كل بما عمل؛ ولهذا استعدوا له بالأعمال الصالحة. والتصديق بيوم الدين يستلزم التصديق بالرسول وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون وجلون، كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَّتْنَا عَذَابَ السَّمُورِ<sup>(٤)</sup> إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ<sup>(٥)</sup> [الطور: ٢٦-٢٨].

وفي هذا أبلغ الرد على غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: لا أعبده خوفاً من ناره ولا رجاء في جنته، وإنما أعبده محبة له.

فالمؤمن الحق يعبد الله محبة له وخوفاً من عذابه ورجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾، أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر، ولا يأمنه أحد ممن

عقل عن الله عز وجل أمره، إلا بأمان من الله عز وجل.

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا،

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ١٧٦/٦، ١٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة- حق السائل ١٦٦٥، وأحمد ٢٠١/١ من حديث علي بن أبي طالب وحسين بن علي رضي الله عنهما.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا»<sup>(١)</sup>.  
وفي خبر الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله عز وجل له رمانة ينزل كل يوم يأخذ منها، فلما قال الله عز وجل لملائكته: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي»، قال: لا يارب، بل بعلمي فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر، فقال الله عز وجل: «أدخلوا عبدي النار بعلمي»، فقال: لا، يارب: «أدخلني الجنة برحمتك فأدخل الجنة»<sup>(٢)</sup>.

فالعامل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس بعوض عنه، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، فالعبد المؤمن في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، لا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، أي: حافظون لها عن الحرام من الزنا واللواط، وإتيان الزوجات في أدبارهن وفي الحيض والنفاس، وإتيان البهائم والاستمناء باليد، والسحاق بين النساء، ومن كشف الفروج والنظر إليها وغير ذلك.

ومن لازم ذلك غض الأبصار عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، من نظر الرجال إلى النساء والمردان، ومن نظر النساء إلى الرجال ونحو ذلك من الوسائل الداعية إلى فعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، «إلا»: أداة استثناء.

أي: إلا على ما أباح الله لهم من أزواجهم أو ما ملكته أيانهم من الإماء.  
فالأزواج أباح الله لهم ذلك بعقد النكاح بينهم، وما ملكته أيانهم أباحن الله لهم بملك اليمين.

﴿فَأَيْمَانَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، أي: فإنهم لا لوم عليهم في ذلك؛ لأن الله أباح الأزواج لبعضهم لبعض بعقد النكاح بينهم، وأباح ملك اليمين من الإماء بعقد الملك.

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة والإنباء ٤/٢٥٠ - من حديث جابر - رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، أي: فمن طلب غير ذلك، والإشارة لقوله: ﴿إِلَّا عَلَيَّ أَرْوَجُهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

أي: فمن طلب إشباع الشهوة في غير ما أباح الله، وهو ما بين الزوجين، وبين السيد وأمته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، أي: فأولئك المبتغون وراء ذلك هم العادون على حدود الله، المجاوزون الحلال إلى الحرام، كالزنا واللواط ونكاح المتعة ونحو ذلك.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيراً لهم، وأكد عظم اعتدائهم وجرمهم وتجاوزهم لحدود الله بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ الأمانات: جمع أمانة وهي تشمل كل ما اتّمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها، ومما بينه وبين الخلق من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك.

أي: والذين يرعون الأمانات، فيؤدون الأمانات إلى أهلها؛ امتثالاً لقول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ولتعظيم الله عز وجل لها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولأمره ﷺ بأدائها قال ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» (١). ويرعون العهود، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله عز وجل، والتي بينهم وبين الخلق، فيؤدون حقوق الله امتثالاً؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، والدارمي في البيوع ٢٥٩٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

فمن أخص صفات المؤمنين رعاية الأمانات والعهود، كما قال تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ [الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ [الرعد: ٢٠].

كما أن الخيانة ونقض العهود من أخص صفات الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧].  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»<sup>(١)</sup>.  
وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ قرأ يعقوب وحفص عن عاصم بألف بعد الدال على الجمع: ﴿بِشَهَادَتِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بغير ألف على الأفراد «بشهادتهم».  
أي: يؤدون ما تحملوا من الشهادات على وجهها وبتمامها، من غير كتمان ولا زيادة ولا نقصان، على أنفسهم وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم، امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِالْفِئْطِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٣٣، ومسلم في الإبان- بيان خصال المنافق ٥٩، والنسائي في الإبان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإبان ٢٦٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الإبان ٣٤، ومسلم في الإبان ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإبان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإبان ٢٦٣٢.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بأدائها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

وقد خص الله عز وجل هذه الصفات لفضلها، وافتتحها بذكر الصلاة واختتمها بذكر الصلاة في هذه السورة وفي سورة «المؤمنون» وذلك؛ لفضل الصلاة وعظم منزلتها في الإسلام، فهي عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه، قال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»<sup>(٢)</sup>.

وفي الآية الأولى منها وصف المؤمنين بالديمومة على الصلاة، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ وفي الآية الأخيرة منها وصفهم بالمحافظة عليها فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فوصفهم أولاً بالديمومة على الصلاة، ووصفهم ثانياً بالمحافظة عليها، كما وصفهم في سورة المؤمنون أولاً بالخشوع فيها، ووصفهم ثانياً بالمحافظة عليها وفي هذا ما لا يخفى من تأكيد عنايتهم بها.

وقد جمع الله للموصوفين بما ذكر سبع صفات عظيمة وهي: المداومة والمحافظة على الصلاة، وأداء حق المال من الزكاة والنفقات والصدقات، والتصديق بيوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، والإشفاق من عذاب ربهم، وحفظ فروجهم عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، وإقامة الشهادات بالحق.

وقد ذكر عز وجل هذه الصفات بأوسع من هذا في مطلع سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها- المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- فضل الصلاة لوقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان- كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّزْقِ كَافِرُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِنَا جَحْدُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا  
 مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ  
 لِأَمْنَتِنَا وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾  
 الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات.

﴿فِي حَتِّ مَكْرُمُونَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم.

ونكر «جنات»؛ تعظيماً لها، وهي جنات الفردوس التي أعدها الله عز وجل لنزل  
 أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، كما قال تعالى في نهاية هذه الصفات في سورة المؤمنون  
 ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].  
 ولهذا جاء في الحديث: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط  
 الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»<sup>(١)</sup>.

﴿مَكْرُمُونَ﴾، أي: لهم فيها أنواع الكرامة، والنعيم الحسي والمعنوي، كما قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكُهُمْ وَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصفات: ٤١، ٤٢].

### الفوائد والأحكام:

١- ضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، فلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان  
 والقيام بمقتضاه، وأهم ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة. ففي ذلك  
 الحصانة التامة بإذن- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ  
 جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات.

٢- أن الصلاة والمداومة عليها وحفظها مع الصفات المذكورة أكبر معين بتوفيق  
 الله- عز وجل- على الثبات أمام تقلبات الحياة، والصبر عند الضراء وعدم الجزع،  
 والشكر عند السراء، والبذل وعدم المنع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآيات.

٣- بيان صفات المؤمنين كاملي الإيمان، وهي: المداومة على الصلاة، وإيتاء الزكاة،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والتصديق بيوم القيامة، والخوف من عذاب الله، وحفظ فروجهم إلا فيما أباح الله لهم، وحفظ أماناتهم وعهودهم ورعايتها، وقيامهم بالشهادة وأداؤها على الوجه المطلوب وحفظ صلاتهم بإقامتها كما شرعها الله عز وجل - فأكرم بها وأنعم من أوصاف عظيمة وصفات كريمة بها السعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾.

٤- وجوب المداومة على الصلاة والمحافظة عليها بإقامتها تامة كما شرعها الله، وإيتاء الزكاة وغيرها من النفقات الواجبة لمستحقيها، والترغيب في صلاة النوافل والصدقات.

٥- وجوب الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الجزاء على الأعمال، والخوف من عذاب الله عز وجل.

٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة، للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٧- وجوب حفظ الفروج عن الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾.

٨- إباحة وطء الأزواج وملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

٩- وجوب حفظ الأمانات والعهود ورعايتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

١٠- وجوب القيام بالشهادات وأداؤها بتمامها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

١١- عظم ما أعد الله عز وجل للموصوفين بهذه الصفات عنده من الجنات، والكرامة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقِيمُ رَبِّبِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلُّكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ذكر الله عز وجل صفات المؤمنين المصلين وما أعد لهم من الكرامة في الجنات، ثم أنكر على الكفار وتوعددهم وهددهم.

قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ الفاء: استئنافية، و«ما»: اسم استفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم ﴿قَبْلَكَ﴾، أي: أمامك وحولك وعن يمينك وعن شمالك. ﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين مادي أعناقهم، اغترارًا منهم بأنفسهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾: جماعات متفرقين.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق، فقال: «ما لي أراكم عزين؟» (١).

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ الهزمة: للاستفهام الإنكاري، أي: أيطمع كل واحد منهم.

﴿أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: أيطمع كل واحد منهم في إدخاله الجنة يتنعم فيها.

﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر لهم، فليس لهم ما يطمعون به من دخول الجنة، بل ليس لهم إلا النار وبئس القرار.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أوجدناهم من الذي يعلمون ولا تخفى عليهم مهانتهم وحقارته وضعفه، وهو المنى، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأحمد ٩٣/٥، ١٠١.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المسلمات: ٢٠-٢٣]، وقال تعالى: ﴿الزَّيْبُ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوْىٰ ﴿٢٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ٥-١٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ خَلَقْتُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة: ٥٧].

فاحتج عليهم بخلقه لهم على وجوب توحيدهِ ومعرفةهِ.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا»: صلة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: أقسم برب المشارق والمغرب.

وجمعت المشارق والمغرب مراعاة للجمع قبلهما كما في قوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾، وقوله: ﴿عَزِينَ﴾.

المراد: مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، ومشارق ومغرب سائر الكواكب<sup>(١)</sup>.

وفي إقسامه عز وجل بربوبيته للمشارق والمغرب تعظيم لنفسه عز وجل، وتنبية على عظم وسعة خلقه وملكه وتدبيره.

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم عز وجل بربوبيته للمشارق والمغرب على قدرته على تبديل خير منهم.

أي: خيراً من هؤلاء الكفار بأن نذهب بهم ونأتي بقوم يؤمنون ولا يكفرون، ويطيعون ولا يعصون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الآية: ١٧].

بِأَخْرِبَ<sup>٤</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ خَلَقْتَهُمْ  
وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ<sup>٥</sup> وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ بَدِيلًا ﴿٢٨﴾ [الإنسان: ٢٨].  
ويحتمل أن المعنى: إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم يوم القيامة بأن نعيدهم  
بأبدان خير من هذه الأبدان.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين، ولن يفوتنا ذلك، أو  
يتمتع منا إذا أردناه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَلَقْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿١٠﴾ عَلَيَّ أَنْ  
نُبَدِّلَ أَمْتَلَكُمُ وَنُنشِئَكُمُ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ  
الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْعَ عَظْمَهُ ﴿٣﴾ بِلَا قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣، ٤].  
قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب  
يسبقه الغالب فيفوت عليه».

﴿فَذَرَهُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: فدع يا محمد هؤلاء الكافرين واتركهم.  
﴿بِخَوْضُوا﴾ بالباطل بأقوالهم.

﴿وَيَلْعَبُوا﴾، أي: يضيعوا أعمارهم باللهو واللعب بأبدانهم وأفعالهم والتمتع بالدنيا  
بلا عمل صالح ينفعهم غداً.

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي  
الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا  
تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد  
له من هذين الأمرين».

﴿حَتَّىٰ يَلْقَا يَوْمَهُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾، أي: حتى غاية ملاقاتهم يوم القيامة، الذي وعدهم الله  
بمجيبته ومجازاتهم فيه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وعند ذلك سيعلمون سوء عاقبة  
أمرهم، وسيجازون على أعمالهم، ويندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا تهديد شديد

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥ / ٢٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٥ / ٢٩.

لهم ووعيد أكيد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ هذا وما بعده وصف لحالهم في ذلك اليوم. و«الأجداث»: القبور.

﴿سِرَاعًا﴾، أي: مسرعين إلى الداعي، أي: يوم يبعثون ويقومون من القبور مسرعين إلى أرض المحشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مُهَاطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُورٍ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦].

﴿كَانَتْهُمْ إِلَى نَضْبٍ يُوفُضُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿نَضْبٍ﴾ بضم النون والصاد، وقرأ الباقون: «نَضْب» بفتح النون وإسكان الصاد. أي: كأنهم في سرعة نهوضهم من قبورهم وسرعتهم إلى أرض المحشر ﴿إِلَى نَضْبٍ﴾، و«النضب»: الصنم، أو العلم والغاية.

﴿يُوفُضُونَ﴾ يسرعون والإيفاض: الاستباق والإسراع، أي: كأنهم في سرعتهم إلى أرض المحشر يسرعون إلى أصنام، أو إلى أعلام وغايات يستبقون إليها أيهم يستلمها أولاً.

وفي الآية الثانية قال تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَعِوجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨].

أي: كلهم يؤم صوت الداعي، ويتبعه لا يعوج عنه.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾، أي: ذليلة أبصارهم منكسرة خاضعة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾، أي: تغشاهم ذلة ومهانة شديدة مقابل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الله تعالى في الدنيا؛ لأن العز كل العز بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية

الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

فجمع لهم بين ذل الظاهر بخشوع أبصارهم، وذل الباطن بما يغشاهم من الذل كما قال تعالى: ﴿وَتَرَهُمُ ذُلًّا مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾، أي: يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً وتفخيماً لأمره، أي: ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، أي: الذي كان المشركون يوعدون بمجيئه وهم به يكذبون وقد رأوه عياناً، وهذه حالهم فيه.

### الفوائد والأحكام:

١- التعجب من حال المشركين والكفار والإنكار عليهم في إسراعهم قبل الرسول ﷺ جماعات عن اليمين وعن الشمال غروراً منهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣١﴾ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ غَيْرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٢- مدى سفه الكفار وعظم جهلهم حيث يطمعون بدخول الجنة والنعيم بلا عمل منهم سوى التكذيب بالحق وردده، والإنكار عليهم في ذلك ورددهم وزجرهم، وتذكيرهم بأصل خلقهم وضعفه وحقارته ومهانته؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

٣- أن حكمة الله عز وجل في إيجاد البشر تقتضي إثابة المطيع وعقوبة العاصي.

٤- إقسام الله عز وجل بنفسه وهو رب المشارق والمغارب على قدرته على تبديل الكفار المكذبين بخير منهم، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٤١﴾﴾.

٥- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بترك الكفار في خوضهم ولعبهم وتضييع أعمارهم حتى يوافوا يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، وتسلية له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْبُؤًا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

٦- إثبات البعث وخروج الكفار مسرعين من قبورهم، ذليلة أبصارهم، تغشاهم

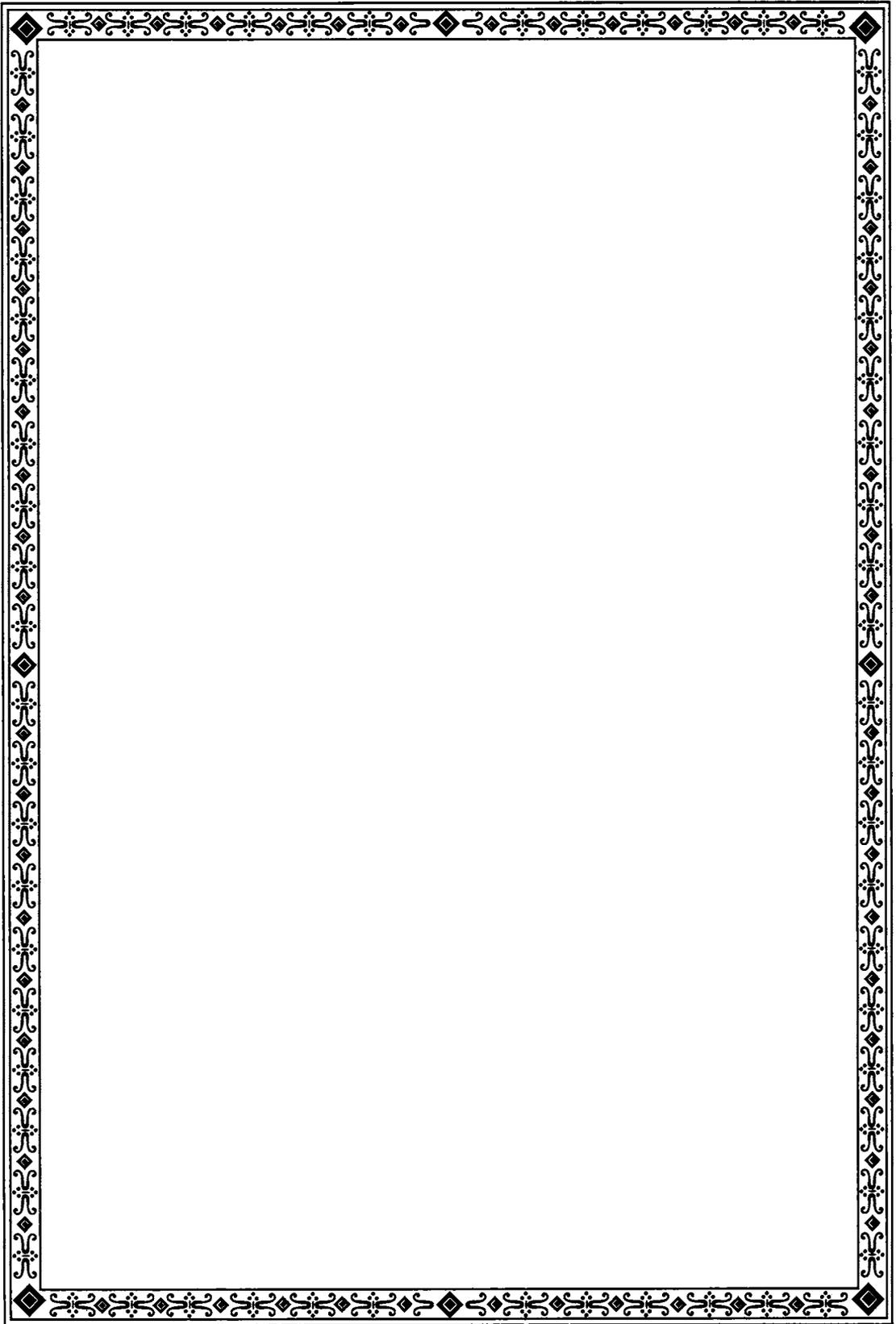
ذلة وهوان، يتسابقون إلى المحشر يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

٧- الإشارة إلى شدة يوم القيامة وأهواله، وأنه اليوم الذي تُوعَد به الكفار والمشركون؛ لقوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

\* \* \*



# تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة نوح»؛ لافتتاحها بذكر رسالة نوح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾، ولاشتغالها على دعوته.

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- موضوعاتها:

١- تحدثت هذه السورة عن إرساله عز وجل نوحًا إلى قومه وإنذاره لهم، وأمره إياهم بعبادة الله تعالى، وتقواه، واستغفاره، وطاعته، ووعدهم بالمغفرة والإمهال إلى أجل مسمى.

٢- شكواه عليه السلام إلى ربه عدم استجابتهم له مع تنويعه لهم أساليب الدعوة، وترغيبهم بكثرة الأمطار والأموال والجنات والأمنار.

٣- أمره لهم بالتأمل في مظاهر قدرة الله تعالى، في خلق السموات والقمر والشمس، وفي إنباتهم من الأرض، وإعادةهم فيها ثم إخراجهم، وجعلها لهم بساطًا؛ ليسلكوا منها سبلاً فجاجًا.

٤- شكواه عليه السلام إلى ربه عز وجل مرة ثانية عصيانهم له، واتباعهم من لم يزد ماله وولده إلا خسارًا، ومكرهم مكرًا كبارًا، وتواصيهم بالتمسك بمعبوداتهم من دون الله التي أضلت كثيرًا من الخلق.

٥- دعاء نوح عليه السلام عليهم بزيادة الضلال، وإغراقهم، وإدخالهم النار بسبب خطيئاتهم؛ فلا ناصر لهم من دون الله. ودعاؤه عليه السلام عليهم بالهلاك عن آخرهم، ودعاؤه بالمغفرة له ولوالديه ولن دخل بيته مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات، وأن لا يزد الظالمين إلا تبارًا.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَنْقُورِ  
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبْكُمْ إِلَىٰ  
أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴿

هذه السورة سورة عظيمة تمثل منهج الدعوة إلى الله عز وجل كما هي طريقة نوح عليه السلام في دعوته لقومه من حيث تنوع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله عز وجل وشكوى الحال إليه سبحانه.

وقد أفرد عز وجل قصة نوح عليه السلام وحدها؛ لطول لبثه فيهم وتكرار دعوته إلى التوحيد والتحذير من الشرك.

قوله: ﴿إِنَّا﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، له كمال العظمة والكبرياء.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، أي: بعثناه ليؤدي رسالتنا إليهم.

والرسول: هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

ونوح: هو أول رسول أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض بعد آدم، وآدم نبي وليس برسول.

وهو نوح بن لامك، وهو أحد أولي العزم الخمسة، قال تعالى: ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ  
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾  
[الأحزاب: ٧].

﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾، «أن»: حرف مصدرى ونصب، أي: بأن أنذر قومك، أو: لأجل أن تنذر قومك.

والإنذار هو: الإعلام مع التخويف والتحذير، أي: أن أعلم قومك وخوفهم وحذرهم.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾، أي: من قبل أن يحل بهم عذاب مؤلم موجه لهم حسًا ومعنى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ صدر خطابه عليه السلام لهم بالنداء تنبيهًا لهم وتعظيمًا للأمر، وخاطبهم بقول: «يا قوم» استعطافًا لقلوبهم. والقوم: هم الجماعة الكثيرة من الناس رجالًا ونساء.

﴿لَكُمْ﴾، أي: لكم خاصة، لا لغيركم، كما قال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»<sup>(١)</sup>.

﴿نَذِيرٌ﴾، أي: منذر ومحذر وخوف ﴿مُبِينٌ﴾ بين النذارة واضح البرهان، أي: بين في نفسه أنه نذير، ومبين ما أرسل للإندار والتخويف منه كما قال ﷺ: «إني أنا النذير العريان»<sup>(٢)</sup>.

﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: بأن اعبدوا الله وحده بالخضوع والتذلل له، وإخلاصه بالعبادة.

﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ بفعل أو امره وترك نواهيه، والتي من أعظمها الشرك ووسائله.

﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، أي: امتثلوا أمري بفعل ما أمركم به، وترك ما أنهاكم عنه.

﴿يَعْفِرْ لَكُمْ﴾ هذا من البشارة التي جاء بها نوح عليه السلام مع الإنذار، كما هي طريقة جميع الرسل عليهم السلام، كما قال الله عز وجل: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَأْتِيَ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأمره الله عز وجل في مطلع السورة بالإندار لقومه، وصرح لهم عليه السلام بأنه لهم نذير مبين، ولم يأت التصريح بالبشارة والله أعلم - وإنما دل عليها مضمون الآيات

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ - من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣ - من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لما هم عليه من شدة الكفر والتكذيب والعناد، كما هو ظاهر من الآيات. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يديني المؤمن ويقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»<sup>(١)</sup>.

﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى. والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم كلها وهو مقتضى الأدلة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَيُوخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: ويؤجلكم إلى أجل ووقت محدد وهو مقدار بقائكم في الدنيا، وذلك بدفع العذاب الدنيوي العاجل عنكم، والمباركة في أعماركم؛ لأن الطاعة والبر وصلة الرحم تزيد في العمر قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، منسأة في الأثر»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾، أي: وقته الذي وقته لموتكم، أو لوقوع العذاب عليكم.

﴿إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، أي: إذا حضر لا يمكن تأخيره وتأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة العلم النافع لأنبتم إلى ربكم، ولما كفرتم وكذبتم بالحق، أي: اعلمو ذلك.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.  
(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب».  
(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

إِلَى قَوْمِهِ ۖ ﴿١﴾

- ٢- أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي الإنذار من العقوبات والعذاب لمن عصاهم، والبشارة لمن أطاعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الآيات.
- ٣- أن الهدف من إرسال الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته والتحذير من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُون﴾.
- ٤- وعد نوح عليه السلام لقومه وبشارته لهم - إن أطاعوه - بمغفرة الله عز وجل لذنوبهم وتأخيرهم إلى أجل مسمى بتأخير العذاب الدنيوي عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
- ٥- أن للاستقامة على عبادة الله تعالى وتقواه وطاعته، أثرها العظيم في البركة في العمر، والتأخير إلى أجل مسمى.
- ٦- أن أجل الله بالموت أو بإيقاع العذاب على المكذبين إذا جاء لا يمكن دفعه ولا تأجيله، ولا منعه، وما قدره الله كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.
- ٧- أن الكفار لا علم عندهم يهتدون به إلى ما ينفعهم وينجيهم من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِي وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

توجه نوح عليه السلام في الآيات السابقة بالنداء إلى قومه يندرهم ويأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته ويعددهم على ذلك بالمغفرة من الله عز وجل، وتأخير العذاب عنهم ويحذرهم من تعجيله لهم في الدنيا.

ثم توجه بالنداء إلى ربه عز وجل يشكو إليه ما لقي من قومه من البعد والفرار، والاستكبار والمكر الكبار، وعبادة الأصنام والضلال والإضلال، وذكر صبره عليه السلام عليهم تلك المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عامًا فإليه عز وجل المشتكى في جميع الأحوال.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾، أي: قال نوح يا رب إني دعوت قومي إلى عبادتك وتقواك، وطاعتي.

﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، أي: في الليل والنهار، أي: في جميع الأحوال والأوقات.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أي: إلا بعدًا عن الحق والإيمان، ونفورًا منه، وإعراضًا عنه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ «كلما»: ظرف، واللام للتعليل ﴿جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي

آذَانِهِمْ﴾، أي: سدوا آذانهم بأصابعهم؛ لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه؛ استكبارًا وعنادًا،

كما قال الله عز وجل عن كفار مكة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنَّ آذَانَنَا

وَقَرُّ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾

[فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]،  
وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَأَسْتَفْشَوْا نِيَابَهُمْ﴾، أي: غطوا رؤوسهم بشيابهم، لئلا يسمعوا، أو تنكروا له لئلا يعرفهم مبالغة في إظهار الكراهة له ولدعوته.

﴿وَأَصْرُوا﴾، أي: استمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتشددوا في ذلك.

﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ «استكبارا»: مصدر مؤكد، أي: استكبروا استكبارًا عظيمًا، أي: استنكفوا وتكبروا عن قبول الحق واتباعه والانقياد له.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ (٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. بعدما بين دعوته لهم في جميع الأوقات في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بين أنه دعاهم في جميع الأحوال.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، أي: ظاهرًا بمسمع منهم كلهم.  
﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾، أي: دعوتهم علانية وصرخت وصحت بهم.  
﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، أي: ودعوتهم خفية فيما بيني وبينهم، وأسررت لهم في ذلك غاية الإسرار.

فدعاهم عليه السلام ليلاً ونهارًا وجهراً وعلناً وسراً، مجتمعين وفرادى، ونوع في أسلوب الدعوة؛ لعل ذلك ينجح معهم وينجع فيهم، ولكن هيهات.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ذنوبكم، وتوبوا وارجعوا إليه.  
﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: ذا مغفرة عظيمة، لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، إذا صدق

العبد في التوبة والرجوع إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٢) [طه: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

حَسَنَتْ<sup>٧٠</sup> وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].  
قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبَيِّنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

هذا رزق وفضل من الله عز وجل عاجل لهم في الدنيا، مع مغفرة ذنوبهم والثواب الآجل في الآخرة، إذا استغفروا الله وتابوا إليه.

قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، أي: يرسل السماء عليكم بالمطر غزيرًا متتابعًا، وينزل عليكم من بركات السماء ورزقها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

قال ابن كثير<sup>(١)</sup> في كلامه على الآية ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: «أي: متواصلة الأمطار؛ ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية، وهكذا رُوِيَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء<sup>(٢)</sup>، التي يستنزل بها المطر، وقرأ الآية التي في سورة «هود» حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَيُمْدِدْكُمْ﴾، أي: ويعطكم ويزدكم من فضله وخزائنه التي لا تنفد.

﴿بِأَمْوَالٍ﴾ وهي كل ما يتمول ويملك من أنواع الأموال من الذهب والفضة والدراهم والدنانير، والعقار والأثاث والمتاع وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا تُمِدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

(١) في «تفسيره» ٨ / ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) «المجاديح» هي وسائل استخراج الماء كالدلاء ونحوها، فيكون معنى قول عمر رضي الله عنه أنه بذل أهم أسباب استنزال المطر والغيث من الله عز وجل وهو استغفاره سبحانه وتعالى.

﴿وَبَيْنَ﴾، أي: ويمدكم بينين، وهم الذكور من الأولاد، وخصهم بالذكر؛ لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم، كما قالت امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال عز وجل متوعداً للوليد بن المغيرة ومذكراً له: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر: ١١-١٣]. وكثرة الأموال خير إذا استعين بها على طاعة الله تعالى. ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾، أي: ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزرورع والشمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، أي: ويجعل لكم أنهاراً تجري وسط هذه الجنات تشربون منها، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحرثكم ومواشيكم، وتمتعون برؤيتها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْتْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاهَا لِيُؤْتَى مِنْهَا حَبًّا ﴿٢٩﴾ وَحَدَّيْنِهَا عُثْبَانًا ﴿٣٠﴾ وَفَكَهَنَ وَأَبَّا ﴿٣١﴾ مَتَّعًا لَكُمْ ﴿٣٢﴾ وَلَا نُنْعِمُكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وهكذا أمر الله محمداً ﷺ أن يقول لقومه: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال هود لقومه: ﴿وَيَنْقُومِ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقال

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

صالح لقومه: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٦١].

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أمرهم عليه السلام بالاستغفار ورجبهم بالمغفرة من الله - عز وجل - وإنزال المطر وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، ثم وبخهم وأنكر عليهم عدم الخوف من الله عز وجل، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ الآيات.

قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾، «ما»: اسم استفهام معناه الإنكار عليهم.  
﴿وَقَارًا﴾، أي: عظمة وتقديرًا، أي: ما لكم لا تحافون لله عظمة، ولا تحافون بأسه ونعمته ولا تقدرونه حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، الزمر: ٦٧].

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الواو: حالية، و«قد»: للتحقيق، أي: والحال أنه قد خلقكم أطوارًا، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه.

ومعنى قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، أي: والحال أنه عز وجل خلقكم خلقًا من بعد خلق، وطورًا من بعد طور، فطورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغعة، ثم عظامًا، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأ خلقًا آخر، ثم اكتمال حمله في بطن أمه، ثم ولادته، ثم فترة الرضاع، ثم سن الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة ثم الهرم، ثم الرد إلى أرذل العمر.

وفي تذكير الخلق في ابتداء خلقهم وأطواره تنبيه على قدرته التامة على بعثهم وإعادةهم بعد موتهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الهزمة للاستفهام التقريري.

أي: ألم تعلموا كيف أوجد الله سبع سموات.

﴿طَبَاقًا﴾: بعضها فوق بعض، كل سماء مقبية على الأخرى، وأوسع منها، سمك كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة والتي تليها مسيرة خمس مئة عام، كما جاء في الحديث (١).

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، أي: وجعل القمر في هذه السموات السبع نورًا، مستفادًا من نور الشمس.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، أي: وجعل الشمس فيهن، وفي هذا الكون مصباحًا مضيئًا، وسميت الشمس سراجًا؛ لحرارتها، ولأنها أشد إضاءة من القمر.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

قال ابن كثير (٢): «أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاً منها أنموذجًا على حدة؛ ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدّر القمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسر؛ ليدل على مضي الشهور والأعوام».

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، «نباتًا»: مصدر مؤكد، أي: أنبتكم من الأرض نباتًا بخلق أبيكم آدم وإيجاده من التراب، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إذا متم ودفنتم فيها.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، «إخراجًا»: مفعول مطلق منصوب، أي: ويخرجكم منها

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨ / ٢٦٠.

إخراجًا، ببعثكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [٢٥] ﴿الاعراف: ٢٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سِطًا﴾، أي: مبسوطة مسطحة، ممهدة مستقرة مثبتة بالجبال الراسيات، صالحة مهياًة للانتفاع بها والاستقرار والحياة والبناء عليها، والحرث والزرع فيها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [١٧] ﴿وَلِلَّيْلِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [١٨] ﴿وَالجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [١٩] ﴿وَلِلَّيْلِ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [٢٠] [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، اللام: للتعليل، أي: جعلها لكم بساطًا؛ لأجل أن تسلكوا منها طرقًا واسعة مختلفة أين شئتم من أرجائها، ولولا أنه بسطها ما أمكنكم ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [١٥] [الملك: ١٥].

وهذا يوجب التأمل في كمال قدرته عز وجل في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة. ولهذا أنكر عليهم نوح عليه السلام في هذه الآيات لم لا يعظمون الله ويخافونه؟ مذكراً ومنبهاً لهم على عظيم قدرة الله عز وجل، وعظيم نعمه عليهم في خلقهم، وخلق السموات السبع الطباق، وإنارتهم بالقمر، وجعل الشمس سراجًا، وخلقهم من الأرض، وإعادتهم فيها، وإخراجهم منها، وبسط الأرض لهم؛ ليستطيعوا العيش والاستقرار عليها، ويسيروا في جوانبها، ويستخرجوا من خيراتها، مما يوجب عليهم أن يعظموه عز وجل، ويعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً.

### الفوائد والأحكام:

١- بذل نوح عليه السلام غاية جهده في دعوة قومه في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً وبشتى الأساليب؛ جهاراً وإعلاناً وإسراراً، وصبره على أذاهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ [٨] ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. فينبغي للدعاة أن يستلهموا الدروس من هذا، في تنويع أساليب الدعوة

والصبر على الأذى في سبيلها.

٢- شدة عناد قوم نوح عليه السلام وفرارهم منه ومن دعوته وإصرارهم على الباطل، واستكبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۖ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۗ إِذِ انبَسَتْ لَهُمْ جِبَابُهُمْ فِى آذَانِهِمْ فَاسْتَسْمَعُوا وَكَبَرُوا ۖ أَصْغَرُوا ۖ وَأَكْبَرُوا ۖ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ نهارًا وَنهارًا ۚ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبية نوح عليه السلام - وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ۙ﴾، وقوله: ﴿رَبِّكُمْ ۙ﴾.

٤- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله - عز وجل - لذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿تَغْفِرْ لَهُمْ ۙ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۙ﴾.

٥- وجوب استغفار الله تعالى والتوبة والإنابة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ سَمِيعًا غَنًّا ۙ﴾.

٦- أن الاستغفار والتوبة سبب لمغفرة الذنوب وسعة الرزق من المطر والمال والبنين والجنات والأنهار، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۙ﴾.

٧- لا حرج في أن يقصد المسلم في استغفاره ودعائه صلاح أمر دينه ودينه وأخرته.

٨- جمع نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب بالوعد لهم بالمغفرة في الآخرة، والترغيب لهم في الرزق في الدنيا بالمطر والأموال والبنين والبساتين والأنهار.

٩- إنكار نوح عليه السلام على قومه عدم تعظيمهم لله وعدم خوفهم منه، وقد خلقهم سبحانه وتعالى طورًا بعد طور وأحسن خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۙ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۙ﴾.

١٠- توجيه نوح - عليه السلام لقومه للنظر والتأمل في عظمة قدرة الله عز وجل في خلق سبع السموات الطباق وجعل القمر فيهن نورًا والشمس سراجًا، وفي إنباتهم من الأرض ثم إعادتهم فيها ثم بعثهم وإخراجهم منها، مما يوجب عليهم تعظيم الله - عز وجل وعبادته وحده لا شريك له. وكل إنسان مدعو إلى هذا التأمل؛ لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ زَكَّوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سِنِينَ طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

١١- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث حيث خلق السموات والشمس والقمر، وأنبت الخلائق من الأرض.

١٢- تذكير نوح عليه السلام لقومه بنعمة الله عليهم بجعل الأرض بساطاً مستوية ليسلكوا طرقها وفجاجها ويستخرجوا من خيراتها. وفي هذا نعمة علينا وعلى كل مخلوق يدب على وجه الأرض، فله الحمد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٨﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّرَزِيذُهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ۝٢١﴾ وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ۝٢٢﴾ وَقَالُوا لاَ نَنْزِرُ الْعَذْرَاءَ الْهَتَكَرُ وَلاَ نَنْزِرَنَّ وَدَا وَلاَ سَوَاعَا وَلاَ يَفُوتُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلاَ نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلَالًا ۝٢٤﴾ مِمَّا خَطَبَيْنَهُمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلاَ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيًّا رَّاءً ۝٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ رَبِّ اَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ نَبَارًا ۝٢٨﴾ .

دعا نوح عليه السلام قومه وأنذرهم، وشكا إلى الله ما لقي منهم مبيِّنًا أنه نوع لهم في أساليب الدعوة ورغبتهم ورهبهم، وخوفهم بالله، وبين لهم عظيم قدرته وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات والأرض.

ثم شكى إلى الله عز وجل ثانية تماديهم في العصيان واتباعهم من لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا الخسار، وما حصل منهم من المكر الكبار، وعبادة الأصنام، وإغراقهم في الضلال والخطايا، مما سبب إغراقهم وإدخالهم النار ثم دعا عليه السلام عليهم بالهلاك عن آخرهم، وسأل الله عز وجل المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات ودعا على الظالمين بالتبار والخسار.

قوله: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْنِي ﴾ شكى نوح عليه السلام إلى ربه ثانية ما لقي من قومه قائلًا ﴿ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْنِي ﴾، أي: خالفوني وكذبوني بعد الإنذار والإعذار بتنوع أساليب الدعوة لهم والترغيب والترهيب، وتخويفهم وتذكيرهم بعظمتك وقدرتك وعظيم نعمك عليهم.

﴿ وَأَتَّبَعُوا مَن لَّرَزِيذُهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وعاصم بفتح الواو واللام: ﴿ وَوَلَدُهُ ﴾، وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام: «وولده».

أي: واتبعوا وأطاعوا وقلدوا الملاء والأشراف الذين مُتَّعوا بالأموال والأولاد واغتروا بالدنيا وركنوا إليها وغفلوا عن أمر الله تعالى، فصارت أموالهم وأولادهم خسارة ونقصاناً عليهم واستدراجاً لهم، وسبباً لطغيانهم وضلالهم وبعدهم عن طريق الحق، ومن تبعهم فهو مثلهم في الخسار والبوار.

﴿وَمَكْرُؤٌ مَّكْرُكُوبٌ﴾، «مكرا»: مصدر، و«كبارا»: صفة له.

والمكر: هو الكيد بخفية في التمرد ومخالفة الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ الْآلِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

والمعنى: ومكروا مكراً كبيراً عظيماً بليغاً، فتمادوا في المخالفة والغبي والعصيان والتمرد والضلال.

﴿وَقَالُوا﴾، أي: قال بعضهم لبعض، أو قال لهم أصحاب الأموال والأولاد داعين إلى الشرك مزينينه لهم:

﴿لَا نَذْرُنَّ إِلَهًا كَمَا كَفَرْتُمْ﴾، أي: لا تتركنّ معبوداتكم عموماً وما عليه آباؤكم.

﴿وَلَا نَذْرُنَّ وَدًّا وَلَا سِوَاءَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، أي: ولا تتركنّ خصوصاً: ﴿وَدًّا وَلَا سِوَاءَ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

فنهوهم أولاً عن ترك عبادة آلهتهم عموماً، ثم نهوهم ثانياً عن ترك عبادة هذه الآلهة الخمسة خصوصاً؛ لأنها أعظم وأهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله.

قرأ نافع وأبو جعفر بضم الواو: «وَدًّا» وقرأ الباقر بفتحها: ﴿وَدًّا﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسخ العلم عبادت»<sup>(١)</sup>.

وعن محمد بن قيس قال: «إن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قومًا صالحين من بني

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ ٤٩٢٠.

آدم، وكان لهم، أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل».

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، أي: وقد أضلوا بدعوتهم إلى عبادة هذه الآلهة وعبادتهم إياها كثيرًا من الخلق، وأبعدوهم عن عبادة الله وحده، فضل عن الحق بسبب عبادتها خلق كثير، وهو أول شرك حصل في بني آدم واستمر وانتشر بعد ذلك.

ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه السلام قائلًا ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾<sup>(٣٥)</sup> رَبِّ إِنِّي أَخْلَعُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴿[إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ هذا دعاء منه عليه السلام على الظالمين من قومه، الذين ظلموا بعبادتهم غير الله وإشراكهم مع الله غيره.

وأظلم الظلم الشرك كما قال لقمان لابنه فيما حكاه الله عنه: ﴿يَبْنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١٣)</sup> [لقمان: ١٣].

والمعنى: ولا تزد الظالمين إلا بعدًا وتيهًا عن الحق، أي: زدهم بعدًا وتيهًا عن الحق. وذلك بسبب ظلمهم وشركهم، فإن المعصية تجر إلى المعصية بعدها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(٥)</sup> [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْعَدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ مَرَّةً وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(١٤)</sup> [المطففين: ١٤].

﴿مِمَّا حَطَبْتُمْ لَهُمْ أَعْرِفُوا فَمَا ذَخَرُوا نَارًا﴾ قرأ أبو عمرو: «مما خطاياهم» بالألف بغير همز،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣ / ٣٠٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٣٨ / ٥.

وقرأ الباقون: ﴿مَخَاطِبُهُمْ﴾ بالهمز والتاء.

أي: من كثرة ذنوبهم وكفرهم ومخالفتهم رسولهم، وبسبب ذلك أغرقوا بالطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِنَّاسٍ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].  
﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾، أي: فنقلوا من الغرق إلى الحرق، ومن عمق البحار إلى عذاب النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق، كما قال عز وجل عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾، أي: فلم يجدوا لهم أنصارًا وأعوانًا ينقذونهم من عذاب الله ويدفعونه عنهم، لا من العذاب الدنيوي، ولا من العذاب الأخروي.  
كما قال عز وجل: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [آل عمران: ٥٦].  
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، أي: لا تترك على الأرض من الكافرين أحدًا يسكن الدار ويدور ويتحرك، بل أهلكهم واستأصلهم عن آخرهم.  
وقد استجاب الله دعاءه، فأهلك بالغرق جميع من على وجه الأرض إلا من ركب معه في السفينة، حتى ولده لصلبه كان ضمن المغرقين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

وقد قيل: إن دعوته عليهم بعد ما أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ

ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم امرأة كلما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها

رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة»<sup>(١)</sup>.  
وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه فقال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].  
قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق قومه بتكذيبهم لما جاء به».

وهنا نجد الفرق بين موقف نوح عليه السلام حين عصاه قومه وخالفوه وآذوه، وبين موقف محمد ﷺ إذ أخذ يردد حين آذاه قومه قائلاً: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»<sup>(٣)</sup>.

ولما قال له ملك الجبال: دعني أطبق عليهم الأخشبين يعني جبلي مكة، قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»<sup>(٤)</sup>.  
وبهذا وغيره فاق ﷺ وساد جميع الرسل وكان له الحوض المورد والشفاعة الكبرى والمقام المحمود، حين يعتذر عن الشفاعة لجميع الأنبياء، من أولي العزم وغيرهم حتى إن نوحاً عليه السلام يعتذر بقوله «إني استعجلت فدعوت على قومي اذهبوا إلى غيري».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»<sup>(٥)</sup>.  
وليت من يعتدون في الدعاء وكذا من يدعون بما لم تجربهم سنن الله الكونية ونحو

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٣٧٦، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٢٦٤. «هذا حديث غريب ورجاله ثقات».

(٢) في «تفسيره» ٨ / ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ١٤٠٢٥ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٩٩.

ذلك من الأدعية التي لم ترد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، بل ولا عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، مما فيه مبالغة واعتداء في الدعاء أقول: ليتهم يلحظون هذا الأدب النبوي الكريم في الدعاء فإنه أحرى لقبول دعائهم.

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾، أي: إنك إن تركهم فلا تهلكهم يضلوا عبادك المؤمنين الموجود منهم ومن سيوجد، أي: إنهم خطر وضرر على المؤمنين في دينهم في الحال والاستقبال.

﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا﴾، أي: ولا يلدوا ولا ينسلوا إلا فاجرًا بعمله مرتكبًا للفجور والفواحش والذنوب ﴿كَفَّارًا﴾ بقلبه.

و«كفار» على وزن «فعال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: عظيم الكفر بربه وبنعمه، أي: إن بقاءهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي فاجرًا في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا».

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾.

دعا نوح عليه السلام على الكافرين من قومه بالهلاك ثم دعا بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات، وبالخسران على الظالمين.

قوله: ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾، أي: ولمن دخل مسجدي ومصلاي أو منزلي ﴿مُؤْمِنًا﴾، أي: حال كونه مؤمنًا، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي»<sup>(٢)</sup>.

وخص هؤلاء المذكورين؛ لتأكيد حقهم وتقدير برهم، ثم عمم الدعاء فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا يشمل

(١) في «تفسيره» ٢٦٤ / ٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب - من يؤمر أن يجالس ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد - ما جاء في صحبة المؤمن ٢٣٩٥.

الأحياء منهم والأموات.

﴿وَلَا نُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾، أي: إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا في الدنيا والآخرة.

### الفوائد والأحكام:

١- شكوى نوح عليه السلام حاله إلى ربه عز وجل لما عصاه قومه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّمُمْ عَصَوْنِي﴾ الآيات.

٢- أن شكوى الحال إنما تكون إلى الله- عز وجل- وحده، فهو الذي يسمع الشكوى، ويكشف الضر والبلوى.

٣- الحذر من فتنة المال والأولاد والاعتزاز بها، والحذر من تقليد واتباع من اغتروا بذلك فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَزِيذُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٤- عظم كفر قوم نوح وكبر مكرهم وشدة تعلقهم بمعبوداتهم الباطلة وإضلالهم بهذه المعبودات كثيرًا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿٢٣﴾.

٥- الحذر من الشرك وأسبابه فإن هذه الأوثان كانت في الأصل أسماء لرجال صالحين، صوروا للتأسي بهم في العبادة، ثم لما طال الزمن أوحى الشيطان إلى الناس فعبدوهم.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ﴾.

٧- جواز الدعاء على الظالمين والكافرين الضالين المضلين بزيادة الضلال والتهلك والخراب والهلاك؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا نُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، وقوله: ﴿رَبِّ لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَارًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا نُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾.

٨- إغراق قوم نوح عليه السلام، وإدخالهم النار بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وليس لهم من دون الله من أنصار؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

٩- الإشارة إلى أن النار موجودة الآن معدة لأهلها تعذب بها أرواحهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

١٠- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾.

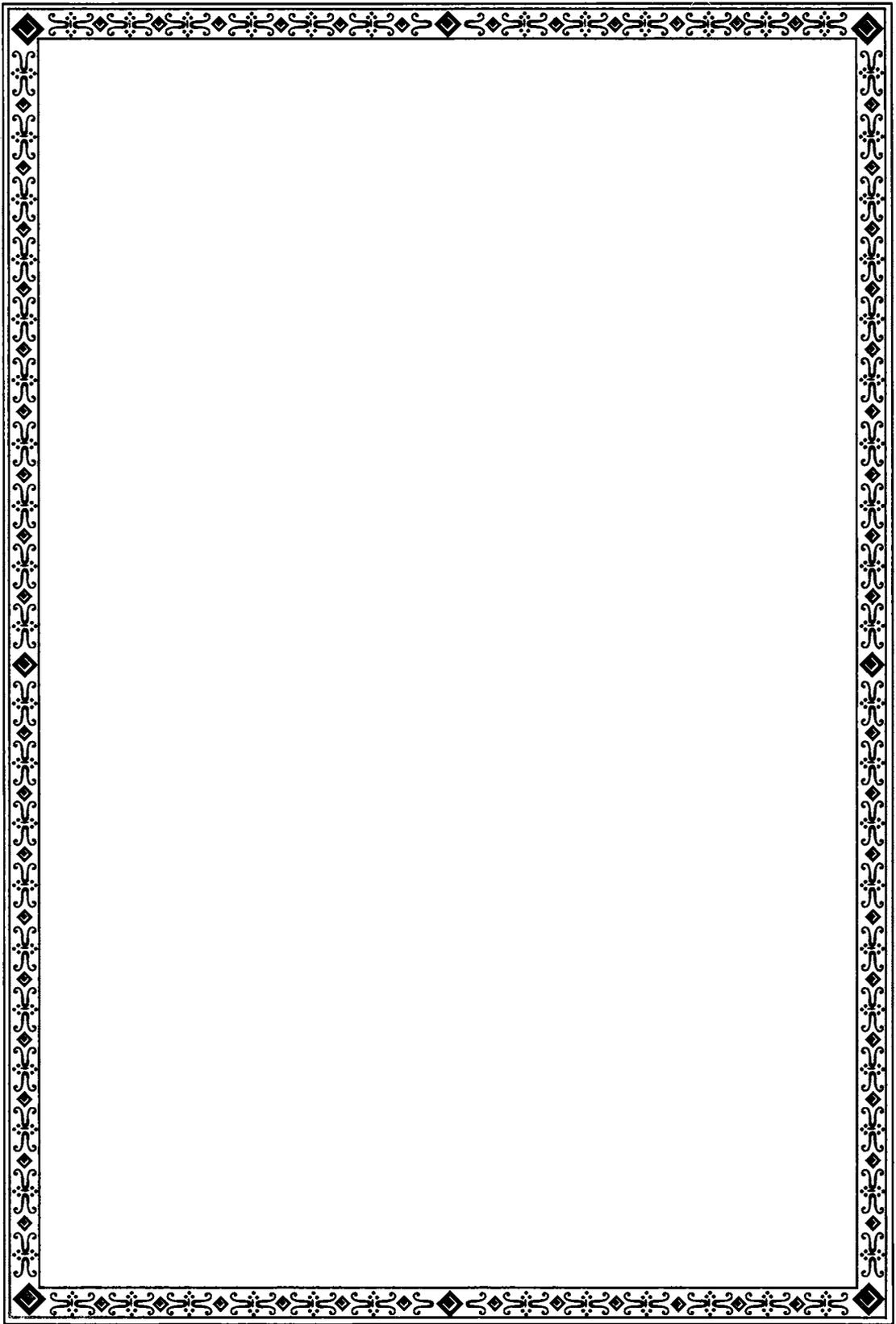
١١- يجب الحذر من دعاة الضلال من أهل الكفر والشرك ونحوهم.

١٢- دعاء نوح عليه السلام لوالديه ولن دخل بيته مؤمناً ولجميع المؤمنين والمؤمنات؛ لقوله: ﴿زَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

١٣- مشروعية الدعاء للوالدين وغيرهم من الأقارب المؤمنين، ولعامة المؤمنين والمؤمنات.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الجن»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الآية: ١]، ولما اشتملت عليه السورة من ثنائهم على القرآن، وإيمانهم به، وذكر بعض أحوالهم، وبرائتهم من الشرك، وغير ذلك. وتسمى: «سورة قل أوحى»، و«سورة قل أوحى إلي».

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر وحي الله عز وجل إليه ﷺ بأنه استمع إليه نفر من الجن، وإعجابهم بالقرآن، وأنه يهدي إلى الرشد، وإيمانهم به وبرائتهم من الإشراف بالله، وتمجيدهم لله تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وذكر ما كانوا عليه هم والإنس من الكذب على الله وإنكار البعث وغير ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

٢- حفظ السماء بعد نزول القرآن بالحرس والشهب من استراق السمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مُلْتَمَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

٣- تسليمهم لأمر الله تعالى، وبيان أن منهم الصالحون، ودون ذلك، واختلاف طرائقهم، وأن منهم المسلمون ومنهم القاسطون، واعترافهم بضعفهم وعجزهم أمام قدرة الله تعالى، وتأكيدهم بإيمانهم بربههم وعظيم رجائهم به، وخوفهم من وعيده: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

٤- أن النعمة قد تكون فتنة واستدراجًا: ﴿وَالْوَالِدُوا اسْتَقْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً

عَدَاً ﴿١٦﴾ لِنَفْسِنَاهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾.

٥- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الشرك: ﴿وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾.

٦- بيان أنه ﷺ لا يملك من الأمر شيئاً لا لنفسه، ولا لغيره، ولا يعلم الغيب، وليس إليه إلا تبليغ رسالة ربه، والإنذار والتهديد لمن يعصى الله ورسوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴿٢٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ﴿٢٤﴾.

٧- اختصاصه عز وجل بعلم الغيب، وأنه قد يطلع من ارتضاه من الرسل على شيء من ذلك لمصلحة الرسالة والدعوة: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٥﴾ إِلَّا مَنْ أَرْضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿٢٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿٢٧﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمِنَ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِيبًا بَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشْرَأُ رِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴿١٠﴾﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رأيهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا- والله- الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم. قالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن» (١).

وقد سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ذكر

(١) أخرجه البخاري في الأذان- الجهر بقراءة صلاة الفجر ٧٧٣، ومسلم في الصلاة- الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٤٩، والترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٣، وأحمد ٢٥٢/١، ٢٧٤.

حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قراءته ﷺ على الجن (١).

قوله: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد للناس ﴿أَوْحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: أوحى الله إليّ.

﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرَيْنِ لَإِجْنٍ﴾، أي: أنه استمع جماعة من الجن إلى قراءتي القرآن.

﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما سمعوه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، أي: سمعنا قرآنا عجيبًا بديعًا، بليغًا ليس من كلام الإنس والجن، يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواظمه ووعدته ووعيده وغير ذلك.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، أي: يدل إلى الرشd. و«الرشd» في الأصل؛ الاهداء إلى طرق الخير عامة، والمراد به في الآية: الاهداء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

كما قالوا فيما ذكر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحqاف: ٣٠]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولهذا وصف الله المؤمنين في سورة الحجرات بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. ﴿فَاتَّبَعْنَاهُ﴾، أي: صدقنا به، وانقدنا له واتبعناه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَتَقَوْمَنَا أَحْبَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامَنُوا بِهِ، يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)﴾ [الأحqاف: ٢٩-٣٢].

﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، أي: ولن نشرك بربنا أحدًا من الشركاء والمعبودات، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٥٠، والترمذي في الطهارة ٣٢٥٨، وأحمد ٤٣٦/١.

وفي قولهم: ﴿بَرِيئًا﴾ إقرار منهم بربوبيته لهم وأنه الخالق المالك المدبر لهم ويلزم من هذا أن يفرده بالعبادة وحده، فجمعوا بين الإيثار بالله وترك الشرك، بين الإيثار والتقوى، بين الإخلاص والمتابعة.

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بفتح الهمزة في قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى﴾، وكذا ما بعده إلى قوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ اثنتا عشرة همزة، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾. وقرأ الباقون بكسرها في الجميع (١).

أي: وأنه تعاضم وارتفع جلال ربنا وقدره وسلطانه وعظمته وغناه وآلؤه ونعمه على خلقه، وتعالى بذاته وصفاته وأسمائه فله علو الذات والصفات وعلو القدر وعلو القهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠، سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾، «ما» نافية، أي: ما جعل لنفسه صاحبة، والصاحبة: الزوجة. ﴿وَأَوْلَادًا﴾ الولد: جنس الأولاد من الذكور والإناث، أي: تعالى وتزهر سبحانه عن الصاحبة والولد؛ لأن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي كمال العظمة والغنى، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) [الإخلاص: ١-٤].

وفي هذا وما بعده ما يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله عز وجل، وعن فهم للإيمان، وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا، ومن الثواب العظيم في الآخرة وليس إيمان العادة والإلف والتقليد، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ السفيه: من لا يحسن التصرف. والسفه يكون في الدين، ويكون في المال، ويكون في الولاية.

والمراد به هنا السفه في الدين، كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى في وصف اليهود ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ هَؤُلَاءَ أَلَّا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ كَمَا كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤].

وأول من يدخل في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ إِبليس وأتباعه وأعوانه.

﴿شَطَطًا﴾، أي: قولاً جائراً عن الصواب، مفرطاً في الكذب، وباطلاً كبيراً، وزوراً عظيماً، من الإشراف بالله، ونسبة الصاحبة والولد له.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قرأ يعقوب بفتح القاف والواو مشددة: ﴿نَقُولَ﴾ وقرأ الباقون بضم القاف وإسكان الواو مخففة ﴿نَقُولَ﴾.

أي: حسبنا أنهم لا يقدمون ولا يتجرؤون على الكذب على الله بالإشراف به ونسبة الولد والصاحبة إليه اغتراراً منا بما عليه السادة والرؤساء من الإنس والجن، وإحساناً منا الظن بهم، فلما سمعنا القرآن وأمانا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك القول، وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل. وبدؤوا بذكر الإنس؛ لأنهم أول من خوطب بالقرآن، وأول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن.

وأيضاً لثلاثا يعتقد إخوانهم من الجن أنهم ظاهرُوا الإنس عليهم.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾، أي: يستعيذون بهم ويستنجدون تعظيماً لهم وخوفاً منهم، حيث كان الواحد منهم إذا نزل وادياً قال «أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه»<sup>(١)</sup>.

﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: فراد الجن الإنس خوفاً وذلاً ورعباً وإرهاباً وفرعاً، وزاد

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص ٢١١.

الإنس الجن طغيانًا وإثمًا فازدادت جرأة الجن وتعاضمهم عليهم وتخويفهم لهم، لما رأوا استعاضتهم بهم وخوفهم منهم؛ ليبقى الإنس على تعظيمهم والخوف منهم والتعوذ بهم. ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: وأنهم، أي الجن ظنوا وحسبوا كما ظننتم وحسبتم أيها الإنس ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: أن لن يبعث الله بعد هذه المدة أحدًا من الرسل، أي: أن لن يبعث الله رسولًا. ويحتمل أن المعنى: وأنهم ظنوا كما ظن الإنس أن لا بعث ولا حساب فأقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، أي: التمسنا السماء وطلبنا خبرها، كما كنا نفعل من ذي قبل. ﴿فَوَجَدْنَاهَا مِلْئًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾، أي: فوجدناها قد ملئت بالحرس الشديد، والشهب، التي يرمى بها من استرق السمع، فلم نستطع الوصول إليها، ولا الدنو منها، وذلك حفظًا لها وحفظًا لكتابه العزيز القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن حَظَفَ لُحْطَفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠].

﴿وَأَنَا كُنَّا﴾، أي: وأنا كنا قبل ذلك، ﴿فَقَعْدُ مِنْهَا﴾، أي: من السماء. ﴿مَقْعَدٌ لِلَّسْمَعِ﴾، أي: للاستماع، أي لاستراق السمع بحيث يستمعون الكلمة الواحدة من خبر السماء، فيلقونها على ألسنة الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة. ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، أي: فمن يرم ويحاول الاستماع لخبر السماء الآن بعد نزول القرآن يجد له شهابًا من النجم مرصداً معداً له لا يخطئه بل يصيبه فيحرقه ويهلكه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حقًا وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا

بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي﴾، أي: وأنا لا ندري ولا نعلم ما هذا الأمر الذي حدث وحفظت  
 من أجله السماء بالحرس الشديد والشهب.  
 ﴿أَشْرَأْرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الهزمة: للاستفهام، أي: أهو شر أريد بالذين في الأرض  
 وساكنيها.

﴿أَمَّ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾، «أم»: عاطفة، ويجوز كونها بمعنى: «بل» والجملة بعدها  
 استثنائية، أي: بل أراد بهم ربهم.  
 ﴿رَشْدًا﴾، أي: خيرًا وصلحًا ونجاحًا وفلاحًا فعرفوا بفطنتهم أن هذا ينذر  
 بحدوث أمر عظيم، وحدث كبير خيرًا كان أو شرًا.  
 وفي ضمن ذلك إشارة إلى أن هذا ابتلاء فيه الرشاد والخير لأقوام، وفيه الشر  
 والهلاك لأقوام.

وقد أسندوا الشر إلى ما لم يسم فاعله، وأسندوا إرادة الرشد إلى الله عز وجل تأدبًا  
 في العبارة، كما في قول المؤمنين في الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ  
 أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فنسبوا  
 الإنعام إليه، والغضب لما لم يسم فاعله، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ  
 مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ  
 الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»<sup>(٢)</sup>.  
 ويؤخذ من الآيات عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه إليه فمن  
 أجل ذلك حرس السماء بالحرس الشديد والشهب.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٤، وأحمد ٢٧٤ / ١ وقال الترمذي «حسن صحيح».  
 (٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢ من  
 حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

## الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ ووحى الله - عز وجل - إليه، وأن رسالته عامة للثقلين الإنس والجن، وإثبات وجود الجن، وإعجابهم بالقرآن، وإقرارهم بهديته، وإيمانهم به وبراءتهم من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝

٢- إثبات أنه ﷺ لا يعلم الغيب، فلا علم له إلا بما أوحاه الله إليه.

٣- في أمره ﷺ بالإخبار باستماع نفر من الجن إلى قراءته وإعجابهم بالقرآن وهديته- وتأثرهم وإيمانهم به إثارة لمشاعر الإنس ألا يكون الجن خيرًا منهم في هذا وحث لهم على المنافسة.

٤- عظمة القرآن وهديته إلى الرشد والحق، وإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لهذا تأثر الجن وأعجبوا به لما سمعوه وآمنوا به وأعلنوا تعظيم الله عز وجل والبراءة من الشرك ومن الكذب على الله.

٥- أن الإيمان ينافي الشرك ولا يجتمع معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا

أَحَدًا ۝٢﴾

٦- تعظيم الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وإثبات ربوبيته - عز وجل - الخاصة- للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا ۝

٧- اجترأ سفهاء الجن والإنس على نسبة الصاحبة والولد لله والإشراك به والكذب عليه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

٨- التحذير من الاستعاذة بغير الله من الجن أو غيرهم وأن في الاستعاذة بغير الله زيادة ذل وخوف للمستعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝

٩- تقرير وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والرد على منكربه من الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝

١٠- حراسة السماء وحفظها بالشهب بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم حفظاً من الله عز وجل لكتابه العظيم ولنبيه ﷺ وتعظيماً لمبعثه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ حَرِّ سَائِدٍ إِذْ نُنزِّلُهَا﴾.

١١- إقرار الجن واعترافهم بأنهم لا يعلمون الغيب، ولا يدرون ما الحكمة فيما حصل من حراسة السماء، وفي هذا أبلغ الرد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والمنجمين والدجالين الذين يعتمدون على الجن فيما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعِ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

١٢- أدب الجن في كلامهم وخطابهم إذ نسبوا الشر لما لم يسم فاعله، ونسبوا الرشد إلى الرب سبحانه فقالوا: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠) وهكذا ينبغي التأدب في مثل هذا كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك».

١٣- إثبات ربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ۗ ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْجِزَهُ هَرَبًا ۗ ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَا بِهِ ۗ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۗ ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ ۗ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۗ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۗ ﴿١٥﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُنَّ مَاءً غَدَقًا ۗ ﴿١٦﴾ لِنُقِنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۗ ﴿١٧﴾ ۝

قوله: ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ﴾ الصالحون: جمع صالح، والصالح من صلح عمله بأن جمع بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: ومنا من هم دون الصالحين، أي: مقتصدون، وقيل: ومنا غير ذلك، أي: فساق وفجار وكفار.

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ بيان لقوله: ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾. والطرائق: جمع طريقة، والقدد: جمع قدة، وهي الضروب والأجناس المختلفة، أي: كنا أصنافًا مختلفة، ومللاً ونحلاً شتى، ذوي مذاهب متفرقة، وآراء وأهواء متباينة. ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا، ولن نستطيع الخروج من حكمه وقدرته.

﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾، أي: ولن نعجزه هارين، ولو أمعنا في الهرب فهو علينا قادر وحكمه فينا نافذ سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾، أي: وأنا لما سمعنا الهدى، أي: القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، كما في قولهم قبل هذا: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الآية: ٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ءَأَمْنَا بِهِ﴾، أي: صدقنا به بقلوبنا وألستنا، وانقدنا بجوارحنا، وهم بهذا يفتخرون، وحق لهم ذلك، فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾، أي: فمن يؤمن بربوبيته - عز وجل - وألوهيته وأسمائه

وصفاته، وينقد لشرعه.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص، والرهق: الزيادة، أي: فلا يخاف نقصاً في حسناته وثوابه، ولا زيادة في سيئاته وعقابه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وإذا سلم المؤمن من البخس والرهق، ومن الظلم والمهضم حصل له الخير.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ ٦ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ [الزلزلة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا بَرِّضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَأَنَا مَنَا الْمُسْلِمُونَ﴾، أي: المتقادون بجوارحهم لأمر الله وشرعه الخاضعون له بالطاعة.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. ﴿وَمَنَا الْقَسِطُونَ﴾، «القاسطون» جمع «قاسط»، من «قسط» الثلاثي بمعنى جار وظلم، أي: ومنا الجائرون العادلون عن طريق الحق، وعن الصراط المستقيم.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: فالذي أسلم، أو فالذين أسلموا ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أشاروا إليهم بإشارة الجمع باعتبار معنى «من»، وأشاروا إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لشأنهم.

﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، أي: طلبوا وتوخوا وأصابوا طريق الرشاد والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وبحثوا عنه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿وَأَمَّا الْقَسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ١٥، أي: للنار وقوداً تسعر وتوقد بهم جزاء ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦].

وسميت النار بـ«جهنم»؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم، فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].»

﴿وَأَلَّوْاْ اسْتَقَمُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾، أي: وأن لو استمروا على الطريق والنهج والمسلوك المذكور نهج القاسطين ومسلوكهم مسلك الظلم والجور.

﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾، أي: لأسقيناهم ماءً كثيرًا، يكون سببًا لسعة رزقهم ورغداهم.

﴿لَيُنْفِنَهُمْ فِيهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نخبرهم ونبليهم في سعة الرزق استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دُسُواْ مَا دُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ويؤيد هذا المعنى من السياق قبله قوله: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُواْ أَلْجِهَتُمْ حَطَابًا﴾ فأقرب ما تفسر به الطريقة مسلك هؤلاء، وقوله بعده ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

ويحتمل أن معنى الآية ﴿وَأَلَّوْاْ اسْتَقَمُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المثلى طريقة الإسلام الملة الحنيفية وثبتوا واستمروا عليها.

﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ كثيرًا غزيرًا يكون سببًا لسعة رزقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥ / ٤٥.

وَالْأَرْضِ ﴿ [الأعراف: ٩٦].

﴿لَتَفْنَنَّهُمْ فِيهِ﴾، أي: لنختبرهم ونبليهم فيما أعطيناهم أيشكرون فيستمرون على الاستقامة والطاعة أم تبطرحهم النعمة فيرتدون ويكفرون.  
ويقوي هذا القول حمل الاستقامة على المعنى الظاهر والمتبادر منها، وهو الاستقامة على الإسلام وطاعة الله تعالى.

لكن يضعفه قوله: ﴿لَتَفْنَنَّهُمْ فِيهِ﴾؛ لأن الله عز وجل وعد المؤمنين المستقيمين على أمره وطاعته بتوسيع الرزق لا ليفتنهم، كما في الآيتين المذكورتين بل إكراماً لهم.  
وكما هو مقتضى دلالة عموم نصوص الكتاب والسنة، وإن كان كثرة المال والرزق قد تكون في الأصل فتنة، لكن لغير من وفقهم الله للاستقامة على دينه وطاعته، فإن الله يدرأ عنهم أسباب الفتنة ويحفظهم كما حفظوه، ما لم يفتروا بأنفسهم وهذا ينافي استقامتهم على طاعة الله تعالى.

فالسباق السابق واللاحق وقوله: ﴿لَتَفْنَنَّهُمْ فِيهِ﴾ كل هذا يقوي الاحتمال الأول؛ ولهذا قال ابن كثير<sup>(١)</sup> بعد ذكره: «وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لَتَفْنَنَّهُمْ فِيهِ﴾».

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ﴾، أي: ومن يعرض بقلبه ويتول ببدنه.

﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾، أي: عما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْأَلُكَ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «نسلكه» بالنون.

ومعنى «يسلكه»: يدخله، كما قال تعالى: ﴿مَا سَأَلَكَ فِي سَفَرٍ﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما أدخلك فيها، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْأَلُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢].

ومعنى الآية: يدخله عذاباً شاقاً يعلوه ويغلبه، كما قال تعالى: ﴿سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا﴾

(١) في «تفسيره» ٨ / ٢٧٠.

[المدرثر: ١٧]، أي: سأكلفه مشقة من العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

### الفوائد والأحكام:

- ١- أن الجن مذاهب مختلفة وملل شتى، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم المسلمون، ومنهم القاسطون الجائرون الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الضَّالِّحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾.
- ٢- إثبات أن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبهذا أيقن هؤلاء النفر من الجن بتوفيق الله لهم لما سمعوا القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾.
- ٣- اعتزاز هؤلاء النفر من الجن بإيمانهم بالقرآن وما فيه من الهدى لما سمعوه وفرحهم واستبشارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾.
- ٤- ما أسعد من آمن بربه واستقام على شرعه يوفي أجره كاملاً من غير نقص من حسناته ولا زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.
- ٥- الوعد والبخشارة والتهنئة لمن أسلموا بإصابتهم طريق الرشيد والخير والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾.
- ٦- الوعيد للقاسطين الظالمين بكونهم لجهنم وقوداً وحطباً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.
- ٧- أن الاستقامة على دين الله وطاعته سبب لنزول الأمطار والبركات والخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً عَذْقًا﴾.
- ٨- أن إنزال المطر وإغداق النعم قد يكون ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً عَذْقًا ﴿١١﴾ لَتَفِينَنَّهُمْ فِيهِ﴾.
- ٩- الوعيد والتهديد بالعذاب الشديد لمن يعرض عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

- ١٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لعباده المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾، ولقوله: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾.
- ١١- الوعيد والتهديد لمن يعرض عن ذكر ربه بإدخاله في العذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.
- ١٢- أن الجن مكلفون مجزيون بأعمالهم كالإنس.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾.

قوله: ﴿وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ الواو: عاطفة. و«المساجد» مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: لعبادته خاصة.

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: فلا تدعوا مع الله أحدا من الخلق، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، أي: اعبدوه في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحداً. وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبيعتهم.

وقيل المراد بالمساجد أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين والركبتين وأطراف القدمين»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَنَّهُ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة: «وإنه»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّهُ﴾.

أي: وأنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ويدعو إلى الله.

وأطلق عليه وصف العبودية، فقال «عبد الله» في مقام الدعاء والعبادة وهو من أعظم المقامات ولم يقل: وأنه لما قام رسول الله أو نبيه يدعوه؛ لأن العبودية لله أشرف

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨١٢، ومسلم في الصلاة- أعضاء السجود ٤٩٠، وأبو داود في الصلاة ٨٨٩، والنسائي في التطبيق ١٠٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٣.

الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم.  
ولهذا وصفه بها في مقام الإسراء والقرب منه عز وجل، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى  
بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل برسوله ولا بنبيه.

﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللبّد: الشيء الكثير المترام والمثلّبد بعضه على بعض، أي:  
كاد الإنس والجن يتلبّدون على النبي ﷺ، أي: يجتمعون على عداوته، ورد دعوته.  
ويقويه قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «وهو الأظهر لقوله بعده ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، أي:  
قال<sup>(٢)</sup> لهم الرسول حين آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه؛ ليبتلوا ما جاء به من  
الحق، واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له،  
وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾».

ويحتمل أن يكون معنى ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كادوا يترامون عليه ﷺ  
حرصاً على اتباعه واستماع دعائه ﷺ وقراءته.

وقيل: إن الجن لما رأوا النبي ﷺ يصلي بأصحابه وائتمامهم به في ركوعه وسجوده  
وقيامه وجلسه عجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ  
كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كاد أصحابه من شدة متابعتهم له في صلاته أن يتلبّدوا عليه.  
﴿قُلْ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة: ﴿قُلْ﴾ بغير ألف على الأمر، وقرأ الباقون:  
«قال» بالألف على الخبر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبّدوا عليك مبيئاً لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما  
تدعو إليه:

﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾، «إنما» أداة حصر، ﴿أَدْعُوا رَبِّي﴾، أي: أعبده وأسأله وأدعو إليه

وحده.

(١) في «تفسيره» ٢٧٢/٨.

(٢) على قراءة الجمهور.

﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾، أي: بربي ﴿أَحَدًا﴾ من الشركاء، أو من الخلق، وهو تأكيد لعبادته له وحده.

وهذا إعلان منه ﷺ لمن اجتمعوا على عداوته أن هذا منهجه وطريقه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإعلان منه لمن استمعوا إليه من الجن ولغيرهم أن هذا سبيله وطريق دعوته.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، أي: إني عبد ليس لي من التصرف شيء، فلا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا غواية ولا رشدًا، بل مُلك ذلك وأمره كله لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدْتُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾، أي: لن يمنعني من الله أحد إن أنا عصيته، أي: فلا يستطيع أحد نصرتي ودفع عذاب الله عني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرُّوهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، أي: ولن أجد من دون الله عز وجل ملجأً أركن إليه ولا نصيرًا؛ لأنه لا ملجأ ولا منجأ منه تعالى إلا إليه، كما قال نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق وسيد ولد آدم لا يملك ضرًا ولا رشدًا، ولا مجير له من الله، ولا ملجأ له من دون الله ولا نصير غيره من الخلق من باب أولى وأحرى، وفي هذا رد على من يغفلون به ﷺ وعلى من يغفلون بالأولياء وأصحاب القبور ويطلبون منهم المدد وقضاء الحاجات.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، والمعنى: إلا إبلاغ أمر الله ورسالاته إلى الناس، أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته إليهم. وهذا مستثنى من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، أي: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، أي: إلا تبليغ أمر الله ورسالاته فأنا أملكه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا﴾ [٢٢]، أي: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، فذلك وسيلتي إلى الله عز وجل للنجاة والخلاص من عذابه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِبَلَاغٍ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فالإيمان والعمل الصالح هما سبب النجاة والخلاص بتوفيق الله عز وجل وهما الوسيلة التي يتوسل بها العبد إلى ربه عز وجل ومن هذا توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فنأى بي طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، وكرهت أن أوقظهما فلبثت والقده في يدي والصبية يتضاغون تحت قدمي، حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لكنهم لا

يستطيعون الخروج...» الحديث<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب.

﴿فَإِنَّ لَهُ﴾، أي: فإن الله أعد له مجازاة له، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا مفرد له عنها ولا محيد، وسميت نار جهنم؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدتها حرها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، «خالدين»: حال، وجمعت باعتبار معنى «من». وحيث رتب الله على المعصية هنا الخلود في جهنم فإن المراد بالمعصية الكفر المخرج من الملة؛ لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الكفر.

وهذه الآية هي الآية الثالثة في القرآن التي فيها التصريح بأبدية خلود أهل النار فيها، مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْرِفَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الآيتان: ١٦٨، ١٦٩].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥].

وقد اختلف أهل العلم في تأييد النار وتأييد المعذبين فيها الذين ماتوا على الكفر على قولين الصحيح منهما كما هو صريح هذه الآيات أن النار لا تفتنى ولا يفنى عذابها وهو قول جمهور أهل العلم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: حتى إذا رأى من عصوا الله ورسوله من الجن والإنس الذي يوعدون يوم القيامة من الأهوال والعذاب بالنار، وشاهدوه عيانًا وجزموا أنه واقع بهم.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلُّ عَدَدًا﴾، أي: فسيعلمون حقيقة العلم يومئذ من الذي هو أضعف ناصرًا، وأقل عددًا، أم المؤمنون، وأنهم هم الأضعف

(١) أخرجه البخاري في الإجماع ٢٢٧٢، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٣.

ناصرًا، فلا أحد في ذلك ينصرهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم، وأنهم هم الأقلون عددًا بالنسبة لأولياء الله المفلحين وجنده الأكثرين، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَازِيًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

فحيث كانوا في الدنيا ينتقصون المؤمنين بضعف أنصارهم وقلة عددهم، ويفتخرون عليهم بقوة أنصارهم وكثرة عددهم جازاهم الله بنقيض ذلك فأبان لهم ضعفهم وضعف أنصارهم وقلة عددهم.

### الفوائد والأحكام:

١- وجوب إخلاص العبادة لله- عز وجل- بلا شريك، وأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله عز وجل وحده، فلا يدعى معه فيها غيره، ولا يمنع أحد من ذكر الله عز وجل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْمَسَجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

٢- تشريفه ﷺ بالعبودية الخاصة لله- عز وجل، وهي أشرف ما يوصف به البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾.

٣- اجتماع الكفرة والمكذبين من الجن والإنس على عداوة الرسول ﷺ والكيده ولدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾.

٤- إعلان الرسول ﷺ إخلاص العبادة لربه عز وجل والبراءة من الشرك، ومن الحول والقوة، وأنه لا يملك للخلق ضرًا ولا نفعًا وأنه لا يجير له من الله إن خالف أمره ولا ملجأ له من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [٢٠] ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [٢١] ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ مَجِيرٍ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

٥- إثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة- له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبِّي﴾.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾.

٧- الوعيد الشديد لمن يعصي الله ورسوله، ويكفر بالخلود في نار جهنم خلودًا أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾.

٨- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب المخلدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفرة والمكذبون يفتخرون في الدنيا بقوتهم وقوة أنصارهم وكثرة عددهم فيوم القيامة حين يرون العذاب يعلمون أنهم هم الأضعفون الأقلون، فلا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله عز وجل وفي هذا أبلغ الوعيد والتهديد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۗ﴾ (٥٥) عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّبِّهِ فإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٦٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْتَلَوْنَا رِيبَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٦٨﴾ .

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ﴾، «إن» نافية، أي: ما أدري.

﴿أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أقرب الذي توعدون، أو أقرب وعدكم.

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾، «أم»: حرف عطف. «أمدًا»، أي: مدة وغاية طويلة. والمعنى: قل يا محمد للناس: لا أدري أقرب الذي توعدون من البعث وقيام الساعة والحساب ومجازاتكم على أعمالكم، أم يجعل له ربي مدة وغاية طويلة.

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۗ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۗ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ۗ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعَتِهَا إِلَّا هُوَ ۗ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۗ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۗ ﴿٤٢﴾ فِيمَ آتَتْ مِن ذِكْرِنَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَبَهَا ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإيوان والإسلام والإحسان وعن الساعة وأماراتها وفيها قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «وأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث أنس - رضي الله عنه: «أن أعرابياً نادى النبي ﷺ بصوت جهوري، فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟»، قال: أما إنني لم أعد لها كثرة صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، فقال: «فأنت مع من

(١) أخرجه البخاري في الإيوان ٥٠، ومسلم في الإيوان ٩، والنسائي في الإيوان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث<sup>(١)</sup>.  
وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»<sup>(٢)</sup>.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرها نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: «خمسة سنة»<sup>(٣)</sup>.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾، أي: عالم ما غاب عن الحواس من المخلوقات والأمور والأحوال السابقة واللاحقة وغير ذلك، لا يعلم ذلك غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧].

وعلمه عز وجل بالشهادة من باب أولى.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾، أي: فلا يُطلع على غيبه أحدا من خلقه.  
وفي هذا رد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والرمالين والمنجمين وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].  
قال لبيد<sup>(٤)</sup>:

لعمرك ما تدري الضوارب ولا زاجرات الطير ما الله صانع

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٣٩، والترمذي في الزهد ٢٣٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٥٠.

(٤) انظر: «ديوانه» ص ٥٧.

وقال الآخر:

أيا علما النجوم أحلتمونا      على علم أرق من الهباء  
كنوز الأرض لم تصلوا إليها      فكيف وصلتُم علم السماء<sup>(١)</sup>

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾، «إلا» للاستثناء، و«من» موصولة.

والمراد بالرسول في قوله: ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾: جنس الرسل، فيعم الرسل من الملائكة والبشر.

والمعنى: إلا الذين رضي عنهم من رسله وارتضاهم لرسالاته، فإنه عز وجل يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم. ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِمَّنْ خَلْفَهُ رِصْدًا﴾، أي: يجعل من أمامه ومن ورائه حرساً وحفظة من الملائكة يحفظون ما أوحاه الله إليه من الشياطين حتى يبلغه على حقيقته من غير زيادة ولا نقصان، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله».

﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَنَا رَبِّهِمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: أنه عز وجل يحفظ رسله بالملائكة ليتمكنوا من تبليغ رسالاته عز وجل للناس ليظهر في علمه عز وجل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ

(١) البيتان يسبان لعلي رضي الله عنه، وليس في ديوانه. انظر: «غذاء الألباب» ١/١٩١، ونسب لابن

عبد البر. انظر: «الوافي بالوفيات» ١٠٠/٢٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/٢٧٣.

الْمُنْفِقِينَ ﴿[العنكبوت: ١١].

فعلى هذا يكون المعنى: ليظهر في علمه عز وجل أن الرسل بلغوا رسالات ربهم بما أطلعهم عليه بحكمته ووحيه من بعض المغيبات؛ تأييداً لهم مع أنه عز وجل قدر الأشياء وعلمها قبل كونها؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يعود إلى الرسول أي ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن الله رسالاته، وأن جبريل والملائكة حفظوها وبلغوها إليه ﷺ. وقيل ليعلم الناس أن الرسل عليهم السلام بلغوا عن الله رسالاته، ويدل على هذا قراءة يعقوب: «لِيَعْلَمَ» بضم الياء، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: أحاط بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، فقدره وعلم به علماً تاماً قبل كونه وبعده.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، أي: علم عدد الأشياء كلها وضبطها ضبطاً كاملاً، فلم يخف عليه منها شيء.

#### الفوائد والأحكام:

١- أمر الله لرسوله ﷺ برد علم الساعة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال إليه عز وجل؛ لأنه ﷺ لا علم له بها لا هو ولا غيره من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِن أَدْرَيْتَ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾.

٢- إثبات ربوبيته - عز وجل - الخاصة له ﷺ - تشریفاً وتكريماً له؛ لقوله تعالى:

﴿رَبِّي﴾.

٣- لا يعلم الغيب إلا الله وحده، فلا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وفي هذا رد على السحرة والكهنة والرمالين والمنجمين وأدعياء علم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾.

٤- أن الله عز وجل قد يطلع بعض من ارتضى من رسله على شيء من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾.

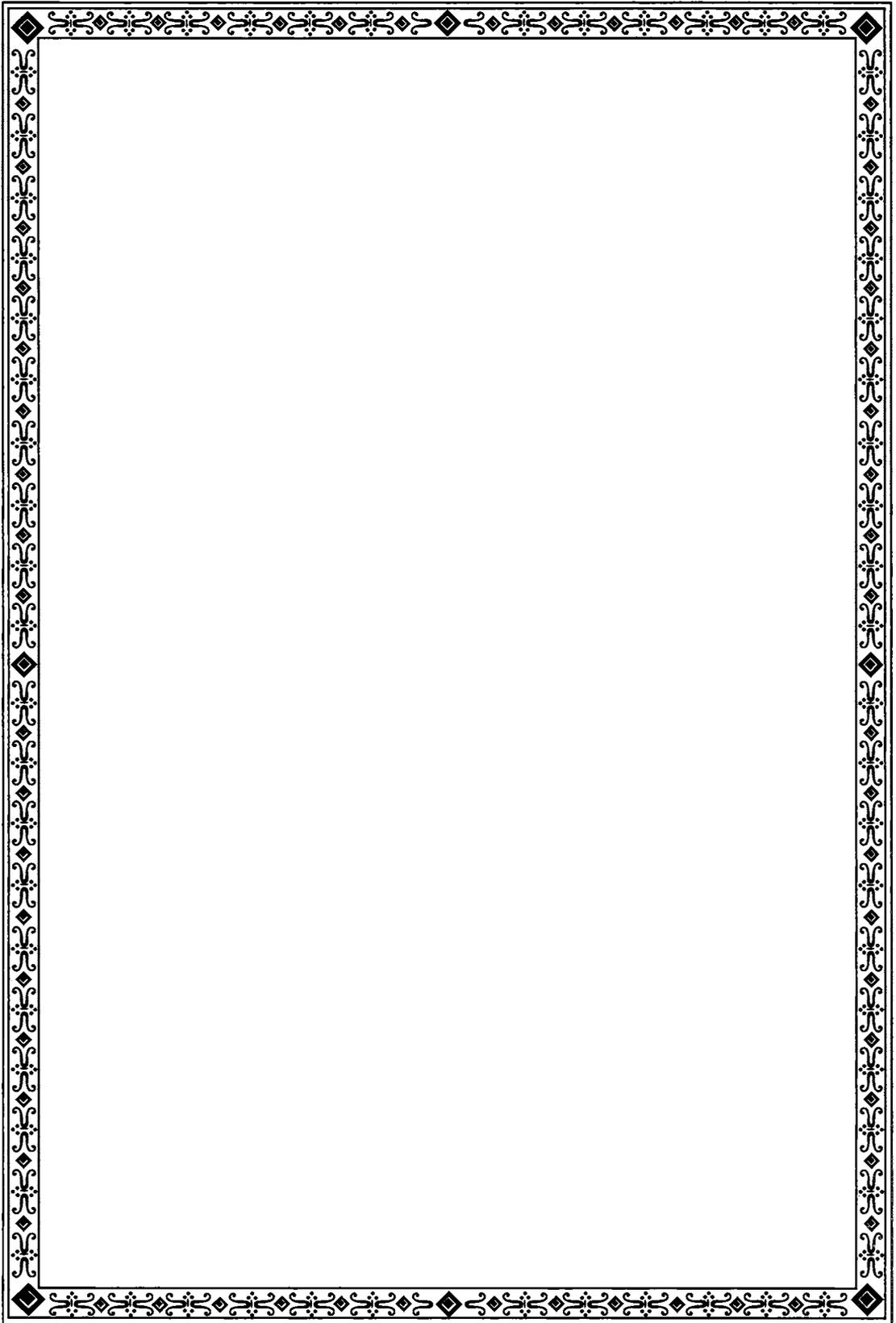
٥- حفظ الله عز وجل لرسله ولوحيه إليهم؛ ليبلغوه كما أوحاه الله إليهم، وليظهر في علمه عز وجل أنهم أبلغوا رسالاته إلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴿٢٧﴾.

٦- إحاطة علم الله عز وجل بالخلق، وما عندهم سواء أسروه أو أعلنوه، تقديرًا له وعلماً به قبل كونه وبعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾.

٧- إحصاء الله عز وجل كل شيء عدداً وضبطاً تاماً كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُزْمَلِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المزمل»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ ①﴾.

## ب- مكان نزولها:

مكية، وقيل: آخرها مدني.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بثناء النبي ﷺ بوصف «المزمل» وأمره بقيام الليل تهيأً واستعداداً لما سيلقى عليه من القرآن العظيم، وأمره بذكر الله والتبتل إليه، والتوكل عليه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ ①﴾ قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ②﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا نَقِيلاً ⑤﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑥﴾.

٢- أمره ﷺ بالصبر على قول المشركين وتركهم، وتوعده عز وجل لهم وتهديدهم: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ⑪﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ⑫﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ⑭﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑮﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ⑯﴾ فَكَيْفَ تَنْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑰﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ⑱﴾ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ⑲﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ⑲﴾.

٣- نسخ وجوب قيام الليل والتخفيف على الأمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَافِيَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَبَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ⑳﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ ①﴾ قُرْ أَيْلًا لِأَقِيلًا ②﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَيْلَ الْقُرْءَانِ  
تَرْبِيًا ④﴾ إِنْ أَسْتَلْفِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا ⑤﴾ إِنْ نَأَيْتَهُ أَيْلٌ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥﴾ إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ  
سَبْحًا طَوِيلًا ⑦﴾ وَأَذْكَرَ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ  
وَكِيلًا ⑨﴾.

عن جابر رضي الله عنه قال: «اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسمًا تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ﴾» (١).

قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنيبه، و«المزمل» صفة ل«أي»، أو بدل.  
و«المزمل» أصلها: «المتزمل» ثم أدغمت التاء في الزاي؛ لقرابها منها، أي: المتلفف بثيابه المتدثر بها، وذلك حصل منه ﷺ أول ما ابتدأه الله عز وجل بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام، فجاء ﷺ إلى أهله ترعد فرائصه، وهو يقول: «زملوني زملوني» ولهذا ناداه الله عز وجل في مطلع هذه السورة بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ﴾.

﴿قُرْ أَيْلًا﴾، أي: قم للصلاة فيه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا قليلًا منه للنوم والراحة.  
﴿نِصْفَهُ﴾: بدل كل من «الليل» والضمير يعود إلى الليل، أي: نصف الليل.  
﴿أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، «أو»: عاطفة في الموضعين، تفيد التخيير، والضمير في قوله «منه» يعود إلى «نصفه»، أي: أو انقص من نصفه قليلًا في حدود ما بين النصف إلى الثلث.

(١) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٧٥ / ٨ وقال البزار: معلى بن عبد الرحمن - يعني أحد رواة الحديث - قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، فاحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها.

﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ﴾ الضمير في «عليه» يعود أيضًا إلى «نصفه»، أي: أو زد على نصفه قليلاً، في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

يدل على هذا قوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: ٢٠].

فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل إلا قليلاً، ثم بين مقدار وقت القيام من الليل وحدده بنصف الليل، أو أنقص منه قليلاً، أو أزيد عليه قليلاً، فخيره بين حالات ثلاث: قيام نصف الليل كاملاً، أو النقصان منه قليلاً، أو الزيادة عليه قليلاً.

وهذا فيه تيسير عليه ﷺ؛ ولهذا قال عز وجل في آخر السورة: ﴿عَلِمَ أَنَّ لِنُحُصُوهٖ﴾. وفي الحديث: «استقيموا ولن تحصوا»<sup>(١)</sup>.

وقد أوجب الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين في مطلع هذه السورة قيام الليل، وبين مقداره، كما دل على وجوبه عليه ﷺ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الآية: ٧٩]، ثم نسخ الله عز وجل وجوب ذلك في آخر السورة.

عن سعد بن هشام قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنا عليها، فقلت: أنبئني بقيام رسول الله ﷺ فقالت: «ألست تقرأ هذه السورة ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: إن الله تعالى افترض القيام في أول ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾ على النبي ﷺ وعلى أصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، فأمسك الله تعالى خاتمها اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً، بعد أن كان فريضة»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، والدارمي في الطهارة ٦٥٥ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها- جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في الصلاة- صلاة

الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٥٤ / ٦.

سنة» (١).

﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾، أي: واقرأ القرآن بتمهل وترسل، وتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه، وهكذا كان يقرأ ﷺ.

عن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتها، حتى تكون أطول من أطول منها» (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مداً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد «بسم الله»، ويمد بـ«الرحمن»، ويمد بـ«الرحيم» (٣).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④﴾» (٤).

وأمره ﷺ بترتيل القرآن أمر له ولأمته، وهكذا جاءت الأحاديث في استحباب الترتيل، والأمر بتحسين الصوت بالقرآن والتغني به وفضل ذلك.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا أصواتكم بالقرآن» (٥).

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- أبواب قيام الليل- باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه ١٣٠٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/٣٥٩، ٣٦٢، والبيهقي في سننه في الصلاة- قيام الليل ٢/٥٠٠، والحاكم في تفسير سورة المزمل ٢/٥٠٥. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٣٣، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٥٨، والترمذي في الصلاة ٣٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- مد القراءة ٥٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٦٥، والنسائي في الافتتاح ١٠١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي في القراءات- ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ ٢٩٢٧، وأحمد ٦/٣٠٢، والبخاري في «معالم التنزيل» ٤/٤٠٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الوتر- استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٨، والنسائي في الافتتاح- باب تزين القرآن بالصوت ١٠١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة- باب في حسن الصوت بالقرآن ١٣٤٢، وأحمد ٤/٢٨٣، ٢٨٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغن بالقرآن»<sup>(٢)</sup>.  
وأعجبه ﷺ صوت أبي موسى رضي الله عنه في قراءته القرآن، وامتدحه فقال:  
«لقد أوتيت زممارًا من مزامير آل داود». فقال أبو موسى رضي الله عنه: «لو كنت علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتنق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»<sup>(٤)</sup>.  
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تنثروه نثر الدقل»<sup>(٥)</sup>، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»<sup>(٦)</sup>.

وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأت المُفَصَّل الليلة في ركعة فقال: هذا كهذ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المُفَصَّل، سورتين في كل ركعة»<sup>(٧)</sup>.  
والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ ٧٥٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين- استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الوتر- استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٤، وأحمد ١٩٢/٢.

(٥) الدقل: رديء التمر ويابس. انظر «النهاية» مادة «دقل».

(٦) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/٤٠٧.

(٧) أخرجه البخاري في الأذان- الجمع بين السورتين في ركعة ٧٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٥، والترمذي في الجمعة ٦٠٢.

وهو الأهم؛ ولهذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

وليس من الترتيل المأمور به الاهتمام باللفظ وتحسين الصوت به دون التدبر لمعاني القرآن وأحكامه - كما هو حال كثير ممن يقرؤون القرآن - فذلك لا يجدي شيئاً وقد قال ﷺ «يقرأ القرآن أناس من أمتي لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله<sup>(٢)</sup>: «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالسوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه. وكذلك شغل النطق بـ (أنذرتهم)، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء وضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان، وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويل القرآن على قول من قلّد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره».

﴿إِنَّا سُنَلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلاً﴾، أي: سنلقي عليك بإيجائنا إليك إما بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإما وحياً منه عز وجل، أو بتكليمه من وراء حجاب كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ [الشورى: ٥١].

﴿قَوْلًا تَقِيلاً﴾ هو الوحي إليه بالقرآن الكريم، عظيم المعاني جليل الأوصاف. وهو ثقيل أشد ما يكون نزوله على النبي ﷺ؛ لعظمته فعن زيد بن ثابت رضي الله

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ - من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/٥.

عنه قال: «فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فنقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُري عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾» (١).  
وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرفاً» (٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاحاً، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض» (٣).  
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجراها» (٤) (٥).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿ثَقِيلًا﴾، أي: ثقيلاً العمل به على المكلفين، واختار الطبري أنه ثقيل من الوجهِين (٦).  
لكن ينبغي أن يعلم أن العمل بالقرآن خفيف على من وفقه الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل وضع بيعة النبي ﷺ وبها أوحى إليه من القرآن والسنة الآصار والأغلال عن هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣، وأخرجه مسلم مختصراً في الفضائل ٢٣٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٢٢٢.

(٤) الجران: باطن العنق، والمعنى: أنها تثبت في مكانها، ولا تستطيع الحركة ولا السير.

(٥) أخرجه أحمد ٢/١١٨.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/٣٦٦.

التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَيْهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بل إن الموفق حقاً يجد في تطبيق أحكام القرآن والسنة الراحة واللذة والسرور والطمأنينة وقوة المعنوية والنشاط؛ ولهذا قال ﷺ لبلال: «أرحنا يا بلال بالصلاة»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، أي: القيام والعبادة فيه، في جميع أوقاته وساعاته وأنائه، أي: الليل كله، وبخاصة ما كان منه بعد النوم والراحة واستعادة الجسم والفكر نشاطه وحيويته، وتطلق أيضاً ناشئة الليل على الفعل الذي ينشأ فيه، أي: على القيام نفسه؛ لأنه ينشأ في الليل.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر «وطأً» بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها، وقرأ الباقون: (وَوَطْأً) بفتح الواو وإسكان الطاء من غير مد. أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: إن قيام الليل والصلاة والقراءة فيه أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: يوافق فيها القلب اللسان، بحيث يتدبر القارئ ما يقرأ، وهو المقصود الأهم من القراءة.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾، أي: أقوم قولاً، وأصوب وأثبت قراءة.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش».

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، أي: فراغاً طويلاً وتقلباً وتصرفاً في قضاء حوائجك وذلك كافٍ، فتفرغ في الليل للقيام والصلاة.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٨٦، وأحمد ٣٧١/٥ - عن عبدالله بن محمد بن الحنفية عن صهر لهم من الأنصار.

وأخرجه أحمد أيضاً ٣٦٤/٥ - عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

(٢) في «تفسيره» ٢٧٨/٨.

﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ بأنواع الذكر بالقلب واللسان، وبالعبادات القولية والفعلية، البدنية والمالية وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، أي: انقطع إليه انقطاعاً وأنب إليه وتعلق به بقلبك وأخلص له العمل، وتفرغ لعبادته، إذا انتهيت من قضاء حوائجك وأشغالك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ويؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ أن التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل وإلى عبادته إنما يكون بعد قضاء الإنسان الحوائج والمشاكل، وإعطاء الجسم الراحة الكافية، لا كما أراد الذين نهاهم النبي ﷺ عن التبتل، لأنهم أرادوا الانقطاع للعبادة وتحريم ما أحل الله لهم، والمشقة على أنفسهم، وترك مشاغلهم وحوائجهم.

﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «رَبُّ» بكسر الباء، وقرأ الباقون برفعها: ﴿رَبُّ﴾.

أي: رب مشرق الشمس والكواكب ومغربها؛ خالقه ومالكة ومدبره والمتصرف فيه. والمشرق والمغرب: اسم جنس يشمل المشارق والمغرب كلها.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، أي: فاجعله وكيلاً تتوكل وتعتمد عليه؛ وتفوض إليه جميع أمور دينك ودنياك مع تمام الثقة به سبحانه وتعالى.

وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الأمر بعبادته والتوكل عليه؛ لأنه لا يستقيم أحدهما بدون الآخر، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

### الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾.

٢- وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وعلى أمته وهذا في أول الإسلام؛ لقوله

تعالى: ﴿قُرْآنُ اللَّيْلِ لَا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ﴾.

- ٣- مشروعية ترتيل القرآن الكريم وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾؛ ولهذا فالسنة ألا يختم القرآن في أقل من سبع، أو ثلاث (١).
- ٤- أن القرآن الكريم ثقيل على النبي ﷺ حال نزوله، وهو أيضًا ثقيل في أحكامه إلا على من وفقه الله وخففها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.
- ٥- أن ساعات الليل هي أشد صفاء للذهن وحضورًا للقلب يواطئ فيها القلب اللسان، ويجمع فيها القارئ بين القراءة والتدبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.
- ٦- نعمة الله عز وجل على الخلق في خلق الليل والنهار، وجعل النهار وقتًا لطلب الرزق وقضاء الحاجات وجعل الليل وقتًا للراحة والنوم وقيام ما تيسر منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾.
- ٧- في مراعاة سنن الله الكونية وجعل النهار وقتًا لطلب الرزق والعمل، والليل للنوم والراحة وقيام ما تيسر - انتظام أمور الحياة الدينية والدنيوية وصلاحها وفي عكس ذلك قلب للموازين واضطراب أمور الحياة وفسادها، كما هو حال الكثيرين اليوم.
- ٨- الأمر بذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر القولية والفعلية، والانقطاع إليه عز وجل بالعبادة بعد الفراغ من المشاغل والحوائج التي لا بد منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَنَبَّلْ إِلَيْهِ تَتَبِيلًا﴾.
- ٩- إثبات عظمة الله عز وجل، وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ، وربوبيته العامة للمشارك والمغارب وغير ذلك، وانفراده عز وجل بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.
- ١٠- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل والاعتماد عليه وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

\* \* \*

(١) سبق تخريج الأحاديث في هذا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهَلُمَزَّ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَنْفِقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل، وترتيل القرآن وتدبره، وذكر الله عز وجل والانقطاع إليه بالعبادة والتوكل عليه، مما يعطيه الزاد الروحي والمعنوي على تحمل أعباء الرسالة، وما يلاقه في سبيلها، ثم أمره بعد ذلك بالصبر على أذى المكذبين وهجرهم، وتوعدهم عز وجل بالعذاب.

قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: اصبر على جميع الذي يقولون، مما يخالف ما جئت به ويؤذيك؛ من الإشارك مع الله غيره ونحو ذلك، ومن رميك بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والافتراء والكذب ونحو ذلك. وقد تكون «ما» مصدرية، أي: اصبر على قولهم.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، أي: واتركهم تركًا حسنًا لا جزع فيه، ولا قلق، ولا أذى. فالهجر: الترك، والجميل: الحسن الذي لا أذى فيه، كما أن الصبر الجميل: الذي لا شكوى فيه لغير الله ولا جزع ولا قلق. والصفح الجميل: الذي لا عتاب فيه، والسراح الجميل: الذي لا مغاضبة فيه ولا أذى ولا عتاب.

قال الطبري<sup>(١)</sup>: «والهجر الجميل هو الهجر في ذات الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].»

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: ودعني واتركني والمكذبين، فأنا أتولى عقابهم وعذابهم،

(١) في «جامع البيان» ٢٣ / ٣٨٠.

ولا تشغل نفسك بهم، وهذا وعيد شديد، وتهديد أكيد للمكذبين للرسول ﷺ.  
 ﴿أُولَى النِّعْمَةِ﴾: أرباب وأصحاب التنعم والترف وغضارة العيش، وأصحاب  
 الأموال والغنى الذين أطعتهم النعمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ  
 اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَهْلَهْمُ قَلِيلًا﴾، أي: أمهلهم وأنظرهم قليلاً من الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ  
 الْكَافِرِينَ أَهْمَهُمْ رُؤْيَا﴾ ﴿١٧﴾ [الطارق: ١٧].

فالله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ  
 حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَدَرَبِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ  
 إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ  
 غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَدَرَبِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النِّعْمَةِ  
 وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ﴿١٢﴾﴾ الآية، قالت: لم يكن إلا يسيراً حتى كانت  
 وقعة بدر»<sup>(١)</sup>.

ويؤخذ من الآية: التحذير من الانشغال بالنعمة والأموال، وأنها قد تحمل الإنسان  
 على البطر والأشر والكبر ورد الحق والصد عن سبيل الله، كما قال نوح عليه السلام  
 ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِن تَرْتِيذِي مَا لَهُمْ وِلْدَانٌ إِلَّا خُسَارَاءُ ﴿١١﴾﴾ [نوح: ٢١]، وقال تعالى:  
 ﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢].  
 وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»<sup>(٢)</sup>.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾، أي: إن عندنا جاهزاً معداً ﴿أَنْكَالًا﴾: قيوداً شديدة.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٣٨١.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله  
 عنه.

﴿وَجَحِيمًا﴾، أي: ونارًا مستعرة ملتهبة مضطربة حامية شديدة الحر، بعيدة القعر.  
﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، أي: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ، ولا يدخل، ولا يخرج لما فيه  
من الشوك، ولمرارته، وبشاعته، وكراهة طعمه، وبتن ريجه، وخبثه.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا، موجعًا، حسيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.  
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾، «يوم» ظرف للوعيد الذي تُوعدوا به، أي: يكون ذلك  
النكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾، أي:  
يوم وحين تهتز الأرض والجبال وتضطرب وتزلزل، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ  
زُلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة:  
٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَنَجْدَةً﴾ ﴿١١﴾ [الحاقة: ١٤].

﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب، ﴿كُتَيْبًا مَهِيلاً﴾، أي: تحولت وصارت  
كثبانًا وأكوامًا من الرمل.

﴿مَهِيلاً﴾ رخوًا لينًا ينشر بعضه على بعض، بعد أن كانت حجارة صلبة صماء ثابتة.  
فالأرض والجبال على عظمتها في ذلك اليوم يعترها من أمر الله ما يعترها، فتبدل  
وتتغير، وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحَيِّ الذي لا يموت  
سبحانه، فليعتبر أولو الألباب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ الخطاب لأهل مكة وغيرهم من الأمة امتنانًا عليهم  
والمراد بالرسول محمد ﷺ.

﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، أي: شاهدًا عليكم بأعمالكم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا  
جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ،  
قلت: اقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟!»، قال إني أحب أن أسمعه من غيري، قال:  
فقرأت من أول سورة النساء حتى وصلت إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ  
بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك، فنظرت إليه، فإذا عيناه

تذرفان» (١).

﴿مَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى بن عمران عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام، وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى، وهو أشد الفراعنة كفرًا.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾، «ال» في «الرسول» للعهد الذكري، أي: الرسول المذكور أنفًا الذي أرسل إلى فرعون، وهو موسى عليه السلام.

و«ال» تأتي للعهد الذكري، كما في هذه الآية، وتأتي للعهد الذهني، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وتأتي للعهد الحضورى، كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

أي: خالف فرعون موسى عليه السلام فيما جاء به من عند الله من وجوب عبادة الله وحده، بل ادعى الألوهية والربوبية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، أي: فأخذناه أخذًا شديدًا بليغًا ثقيلًا، وعاقبناه عقابًا أليماً، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وفي ضمن هذا الخبر من الله عز وجل تحذير للمشركين من أهل مكة وغيرهم ممن كذب محمدًا ﷺ وهو أفضل الرسل أن يحل بهم ما حل بفرعون من الأخذ الشديد والنكال العظيم، حين كذب موسى عليه السلام، بل بعذاب أشد من ذلك كيف؟ وقد كذبوا أفضل الرسل وسيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ الاستفهام فيه معنى التعجب، و«يومًا» مفعول لـ «تتقون»، أي: فكيف تجعلون لكم وقاية إن كفرتم من عذاب يوم

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٨٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٠، وأبو داود في العلم ٣٦٦٨، والترمذي في التفسير ٣٠٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٤.

يجعل الولدان الصغار شيبًا، يعني يوم القيامة.

وقيل: «يومًا» معمول لـ «كفرتم»، أي: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، أي: كذبتم به، وأنكرتم البعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفيه «الإيمان: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» (١).

ونكر «يومًا»: للتعظيم والتفخيم؛ لشدة أهواله، أي: يومًا عظيمًا ثقيلًا، هوله شديد، وشره مستطير، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى في مدح الرجال المسيحين بالغدو والآصال ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٧]، وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ١٠].

وقال تعالى في وصف المكذبين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ۝﴾ [الإنسان: ٢٧].

ومعنى قوله: ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾، أي: يشيب من شدة أهواله الولدان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾، قال: «ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: من كم يارب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وينجو واحد» فاشتد ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله ﷺ، ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم:

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في سننه - باب القدر ٤٦٩٥، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في الإيمان ٦٤.

«إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم»<sup>(١)</sup>.

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾، أي: السماء منشق بسبب شدة أهوال ذلك اليوم، أو السماء منشق في ذلك اليوم؛ لشدة أهواله.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمِئِذٍ وَهِيَ كَالْحَاقَّةِ ﴿١٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، أي: كان وعد هذا اليوم واقعًا متحققًا لا محالة ولا بد، ويمكن أن يعود الضمير إلى الله عز وجل، وهو وإن لم يذكر قريبًا إلا أنه معلوم، والمعنى عليه صحيح، أي: كان وعد الله بمجيء يوم القيامة واقعًا لا محالة.

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾، أي: إن هذه السورة وهذه الآيات في ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها ﴿تَذَكُّرٌ﴾، أي: تذكير وموعظة وعبرة لمن يتذكر ويتعظ ويعتبر وينزجر، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَكُرْ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا موصلًا إليه باتباع رسوله ﷺ، ووحيه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وذلك ممن شاء الله هدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٢٨٣/٨، وقال ابن كثير: «حديث غريب».

## الفوائد والأحكام:

- ١- تقوية الله عز وجل لقلب النبي ﷺ بأمره بالصبر على أذى المشركين وهجرهم هجرًا جميلًا، لا جزع فيه ولا قلق، وترك أمرهم إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ۝﴾.
- ٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين للرسول ﷺ وبيان عظم ما أعد لهم من الأنكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم، في يوم شديدة أهواله، فيه ترجف الأرض والجبال وتحول الجبال كثيبًا مهيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرَجُّفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ۝١٤﴾.
- ٣- أن التنعم والترف من أسباب الطغيان ورد الحق وتكذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ۝﴾.
- ٤- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ۝﴾.
- ٥- إثبات القيامة وأهوالها والحساب والجزاء.
- ٦- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ، وشهادته على أمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ ۝﴾.
- ٧- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون ومعصية فرعون ومكابرتة وأخذه أخذًا شديدًا وإغراقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيًا ۝١٦﴾.
- ٨- تخويف الكافرين والمكذبين وتحذيرهم من عذاب يوم عظيم يشيب من هوله الولدان وتنفطر به السماء وهو آت لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝﴾.
- ٩- إثبات أن هذه السورة وهذه الآيات تذكير وموعظة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۝﴾.

١٠- إثبات المشيئة للإنسان فإن شاء سلك الطريق المؤدي إلى ربه طريق السعادة والنجاة، وإن شاء سلك غيره من السبل المؤدية إلى الهلاك وفي هذا الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

١١- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا نَبَّسَرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقِينُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقرءوا مَا نَبَّسَرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في مطلع السورة بقيام الليل وأوجه عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ وجوب ذلك تخفيفاً عليه ﷺ وعلى أمته في هذه الآية، بعد أن قام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً كاملاً، كما جاء ذلك في حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما (١). وهذه الواقعة تعد من أصح وقائع النسخ في القرآن الكريم عند جمهور المفسرين والأصوليين والفقهاء (٢).

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ بفتح الفاء والشاء وضم الهاءين. وقرأ الباقون بكسرهما: «ونصفه»، «وثلثه». ومعنى ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾، أي: أقل من ثلثي الليل، وهو ما بين النصف والثلثين ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾، أي: وتقوم تارة نصف الليل، وتارة ثلثه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾، أي: ويقوم هذا القيام جماعة من الذين معك من المؤمنين. وهذه التقديرات الثلاثة هي التي أمر الله عز وجل بها نبيه ﷺ في قوله في مطلع السورة ﴿نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ، أي: نصف الليل، أو انقص منه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلث، أو زد على النصف في حدود ما بين النصف إلى الثلثين. قال ابن كثير (٣) في كلامه على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾

(١) سبق تخريجها في الكلام على مطلع السورة.

(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٢٩.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٨٤.

وَتِلْكَ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴿١٠﴾، «أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدر على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم».

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أي: والله يقدر طول الليل والنهار وقصرهما واعتدالهما، فتارة يطول الليل وينقص النهار، وتارة يطول النهار وينقص الليل، وتارة يعتدلان.

﴿عَلِمَ أَنَّ لِنِ تَحْصُوهُ﴾ الضمير في «تحصوه» يعود إلى ما أمر الله به من قيام الليل إلا قليلاً نصفه أو النقص منه قليلاً أو الزيادة عليه.

والمعنى: علم الله عز وجل أن لن تستطيعوا إحصاء وضبط هذا الوقت والمواظبة عليه من غير زيادة ولا نقصان، نظراً لاختلاف تقدير الليل والنهار، أي: لن تستطيعوا تقديره، ولن تطبقوا قيامه على التمام.

﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة في اللغة: الرجوع، أي: فرجع بكم وخفف عنكم بنسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه.

﴿فَأَقْرَهُوْا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، أي: فقوموا ما تيسر من قيام الليل، واتركوا ما تعسر وشق عليكم، وعبر عن قيام الليل وصلاة ما تيسر منه بقراءة ما تيسر من القرآن؛ لأن قراءة القرآن من أعظم أركان الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ولا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها.

ولهذا ليس في قوله: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ دليل لمن قال إنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة؛ لأن المقصود بذلك ما هو أعم من القرآن وهو قيام الليل والصلاة فيه، مع الأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب قراءة الفاتحة.

عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ؟» قالت: أأنت تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهمت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: أأنت تقرأ هذه السورة: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى

انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً، من بعد فريضة، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو، ثم يسلم تسليماً يسمعون، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان»<sup>(١)</sup>.

وعنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج كالمغضب، وكان بهم رحيمًا، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال: «أيها الناس اكلّفوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة»<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَرَأَيْتَ لَإِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> نَصْفَهُ، وَأَوْتَقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا<sup>(٣)</sup> أَوْزَدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ الْفُرْعَانَ تَرْتِيلًا<sup>(٤)</sup> ﴿ فأمروا الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً، فشق ذلك

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٤٠/٦، ٦١ والطبري في «جامع البيان» ٣٦٠-٣٥٩/٢٣.

(٣) سبق تخريجه.

على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ ۖ  
وَأَخْرُونَ يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَسِرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾  
فوسع الله - والله الحمد - ولم يضيق<sup>(١)</sup>.

فنسخ الله عز وجل بهذه الآية وجوب قيام الليل الذي أوجبه على المؤمنين في أول هذه  
السورة، وصار قيام الليل - والله الحمد - سنة وليس بواجب كما في حديث طلحة بن عبيد  
الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي  
صوته ولا يفهم ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس  
صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليّ غيرها؟، قال: «لا، إلا أن تطوع» الحديث<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ ۖ وَأَخْرُونَ يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ  
وَأَخْرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَهُوْا مَا يَنْتَسِرُ مِنْهُ﴾.

في هذا بيان الحكمة والعلة والسبب في نسخ حكم قيام الليل من الوجوب إلى  
الاستحباب وهو هذه الأعداء.

وفي هذا دليل على أن أحكام الله عز وجل معللة وحكم عظيمة.

قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ﴾، أي: علم الله عز وجل أنه سيكون منكم أيها  
المؤمنون من اعتلت صحتهم بسبب المرض فيشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثه أو  
ثلثيه، فليصلوا ما تيسر لهم وسهل عليهم، قيامًا أو قعودًا أو على جنوبهم إن شق عليهم  
القيام، ولهم أجر القائم، فإن لم يستطيعوا فلهم أجر ما كانوا يعملون في الصحة.

﴿وَأَخْرُونَ يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يسافرون في الأرض والضرب في الأرض هو  
السير والسفر فيها.

﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، أي: يطلبون من رزق الله الواسع؛ ليستغنوا عن الخلق  
فخفف الله عنهم، وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٣٦٠-٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الإيذان - الزكاة في الإسلام ٤٦، ومسلم في الإيذان - بيان الصلوات التي هي أحد  
أركان الإسلام ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨.

الرزق، والاستغناء عن الخلق.

﴿وَأَخْرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: يقاتلون الكفار؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»<sup>(١)</sup>.

أي: فيمنعهم ويشغلهم ذلك عن قيام الليل.

ولم يكن القتال شرع بعد؛ لأن السورة كلها مكية، والقتال إنما شرع بالمدينة، وهذا من أعظم دلائل وأعلام نبوته ﷺ.

فهذه الأعدار الثلاثة: المرض، والسفر لطلب الرزق، والقتال في سبيل الله من أسباب تخفيف حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب، بل إن الله عز وجل خفف عنهم في الصلاة المفروضة فأباح لهم القصر والجمع، بل أباح للمريض والخائف أن يصلي حسب حاله.

﴿فَأَقْرءُوا مَا تَسْرَمْتُهُ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَسْرَمْتَهُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ وكرر- والله أعلم- للامتنان على المؤمنين بالتخفيف عنهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب قيام قليل من الليل، وبخاصة على أهل القرآن لقوله: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَسْرَمْتَهُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ وقوله: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَسْرَمْتَهُ﴾.

وعن علي رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاتكم المكتوبة، ولكن سنّ رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يوتر فليس منا»<sup>(٣)</sup>.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوتر حق، فمن لم

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة استحباب الوتر ١٤١٦، والنسائي في قيام الليل- الأمر بالوتر ١٦٧٥، والترمذي في الصلاة ٤٥٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة- ما جاء في الوتر ١١٦٩، وأحمد ١١٠/١، ١٤٣، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة- باب فيمن لم يوتر ١٤١٩، وأحمد ٣٥٧/٥.

يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا»<sup>(١)</sup>.  
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»<sup>(٢)</sup>.

ف قيل: معناه نام عن المكتوبة، وقيل: نام عن قيام الليل.  
والراجح الذي عليه جمهور أهل العلم أن قيام الليل مستحب وليس بواجب لقوله ﷺ للرجل الذي سأله لما بين له وجوب الصلوات الخمس، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ لما خفف الله عن المؤمنين ونسخ وجوب قيام الليل إلى الاستحباب أتبع ذلك بالأمر بإقامة الصلوات المفروضة الواجبة وإيتاء الزكاة المفروضة، وفي هذا إشارة ودلالة على وجوب الاهتمام والعناية بالفرائض والواجبات وأنها لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: أقيموها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسنتها. والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مخصوصة مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس المفروضة، أي: وأقيموا الصلاة الواجبة.  
﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، أي: أعطوا الزكاة في أموالكم لمستحقيها، والزكاة في اللغة: النماء والزيادة وفي الشرع: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص، وهو الحول.

وسميت الزكاة بهذا الاسم، لأنها تزكي المال وتزيده نماء، وتزكي نفس صاحب المال من البخل والشح، وتزكي نفس الفقير المعطى منها، فيسلم من الحقد والضعينة على

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٠، ومسلم في صلاة المساوين وقصرها ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٣) سبق تخريجه.

الأغنياء، ويسلم من البحث عن المال بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك. ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأني فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»<sup>(١)</sup>.

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد نسخ وجوب قيام الليل إشارة وتنبية إلى تعظيم أمر الواجبات وبالأخص الصلاة والزكاة؛ ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ما افترضته عليه»<sup>(٢)</sup>.

ولما سأل الأعرابي النبي ﷺ، وقال: دلي على عمل يدخلني الجنة قال له ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» فقال هل عليّ غيرها، قال: «لا إلا أن تطوع»، قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: «أفلمح إن صدق» وفي رواية «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»<sup>(٣)</sup>.

وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الزكاة فرضت بمكة لكن مقادير أنصبتها والمخرج منها لم يبين إلا بالمدينة.

والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً في القرآن الكريم، وهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وهي عمود الإسلام،

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة

٤٥٨ - من حديث طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه.

والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أمر الله عز وجل بقيام الليل استحباباً، وبإقامة الصلاة وجوباً، وأتبع ذلك بالأمر بإعطاء الزكاة وجوباً، والقرض الحسن والصدقة استحباباً فجمع في هذه الآيات بين الأمر بالصلاة الواجبة والمستحبة، وبين الصدقة الواجبة والمستحبة وهذا يقوي ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن قيام الليل مستحب وليس بواجب.

وقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾، أي: تصدقوا وأنفقوا في سبيله يثبكم على ذلك. والقرض في الأصل: ما يعطيه الإنسان؛ ليقضاه من غير زيادة ولا مراوحة. والله عز وجل غني عن خلقه ليس بحاجة أن يقرضوه بل كل ما هم فيه من النعم منه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وإنما سمى الله عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله قرضاً ترغيباً في ذلك وبيئناً لتكفله عز وجل التام بجزء ذلك والإثابة عليه كما يلتزم المقرض برد القرض، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

بل إنه عز وجل يضاعف ثواب ذلك أضعافاً كثيرة، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ احتساباً لله عز وجل، وبطيب نفس، وعدم من على المقرض، ولا أذى له، ومن كسب حلال.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

بعدما أمر الله عز وجل بقيام الليل، وبإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والقرض الحسن رغب وحث على فعل الخير عموماً، وهذه الجملة معترضة بين قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ الواو: اعتراضية، و«ما»: شرطية، أي: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ بين يديكم وأمامكم ليوم القيامة.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، أي: من صدقات ونفقات في سبيل الله ومن الطاعات وأنواع البر.  
 ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ﴾، أي: تجدوا ثوابه عند الله مدخرًا لكم، وخيرًا مما قدمتموه  
 في الدنيا، وخيرًا مما أبقيتموه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب  
 إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم  
 ومال وارثه ما أخر»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، أي: وأعظم ثوابًا مما قدمتموه، حيث يجازي سبحانه وتعالى الحسنة  
 بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة

قال ﷺ: «موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»<sup>(٢)</sup>.  
 قال السعدي<sup>(٣)</sup> رحمه الله بعد كلامه على هذه الآية: «فواأسفاه على أوقات مضت  
 في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات، وواغوثة من  
 قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها، فلك  
 اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك».

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه واستغفره،  
 قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].  
 وهو عز وجل ذو رحمة واسعة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين قال تعالى:  
 ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾  
 [الأنعام: ١٤٧].

وفي الأمر بالاستغفار بعد الأمر بقيام الليل والصلاة والزكاة والقرض الحسن  
 والحث على فعل الخير عمومًا إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد فلا يسلم من تقصير،

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥٠٦/٧-٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٦، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد  
 ١٦٥١ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٢، والنسائي في الوصايا ٣٦١٢.

ولا يخلو عمله من نقص، وقد شرع الاستغفار في نهاية الأعمال كالصلاة والحج وغيرهما، وفي نهاية الأعمار؛ لأنه يُرَقَع ما حصل فيها من نقص لا يكاد يسلم منه أحد.

### الفوائد والأحكام:

١- تشریف الله - عز وجل - لنبيه ﷺ بخطابه، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾

٢- نسخ وجوب قيام الليل؛ لعلمه عز وجل وهو الذي يقدر الليل والنهار أن الرسول ﷺ ومن معه وأمته لا يستطيعون القيام به ولا إحصاءه وضبطه كما فرضه الله في أول السورة لاختلاف تقدير الليل والنهار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُهَا وَأُنثَىٰ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحُصُّوهٗ فَنَابَ عَلَيْكُمُ﴾.

٣- مراعاة التشريع الإسلامي أحوال المكلفين وقدراتهم.

٤- حكمة الله تعالى في تقدير الليل والنهار.

٥- استحباب قيام ما تيسر من الليل وقراءة ما تيسر من القرآن فيه؛ لقوله تعالى:

﴿فَاقْرَأْ وَ مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾. والسنة في هذا أن ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه (١).

٦- أن أعظم ما في قيام الليل قراءة القرآن؛ لهذا أطلق قراءة ما تيسر من القرآن على

القيام.

٧- أن من الحكمة في نسخ وجوب قيام الليل وجعله مندوباً بقدر ما تيسر: مراعاة حال المرضى، والمسافرين في الأرض؛ لابتغاء الرزق من الله، والمقاتلين في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٨- أهمية طلب الرزق لتقدمه في الذكر على القتال في سبيل الله.

٩- تأكيد نسخ وجوب قيام الليل وبقائه على الاستحباب لقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ وَ مَا

(١) كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وقد سبق تحريجه.

يَسَّرَمْنَهُ ﴿٢٠﴾.

١٠- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعظم مكانتهما في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

١١- تعظيم أمر الواجبات في الإسلام. والترغيب في النوافل.  
١٢- الحث على الصدقة والإنفاق والترغيب في ذلك بتسميته قرصًا وأن يكون ذلك خالصًا لوجه الله عز وجل وبطيب نفس وبلا من ولا أذى، ومن كسب حلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل، وأن ما قدمه المرء لنفسه اليوم من خير يجد ثوابه عند الله عز وجل مضاعفًا أضعافًا كثيرة، وخيرًا منه، وفي هذا ترغيب في التطوع في سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

١٤- تكلفه - عز وجل - بمضاعفة جزاء من قدم خيرًا لنفسه لقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾؛ ولهذا سماه: «أجرًا»، كما سمي الصدقة والإنفاق في سبيل الله «قرصًا». وفي هذا كله ترغيب في القرض، وتقديم الخير.

١٥- وجوب الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾.

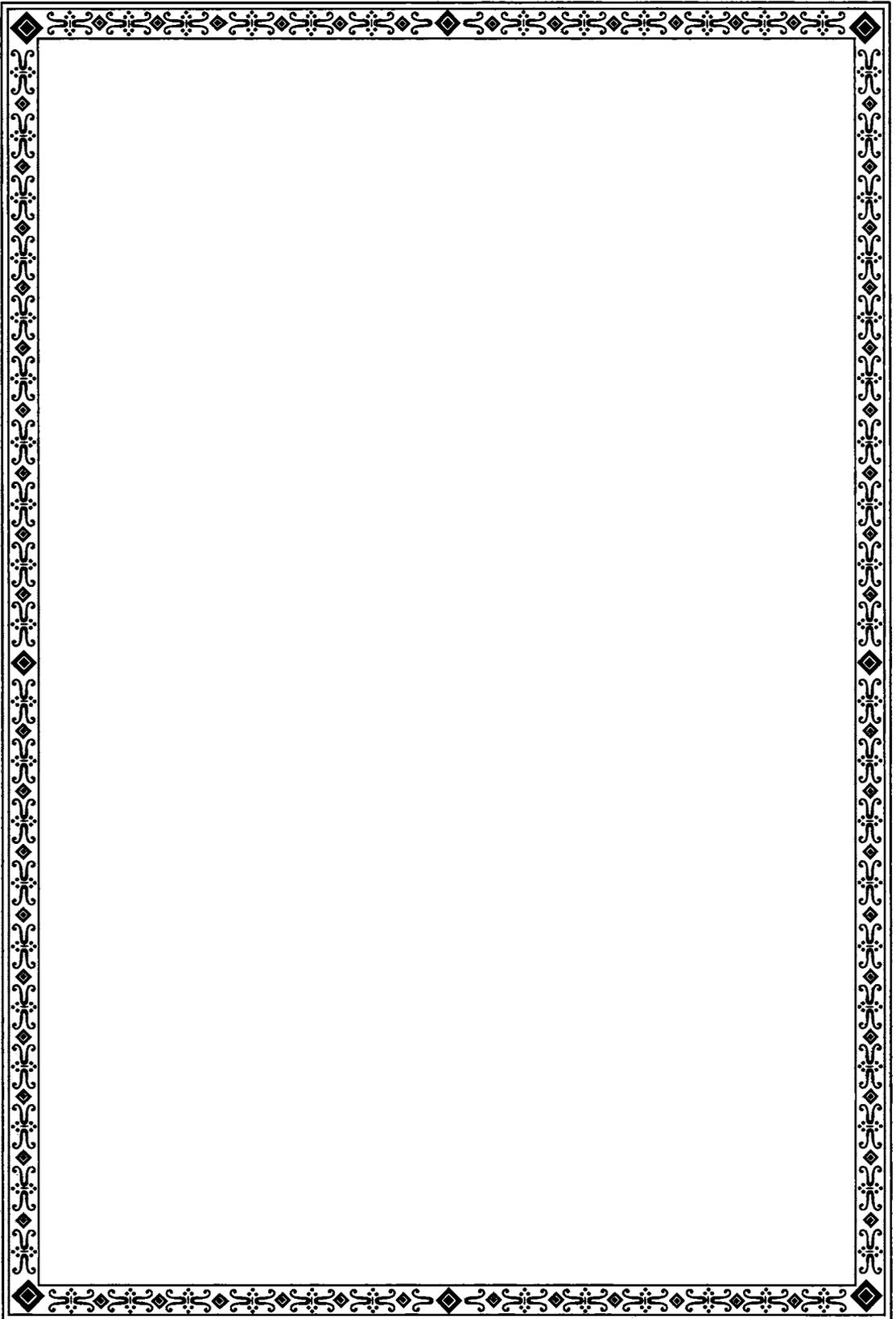
١٦- إثبات صفة المغفرة التامة والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

\* \* \*



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَدَّثِرِ



## المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المدثر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ﴾ ١.

ب- مكان نزولها:

مكية. وهي ثاني سورة نزلت بعد «سورة العلق».

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بندائه ﷺ بوصف المدثر، وأمره بالإندار، وعبادة الله تعالى،

وغير ذلك من الوصايا: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ﴾ ١ ﴿فَرَأَنذَرْتُ﴾ ٢ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبَّرُ﴾ ٣ ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرُ﴾ ٤ ﴿وَالرَّجْزَ فَاهْجُرُ﴾ ٥ ﴿وَلَا تَمَنَّئَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ ٦ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ﴾ ٧.

٢- وعيد الكافرين بيوم القيامة وشدته وعسره عليهم: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ ٨ ﴿فَذَلِكَ

يَوْمَ يَوْمٍ عَسِيرٍ﴾ ٩ ﴿عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرٌ يَسِيرٌ﴾ ١٠.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتهديد الوليد بن المغيرة بسقر وشدتها، وذمه؛ لشدة عناده

لآيات الله، ووصفه لها بالسحر، وأنها قول البشر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ١١ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَمْ مَمْدُودًا﴾ ١٢ ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ ١٣ ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ١٤ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ١٥ ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ ١٦ ﴿سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا﴾ ١٧ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ ١٨ ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ﴾ ١٩ ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ٢٢ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ٢٣ ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلٰهٌ آسِجْرٌ يُؤْتِرُنِي﴾ ٢٤ ﴿إِنَّ هَذَا إِلٰهٌ قَوْلِ الْبَشَرِ﴾ ٢٥ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ ٢٦ ﴿وَمَا أَذْرَبُكَ مَا سَقَرُ﴾ ٢٧ ﴿لَا بُقِيَ وَلَا نَذَرُ﴾ ٢٨ ﴿الْوَالِحَةُ لِلْبَشَرِ﴾ ٢٩ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ٣٠.

٤- بيان أنه عز وجل ما جعل أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعل عدتهم إلا فتنة

للذين كفروا؛ ليستيقن أهل الكتاب صدق ما جاء في كتبهم وصدق القرآن، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ ٣١.

٥- التذكير بالنار وصفاتها والتحذير منها، وبيان الناجين منها، وصفات أهلها:  
﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحدى الْكُبرى ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن  
شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَىٰ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ اليمينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتِ  
يَسَاءَ لُونِ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ مِنَّا الْمَصِيلِينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله  
تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

٦- بيان أن القرآن تذكرة وعظمة لمن شاء أن يتذكر ويتعظ: ﴿كَلَّا إِنَّهُ  
تَذِكْرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذُكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ  
الْغُفْرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا نَّذِيرٌ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ﴿٣﴾ وَنِيَابِكَ فَطَعْرٌ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ ﴿٦﴾ فَتَسْتَكْبِرُ ﴿٧﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ﴿٨﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٩﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١١﴾ .

## سبب النزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: «أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، زملوني، فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا نَّذِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَى: ﴿فَاهْجُرُ﴾» قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي وتتابع» (١).

وفي رواية عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً» وذكر نحوه (٢).  
فقوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله في الرواية الثانية: «ثم فتر الوحي عني فترة» يتفق مع ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي من أن أول سورة أنزلت هي: ﴿أَفْرَأُ بِأَسِيرَيْكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٣).  
وهو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف.

وقد ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه القول بأن أول سورة نزلت سورة المدثر فعن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٥٤، ومسلم في الإيمان - بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦١، والترمذي في التفسير ٣٣٢٥، والطبري في «جامع البيان» ٤٠١/٢٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وسيأتي ذكر الحديث بلفظه في تفسير سورة العلق.

القرآن، قال: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَذْيُرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواربي هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني. وصبوا عليّ ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا عليّ ماء بارداً قال: فنزلت: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَذْيُرُ﴾ (١) ﴿قُرْآنًا ذَرًّا (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ (١).

وهذا محمول على أنه أول ما أنزل عليه في شأن الرسالة؛ ولهذا يقول أهل العلم: نُبِّئَ بـ«اقرأ»، وأرسل بـ«المدثر».

قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَذْيُرُ﴾ صدر عز وجل هذه السورة بالنداء تنبيهاً وتعظيماً.

و«المدثر» المتلفف بشيابه، المتغطي بها كالمزمل، والمراد به النبي ﷺ.

﴿قُرْ﴾، أي: قم وانهض بنشاط وشمر عن ساعد الجد وعن ساق العزم.

﴿فَأَنْذِرْ﴾، أي: فخوف وحذر الناس من عذاب الله عز وجل، آمراً وداعياً لهم إلى

فعل وقول ما ينجيهم من عذاب الله، والبعد عما يعرضهم لعقاب الله.

وبهذا حصل الإرسال له ﷺ فنبي ﷺ باقراً وأرسل بالمدثر.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي: فعظمه وكبره بقولك: الله أكبر وعبادته، وادع الناس إلى

تعظيمه وعبادته وتكبيره.

﴿وَتَيَابِكَ فَطَهِّرْ﴾، أي: طهر بدنك وثيابك من الأحداث والنجاسات الحسية بالماء،

وطهر بدنك وقلبك وخلقتك من الذنوب والمعاصي والآثام والنجاسات المعنوية بالإيمان والتوبة والعمل الصالح، وحل الملابس والمأكّل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَتَيَابِكَ فَطَهِّرْ﴾ قال:

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٢٢، ومسلم في الإيمان ١٦١، والطبري في «جامع البيان»

«لا تلبسها على معصية ولا غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبستُ ولا من غدرة أتقنع»<sup>(١)</sup>

وقال الآخر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل<sup>(٢)</sup>

أي: فكل خلق يتخلق به جميل.

وقال الآخر:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وإن تك قد ساءت منك مني خليفة فُسلي ثيابي من ثيابك تُنسل<sup>(٣)</sup>

أي: فاستخرجي قلبي من قلبك.

وقال الآخر:

رموها بأثواب خفاف ولا ترى لها شهباً إلا النعام المنقراً<sup>(٤)</sup>

أي: رموها يعني الرُكاب بأبدانهم.

وقال الآخر:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم<sup>(٥)</sup>

يعني بـ «ثيابه»: نفسه.

قال ابن القيم<sup>(٦)</sup>: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد

بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح العمل والأخلاق».

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٠٥، وصاحب «اللسان» في مادة «طهر».

(٢) البيت لدكين بن رجاء. انظر «الشعر والشعراء». ٦١٢/٢.

(٣) هذان البيتان من معلقة امرئ القيس انظر «ديوانه» ص ٣٧ طبعة بيروت.

(٤) البيت ينسب للشهاخ. انظر: «تهذيب اللغة» ١٥/١٥٤، وهو في «ديوان ليلي الأخيلىة» ص ٧٠.

(٥) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» ص ٨٢، والبيت فيه: «بالرمح الطويل». وانظر: «مجماني الأدب»

١٩٩/٦، «مجمع الأمثال» ١/٣٤٤.

(٦) انظر «بدائع التفسير» ٥/٥٥، ٥٧، ٥٨.

وذكر أقوال السلف في المراد بقوله: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ﴾ فمن قائل: المراد بتيابك قلبك أو أخلاقك، ومن قائل: ثيابك طهرها من النجاسة الحسية والمعنوية بكونها من مكسب حلال، وغير ذلك من الأقوال ثم قال: «الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك».

ويدل على هذا العموم - والله أعلم - جمع «ثيابك» فلو أريد البدن وحده، أو القلب وحده، أو غير ذلك لقال: «وثوبك فطهر».

﴿وَالرِّجْزَ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب وحفص بضم الراء: ﴿وَالرِّجْزَ﴾.

وقرأ الباقر بكسرها: «والرِّجْز».

والرجز: الأصنام والأوثان والشرك والمعاصي.

﴿فَأَهْرَجَ﴾، أي: فاتركها وادع إلى تركها.

ولا يلزم من هذا تلبسه ﷺ بشيء من ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ أُنَى اللَّهِ وَلَا

تُطْعِمُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾، أي: ولا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من معروف.

﴿تَسْتَكْبِرُ﴾، أي: تستكثر ما أسديت إليهم، وترى لك الفضل عليهم، أو تطلب

منهم أكثر مما أسديت إليهم.

أي: أنه ينبغي أن يسدي الإنسان المعروف أيًا كان لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا

لأجل أن يرد عليه أكثر من ذلك.

قال السعدي<sup>(١)</sup>: «بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك وأنس عندهم إحسانك

واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء».

وأيضًا: ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، أي: ولا تدل على ربك بعمل عملته؛

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥٠٩/٧.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»<sup>(١)</sup>.

وفي قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله له تلك الرمانة ينزل كل يوم من صومعته فيأخذ منها لما قال الله عز وجل: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: لا يا رب، بل بعلمي. فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر الذي أعطاه الله إياه. فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدي. فقال: لا يا رب، أدخلني الجنة برحمتك فأدخله الجنة برحمته سبحانه<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾<sup>(٧)</sup>

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا، قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم سحر يؤثر، فأجمع أمرهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن ووقع رأسه، وتدثر، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَبَّاكَ تَطَهَّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرْ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأُنْفُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾»<sup>(٣)</sup>.

ومعنى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي: اصبر ابتغاء وجه ربك على طاعة الله عز وجل وتبليغ الرسالة، وعلى ما تلاقي من أذى في سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وفي هذا شد لأزره ﷺ وتقوية لقلبه كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة والإنباء ٢/٤ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في شفاء العليل ١/١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٢٨٨/٨.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿النحل: ١٢٧﴾.

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعِزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿الأحقاف: ٣٥﴾،

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴿الطور: ٤٨﴾.

﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْوَافِ﴾، أي: فإذا نفخ إسرائيل في الصور والقرن بأمر الله عز وجل

لقيام الناس من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب

القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله

ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»<sup>(١)</sup>.

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم ينفخ في الصور.

﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أي: يوم شديد عظيم ثقیل لكثرة أهواله وشدتها، كما قال تعالى:

﴿إِنَّكَ هَتَوْلَاءٌ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿الإنسان: ٢٧﴾.

وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿الإنسان: ٧﴾.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ﴾، أي: على الكافرين خاصة غير سهل، وفي هذا تخصيص

لعسره بأنه على الكافرين خاصة، وتأکید لشدة عسره؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها

لإثبات كمال ضدها فوصف هذا اليوم بالعسر، ثم نفى عنه اليسر على الكافرين خاصة

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿القمر: ٨﴾.

وذلك؛ لأنهم قد يئسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿العنكبوت: ٢٣﴾، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا

فِيهَا وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿هود: ١٦﴾.

ويفهم من قوله: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ﴾: أنه يسير على المؤمنين، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿الأنعام: ٨٢﴾.

(١) أخرجه أحمد ١٤٨/٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤١٨-٤١٩.

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قيل لرسول الله ﷺ «يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا»<sup>(١)</sup>

### الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا﴾.
- ٢- إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا نَّذَرَ﴾ فقد نبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.
- ٣- وجوب الدعوة إلى الله - عز وجل - وتكبيره، وتعظيمه وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك والطهارة من النجاسات المعنوية والحسية في القلب والبدن واللباس، عليه ﷺ وعلى أتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.
- ٤- لا يجوز أن يمن الإنسان بعمله أو يدل على ربه، كما لا يجوز أن يمن بها أعطى؛ طلبًا للاستكثار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّزْ فَسَتَكْفُرْ ۝٦﴾.
- ٥- وجوب الصبر ابتغاء وجه الله على طاعته عز وجل، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ومن ذلك ما يلاقيه ﷺ في سبيل دعوته إلى ربه، وكذا الدعاة إلى الله عز وجل من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾.
- ٦- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة - له ﷺ تشريفًا له وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾.
- ٧- إثبات البعث والنفخ في الصور، وشدة أهوال يوم القيامة وكرباته وما فيه من العسر الذي لا يسر معه على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.
- ٨- يسر يوم القيامة وخفته على المؤمنين لفهوم قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

\* \* \*

(١) سبق تحريجه.

قال الله تعالى: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝۱۱ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝۱۲ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝۱۳ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝۱۴ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝۱۵ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝۱۶ سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ۝۱۷ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝۱۸ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝۱۹ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝۲۰ ثُمَّ نَظَرَ ۝۲۱ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝۲۲ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝۲۳ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝۲۴ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝۲۵ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝۲۶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۝۲۷ لَا بُقِي وَلَا نُذُرٌ ۝۲۸ لَوْ آتَاكَ اللَّيْلُ ۝۲۹ عَلَيْهَا تَسْعَةٌ عَشْرٌ ۝۳۰﴾.

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالصبر على أذى المشركين والكافرين وتوعدهم بالقيامة وما فيها من الشدة والعسر عليهم، ثم خصص بالوعيد والتهديد في هذه الآيات أحد صناعاتهم فقال: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات.

#### سبب النزول:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما خرج على قريش، قال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبون قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: أأست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه.

فقال الوليد: أفد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله، لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله: ﴿الْأَسْحَرُ يُؤْتَرُ﴾، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا بُقِي وَلَا نُذُرٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال قتادة: «زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو ولا يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٢٩-٤٣٠، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ١/٢٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٣٠.

وعن عكرمة: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأثاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: يعطونك، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنني أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما يقول، وأنت كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله لا يشبه الذي يقول شيئاً من ذلك، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يأتريه عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيداً حتى بلغ ﴿عَلَيْهَا سَعَةٌ عَشْرٌ﴾ (١).

قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، أي: دعني واتركني والذي أوجده وأخرجته من بطن أمه وحيداً فريداً بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا عشيرة. والمعنى: اترك أمره وعقابه وعذابه إلي، فأنا أكفيكه، فلا تباله. والمراد بذلك الوليد بن المغيرة، كما دل على ذلك سبب النزول. وقد توعدده الله عز وجل وعيداً شديداً، وهدده تهديداً أكيداً، وذمه ذمماً لم يذم به غيره؛ لشدة عناده واستكباره عن قول الحق.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾، أي: مالا كثيراً واسعاً.

﴿وَبَيْنَ﴾، أي: وجعلت له أولاداً ذكوراً.

﴿شُهُودًا﴾: حضوراً عنده على الدوام لا يفارقونه، يقومون بخدمته وحاجاته ويستنصر بهم، ويفتخر بهم، ويأنس بوجودهم بجانبه، ويتمتع ويتملى بهم ويتزين، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. قيل: كان أولاده ثلاثة عشر، وقيل كانوا عشرة، وقيل غير ذلك.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾، أي: مكنته من الدنيا، ويسرت له أسباب الحياة والعيش

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٢٩، والحاكم في «المستدرک» ٢/٥٠٧، وقال: «صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١/٥٥٦.

وهياتها له.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، أي: ثم هو يطمع أن أزيده على ما جعلته له من المال الممدود والبنين الشهود، والتمهيد، والعيش الرغيد، أي: يطمع في الزيادة على ذلك في الدنيا، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر، أي: ردع له وزجر ونفي أن يزداد على ما عنده، أي: ليس الأمر كما يطمع، ثم علل لذلك بقوله:

﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾، أي: كلا لن أزيده؛ لأنه كان لا ياتنا، أي: للقرآن الكريم وما جاء فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات ﴿عَنِيدًا﴾، أي: شديد المعاندة والجحود لا ياتنا بعد أن عرفها.

﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾، أي: سأكلفه وأحمله عذابًا شاقًا نفسيًا وبدنيًا، حسيًا ومعنويًا، في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالكافر في دنياه وآخرته في مشقة وعذاب نفسي وبدني وأشد ذلك عذاب النار كما قال عز وجل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ الآيات.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ويل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفًا، ويهوي فيه كذلك أبدًا»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾، أي: إنما أرهقناه صعودًا؛ لأنه ﴿فَكَّرَ﴾، أي: تروى في نفسه وتأمل ماذا يقول في القرآن، وبإذا يصفه.

﴿وَقَدَّرَ﴾، أي: وقدر ما فكر فيه؛ ليقول قولًا يبطل به القرآن، أو قدر ما يقول في القرآن.

(١) أخرجه أحمد ٣ / ٧٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣ / ٤٢٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٣٨٣، وقال الترمذي: «حديث غريب».

﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾، أي: لعن أشد اللعن وأهلك كيف قدر القول فيه، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿فَلَلَّهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وذلك؛ لأنه قدر أمرًا ليس في طوره، وتسور على ما لا يناله هو وأمثاله، وتكلف ما لا علم له به.

﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ تأكيد لما قبله، أي: ثم لعن وأهلك.

و«كيف»: اسم استفهام: للإنكار، أي: ثم لعن كيف قدر هذا التقدير الباطل، أو ثم لعن في أي تقدير أو على أي تقدير قدره.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، أي: تأمل وأعاد التفكير والتروي فيما يقول في القرآن.

وهذه الآية أقصر آية في القرآن الكريم.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه، وقبض ما بين عينه.

﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في العبوس وكلح وجهه، نفرة من الحق وكرهه وبغضاً له.

قال الشاعر:

وقد رابني منها صدود رأيتُه وإعراضها عن حاجتي وبسورها<sup>(١)</sup>

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾، أي: رجع على عقبه ودبره، وتولى ببدنه.

﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾، أي: تعاطم بقلبه عن الانقياد للقرآن. وهذا حصيلة ما قاده إليه

تفكيره وتقديره السيء، وسوء قصده، ونظره القاصر، وكرهته للحق وبغضه له أن تولى عن الحق واستكبر عن الانقياد له وتقول فيه الأقاويل.

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْتِرُ﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما» في الموضعين، أي: ما هذا إلا

سحر يؤثر.

أي: ينقله السحرة بعضهم عن بعض، ونقله محمد عن غيره ممن كان قبله من

السحرة، وحكاه عنهم.

﴿إِنَّ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، أي: ما هذا إلا قول البشر، وليس هذا بكلام الله.

(١) البيت لتوبة بن الحُمير. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٥، «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٨، «الأمالي»

فتباً لمن تجرأ على وصف كلام الله عز وجل أعظم كلام وأبلغه، بالسحر، وشبهه بكلام البشر، وسحقاً له وبعداً، فما أعظم خسارته، وما أشد عذابه؛ ولهذا اتوعده الله تعالى بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾: وعيد وتهديد له، أي: سأدخله سقر، أي: النار، وأغمره فيها من جميع جهاته ليقاسي شدة حرها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾: تعظيم وتهويل لشأنها وتفضيم لأمرها، أي: وما أعلمك ما سقر حرها شديد وقرها بعيد، وخطرنا جسيم، وهو لها عظيم.

ثم بين عز وجل شيئاً من وصفها فقال:

﴿لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾، أي: لا تبقي ولا تترك شيئاً من بدن المعذب، ولا مما يلقي فيها إلا أكلته وأحرقته ولا تبقي من الشدة شيئاً إلا بلغته، قد بلغت من الشدة غايتها، ومن الأبدان جميعها.

والمعذبون فيها مخلدون لا يموتون ولا يميون، كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الْأَشْقَى﴾ (١١) **الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى** (١٢) **ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى** (١٣) [الأعلى: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا آخَرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَآئِمٌ لِلْبَشْرِ﴾، أي: تلوح وتلفح وتحرق بشر وجلود المعذبين فيها بلهبها ولظاها وشدة حرها وقرها.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، أي: عليها من الزبانية الغلاظ الشداد الموكلين بتعذيب أهل النار **تِسْعَةَ عَشَرَ**.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غلب أصحابك اليوم، فقال: «بأي شيء؟»، قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أفغلب قوم سئلوا عما لا يدرون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا. قال رسول الله، عليّ بأعداء الله،

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٢.

لكن سألو نبيهم أن يريهم الله جهرة»، فأرسل إليهم فدعاهم قالوا: يا أبا القاسم، كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا» وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه المكذبين والمعاندين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وأن يترك أمرهم إلى الله - عز وجل.

٢- تهديد الوليد بن المغيرة ومن على شاكلته ممن أنعم الله عليهم بالمال والبنين ومهد لهم في الحياة فطغوا وتجبروا بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَمْ مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾.

٣- أن المال والبنين والجاه من أسباب الطغيان والفتنة في الدين، كما قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۝٦ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٤- زجر هذا المعاند وتيئيسه من الزيادة، وأن الكفر والذنوب والمعاصي أعظم سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٥- بيان ما أعده الله لهذا المعاند لآياته من العذاب الشاق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَأَرْهِفُهُ، صَعُودًا ۝١٧﴾.

٦- جراءة الوليد بن المغيرة على الله عز وجل وتكلفه فيما يصف به القرآن وتمحله في ذلك وتقعره في تفكيره وتقديره وشدة إدباره عن الحق واستكباره حتى زعم أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ومن كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝٢٤ إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥﴾.

٧- الوعيد للوليد بن المغيرة بإصلائه النار وغمره فيها، ولعنه وإهلاكه؛ لقوله

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٦١، وأخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٩٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٤، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (٢٦).

٨- تعظيم هول سقر وهي النار، وبيان شدة عذابها، وأن عدة خزنتها تسعة عشر؛

لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ (٢٧) لَا يُبْقِي وَلَا يَنْزِعُ ﴿٢٨﴾ الرَّاحَةَ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزداد الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبْرَى ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَ أَوْ يَخُفَّ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾.

أي: وما جعلنا خزنة النار القائمين على تعذيب أهلها إلا ملائكة، ليسوا بشرًا ضعافًا يغلبون، بل هم ملائكة غلاظ القلوب، شداد الخلق، لا يغالبون، كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: وما جعلنا عددهم تسعة عشر وأخبرنا بذلك ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: إلا لامتحان وابتلاء الذين كفروا. حتى تجرأ أبو جهل فقال: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟»<sup>(١)</sup>. وقال أبو الأشدين - كلداء بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر»<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا فيكون المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا ابتلاءً وامتحاناً ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لنعلم من يُصَدِّقُ مَن يُكذِّبُ. ويدل على هذا قوله بعد ذلك: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزداد الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا﴾.

ويحتمل أن المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا لعذاب الذين كفروا وعقابهم في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يُعَذَّبُونَ.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اللام: للتعليل، و«يستقن» أبلغ من «يتقن»، أي:

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/٤٣٦-٤٣٧.

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلى ١/٢٠٠، «تفسير ابن كثير» ٨/٢٩٤. وانظر تفسير ابن أبي حاتم

لأجل أن يستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى الموجودين أيام بعثته ﷺ أنها جاء به ﷺ حق من عند الله - عز وجل؛ لموافقته ما جاء في كتبهم التوراة والإنجيل في عدة خزنة جهنم، وأنهم تسعة عشر.

﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، أي: ولأجل أن يزداد الذين آمنوا إيمانًا، وذلك من وجهين: الأول: بما يشهدون من صدق أخبار نبهم محمد ﷺ، وموافقتها لما جاء به الأنبياء قبله. والثاني: من كونهم يسارعون في تصديق ما جاء عن الله ورسوله، ويتلقون ذلك بالتسليم والقبول.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ولأجل أن لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في أن عدة أصحاب النار من الملائكة تسعة عشر.

وهذه الجملة على هذا المعنى مقررة ومؤكدة للجملة قبلها؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها. وقد يكون نفي الريب محمولاً على نفي الريب عن عموم ما أخبر به الرسول ﷺ فيكون المعنى، أي: ولا يقع في قلوبهم ريب ولا شك في أن ما جاء به الرسول ﷺ حق وصدق.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أي: ولأجل أن يكون ذلك سبباً في زيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، وهم المنافقون.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون المكذبون، ليقولوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلاً، أي: بهذا المثل.

فأخبر عز وجل أن الحكمة التي جعل لأجلها عدة خزنة النار تسعة عشر: فتنة للذين كفروا وابتلاء واختباراً لهم، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ولزيادة إيمان المؤمنين، ولانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، ولزيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين.

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة،

(١) في «بدائع التفسير» ٥٩/٥.

وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به».

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الكاف: حرف تشبيه، بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، والإشارة لما سبق في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزداد الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْتَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

أي: مثل هذا الابتلاء والإضلال والهداية ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يضل الله من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق من يشاء بفضله.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة».

وليس في هذا ما يتعلق به من يفعل المعاصي ويحتج بالقدر؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا قدر له.

وقد بين الله - عز وجل - طريق الحق وأمر باتباعه، وبين طرق الباطل ونهى عن اتباعها. وقد قال ﷺ «اعملوا فكل مسير لما خلق له، فأهل السعادة يسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة يسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِّلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠]» (٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: وما يعلم عدد جنود ربك يا محمد وكثرتهم وشدة خلقهم، وغلظة خلقهم من الملائكة وغيرهم إلا هو سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل:

(١) في «تفسيره» ٨ / ٢٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في

القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أي: إذا كان عز وجل أخبر أن على النار تسعة عشر من الملائكة فيجب تصديق خبره من غير شك ولا ريب، وأيضاً فإن جنوده - عز وجل - لا يحصون عدداً وكثرة -

كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

وقال ﷺ - في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة - : «إذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون أطلت السماء وحق لها أن تئط»<sup>(٢)</sup> ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ<sup>(٣)</sup> تجأرون إلى الله - عز وجل» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعَضدُ<sup>(٤)</sup>»<sup>(٥)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، ولا كف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راکع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً»<sup>(٦)</sup>.

﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: النار.

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: هذه الآيات في وصف النار ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾، أي: تذكير ووعظ لهم.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ - من حديث مالك بن صعصعة - رضي الله عنه.

(٢) تئط، أي: قد أثقلها ما عليها من الملائكة.

(٣) الصعدات: الطرق

(٤) أي: تقطع.

(٥) أخرجه أحمد ١٧٣/٥، والترمذي في الزهد ٢٣١٢، وابن ماجه في الزهد - باب الحزن والبكاء ٤١٩٠.

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/١٦٠، وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/٢٩٥.

﴿كَلَّا﴾: حقًا، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية.

﴿وَالْقَمَرِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«القمر» مقسم به مجرور.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾: معطوف على ما قبله. قرأ نافع ويعقوب وحمزة وخلف وحفص:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ بإسكان الذال من غير ألف بعدها، و﴿أَدْبَرَ﴾ بهمزة مفتوحة مع إسكان الدال بعدها.

وقرأ الباقون: «والليل إذا دبّر» بألف بعد الذال، و﴿دبر﴾ بفتح الدال من غير همزة قبلها. ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾: ولى وذهب.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، أي: أشرق وأضاء وانكشف.

فأقسم عز وجل بالقمر: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ (٣٣) و﴿الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٣٤)؛ لما فيها من الآيات العظيمة الباهرة، الدالة على كمال ربوبيته وعلمه وحكمته، وعنايته بخلقه.

﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكَبِيرِ﴾: جملة جواب القسم، ﴿إِنَّمَا﴾، أي: النار لإحدى العظام الكبار، والدواهي العظام.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ نذيرًا: حال، أي: تخويفًا وتحذيرًا للبشر، وهم بنو آدم، وهي أيضًا نذير للجن؛ لأنهم مكلفون.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾، أي: لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم إلى الأمام، فيعمل لما خلق له، فيخاف ويحذر، ويؤمن بالله ويعمل صالحًا، ويستعد لما أمامه بطاعة الله.

﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عما خلق له فلا يخاف ولا يحذر، بل يتولى ويعرض ويرتكب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا معنى المسارعة والمسابقة والمنافسة واستباق الخيرات الذي أمر الله - عز وجل - به في أكثر من آية. وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ -

من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وفي الحديث: «فإنه لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله - عز وجل» (١).  
وقال الشاعر (٢):

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه      فمن كان أسعى كان بالمجد  
فلم يتأخر من أراد تقدماً      ولم يتقدم من أراد تأخراً  
الفوائد والأحكام:

١- بيان أن أصحاب النار التسعة عشر الموكلين عليها إنما هم ملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾.

وفي هذا تعظيم لشأنهم؛ وإشارة لشدتهم وغلظتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

٢- امتحان الذين كفروا من المشركين والمنافقين وغيرهم وابتلاؤهم في جعل عدة أصحاب النار تسعة عشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ الآية؛ ليتبادوا في تكذيبهم وغرورهم وجرأتهم على الله عز وجل؛ ولهذا قالوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

٣- في ذكر عدة أصحاب النار في القرآن الكريم وأنهم تسعة عشر استيقان لأهل الكتاب لموافقة القرآن لما جاء في كتبهم وعدم شكهم وارتياحهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

٤- زيادة إيمان المؤمنين بذكر عدة أصحاب النار وعدم شكهم في ذلك لأنهم يسلمون بكل ما جاء من عند الله وعلى لسان رسوله ﷺ، ولموافقة ذلك لما جاء في كتب أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه.

٦- إثبات المشيئة لله - عز وجل، وتقديره الهداية والضلال، وأنه عز وجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

(١) أخرجه أحمد ٣/١٩، ٣٤- من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٢) البيتان لابن هانئ، انظر «ديوانه» ص ١٤٠.

٧- أن جنود الله كثرة كاثرة، لا يعلم كثرتهم وشدتهم وقوتهم إلا هو سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة - له ﷺ وخطابه له تشریفاً وتكريماً له؛ لقوله تعالى: ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾.

٩- تذكير البشر بذكر النار وصفاتها السيئة المخيفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾.

١٠- إقسام الله - عز وجل - بالقمر والليل إذا تولى وذهب والصبح إذا أقبل وأسفر على أن النار إحدى الفطائع العظام التي يخوف الله بها البشر. والله أن يقسم بما شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ (٣٢) ﴿وَأَلَيْلٍ إِذْ أَدْبَرَ﴾ (٣٣) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٣٤) ﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكَبِيرِ﴾ (٣٥).

١١- أن الغاية من الإنذار إقامة الحجة على الخلق، والإعذار منهم؛ ليتقدم منهم من شاء أن يتقدم بالإيمان والعمل الصالح، وليتأخر منهم من شاء أن يتأخر بالكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٣٧).

١٢- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ وفي هذا رد على الجبرية.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْلَا آتَيْنَا مِنَ الْمَصَالِحِ ﴿٤٣﴾ وَلَوْلَا نُطْعِمُ الْيَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخْشَى مَعَ الْفَاطِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانَ كَذِبٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْمَعْفُورَةِ ﴿٥٦﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: كل نفس بالذي كسبت، أو بكسبها من خير أو شر، ﴿رَهِينَةٌ﴾، أي: مرتبته، عند الله - عز وجل - موقفة.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين يأخذون كتبهم بأيامهم، ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهذا يشمل أصحاب اليمين والسابقين المقربين؛ لأن كل سابق مقرب هو من أصحاب اليمين، لا العكس.

أي: إلا أصحاب اليمين فلا يرتنون بما كسبوا، بل هم طلقاء، فرحون.

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات: ٣٩-٤١].

وليس معناه أنهم لا يجازون بأعمالهم، بل كل عامل يجازى بعمله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، أي: في بساتين في دار النعيم التي أعدها الله لهم، فيها تمام الراحة والطمأنية وكمال المطلوب، لهذا أخذوا يتساءلون عن حال من فاته هذا النعيم ﴿يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يسأل بعضهم بعضاً عن الكفار أرباب الجرائم والذنوب والمعاصي ما حالهم؛ وأين هم؛ فيقول بعضهم لبعض:

﴿هَلْ أَنتُمْ مُطَّلَعُونَ﴾، أي: عليهم، قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فِرْعَاوْنُ فِي سَوَاءِ الْبَحْرِ ﴿٥٤﴾﴾ [الصافات: ٥٤، ٥٥].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾، «ما»: للاستفهام، أي: سائلين لهم: ما الذي أدخلكم في

سقر؟ أي: في النار، و ما الذنب الذي استحققتوها بسببه؟ و لماذا لم تعملوا للنجاة منها؟ وفي هذا ما فيه من التوبيخ والتبكييت لهم، وإثارة الأسى والحزن في قلوبهم.

﴿قَالُوا لَوْلَا أَرْزُقْنَا مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، أي: قالوا: لأننا لم نكن من المصلين، أي لم نكن نصلي.

﴿وَلَوْلَا نِعْمُ الْمَسْكِينِ﴾، أي: ولم نكن نركي ونتصدق على المسكين المحتاج الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله.

فذكروا أول سبب لدخولهم سقر وهو ترك الصلاة، التي هي عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية وأول ما يجاسب عليه العبد يوم القيامة، وتركها كفر.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يجاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب - عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله، على ذلك»<sup>(١)</sup>.  
وعن عبد الله بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»<sup>(٢)</sup>.

وثنوا بترك إطعام المسكين، أي: بترك الزكاة. وهي أهم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً في القرآن الكريم.

فلا إخلاص عندهم في حق المعبود، ولا إحسان منهم للعبيد، كما قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون: ٤، ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴿٥٤﴾﴾

[التوبة: ٥٤].

(١) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٥، والترمذي في الصلاة ٤١٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤٢٥ وقال

الترمذي: «حديث حسن غريب»

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان - ما جاء في ترك الصلاة ٢٦٢٢.

﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعِ الْخَاطِئِينَ﴾، أي: وكنا نتكلم في الباطل، وفيما لا نعلم، مع المتكلمين في ذلك، ونرد به الحق، من رمي الرسول بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وأن ما جاء به سحر أو شعر وغير ذلك.

ومن هنا ينبغي للمسلم الحذر من الخوض في الباطل من القيل والقال والغيبة والنميمة وتلقف الإشاعات، ونحو ذلك.

﴿وَكَا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: نكذب بيوم القيامة يوم الحساب والجزاء وإدانة الناس بأعمالهم، ونزعم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا جنة ولا نار.

فجمعوا بين ترك الصلاة، وعدم الإخلاص للمعبود، وبين منع الزكاة وعدم الإحسان إلى العبيد، والخوض بالباطل، والتكذيب بيوم الدين، يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾ اليقين: الموت، كما قال عز وجل: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أي: استمرت حالنا على تلك الفعال والأقوال السيئة من ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين، ومن الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم القيامة.

﴿حَتَّىٰ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾، أي: حتى جاءنا الموت ونحن على هذه الحال.

عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات قال «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الآية رد على غلاة الصوفية الذين يفسرون اليقين في قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أن المراد به حتى تصل إلى درجة يرتفع عنك فيها التكليف. والصحيح أن المراد به الموت كما هو في هذه الآية ﴿حَتَّىٰ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، أي: فما تقبل فيهم شفاعة الشافعين، وقد ماتوا على الكفر، وهذا على الفرض والتقدير لو وجد من يشفع لهم مع أنه لا أحد يشفع لهم، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

(١) أخرجه البخاري في الجناز - الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفته ١٢٤٣، وأحد ٤٣٦/٦.

وقالوا فيما حكى الله عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (١٠١) [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٣) [الروم: ١٣].

وقال تعالى عن الشفعاء من الملائكة وغيرهم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨) [الأنبياء: ٢٨].

والمجرمون أعمالهم لا يرضاها الله - عز وجل، فلا شافع لهم، ولو شفع لهم شافع لم يقبل الله - عز وجل - شفاعته فيهم: لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له. كما قال عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضْوَانًا﴾ (٢٦) [النجم: ٢٦].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ الفاء: استئنافية و «ما»: اسم استفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم.

أي: فما هؤلاء الكفرة المجرمين عن التذكرة والموعظة، أي عن القرآن. ﴿مُعْرِضِينَ﴾، أي: معرضين عنها بقلوبهم، متولين عنها بأبدانهم، صادين غافلين عنها.

﴿كَانَّهُمْ﴾ في إعراضهم ونفورهم الشديد عن التذكرة والموعظة. ﴿حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الفاء: «مستنفرة». وقرأ الباقون بكسرها: ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾. وحر: جمع حمار، يجمع على «حمر» وعلى «حمير» وعلى «أحمره». والمراد بها حمر الوحش لوصفها بقوله: ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾، أي: نافرة نفورًا شديدًا، ومستنفر بعضها بعضًا.

﴿فَرَّتْ﴾، أي: هربت ونفرت وجفلت، ﴿مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾، أي: من مجموعة من

الأسود تريد أكلها، أو من مجموعة من الرماة يريدون صيدها.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء الكفرة المجرمين أن يعطى وينزل عليه من السماء كتاباً منشوراً خاصاً به، يزعم أنه لا يتقاد للحق إلا بذلك - كما أنزل على النبي ﷺ.

كما قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنزَلَ عَلَيْنا كِتَابًا نَنقُرُوهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد كذبوا كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَوَجَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرَأُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر ونفي، أي: ليس لهم ما طلبوا، وما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ولو أتوا صحفاً منشورة ما آمنوا.

﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، أي: بل لا يخافون ولا يخشون الآخرة، وما فيها من العذاب والأهوال والنكال، ولو خافوها ما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾، ﴿كَلَّا﴾: ردع لهم وزجر؛ لإعراضهم عن القرآن، ونفي لزعمهم أن القرآن سحر يؤثر، ومن قول البشر.

أو بمعنى: حقاً، أي: حقاً إن القرآن العظيم تذكير وموعظة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾، أي: فمن شاء من الناس تذكر واتعظ بمواعظ القرآن.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قرأ نافع المدني بالخطاب: «وما تذكرون».

وقرأ الباقر بالغيبة: ﴿يَذْكُرُونَ﴾.

أي: وما يتعظون إلا من شاء الله أن يتعظ منهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]

فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله - عز وجل؛ لأن مشيئة الله عز وجل تامة نافذة عامة لا يخرج عنها أحد فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى﴾، أي: هو سبحانه وتعالى - أهل أن يتقى ويحاف ويحشى بفعل وأمره واجتناب نواهيه، وأن يعبد وحده؛ لأنه الإله العظيم الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾، أي: وأهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه وأتاب، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

عن أنس - رضي الله عنه - قال: قرأ رسول الله ﷺ - هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنأ أهل أن أغفر له»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- أن كل نفس مرتنة يوم القيامة بعملها ومحبوسة في العذاب بسببه إلا أصحاب اليمين، فلا يرتنون ولا يجسسون بل هم طلقاء في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾.

٢- تساؤل أهل الجنة فيما بينهم عن المجرمين وسؤالهم إياهم - تبكيًا وتوبيخًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتِ يَسْأَلُونَ﴾<sup>(٤٠)</sup> عَنِ الْمُجْرِمِينَ<sup>(٤١)</sup> مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟

٣- أن من أعظم الجرائم ومن أكبر موجبات دخول النار ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والخوض في الباطل، والتكذيب باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَرَنُكَ مِنَ

(١) أخرجه أحد ٣/ ١٤٢، ٢٤٣، والترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٨، وابن ماجه في الزهد - ما يرجى

من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٩ وقال الترمذي «حسن غريب»

الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ تَكُنْ تُطْعَمُ الْيَسْكِينِ ﴿١٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿١٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيُّوتِ الدِّينِ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

٤- أن الموت سبيل كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ آتَنَّا الْيَقِينَ﴾.

٥- التحذير من ترك الصلاة ومنع الزكاة، والخوض بالباطل، وإنكار البعث والجزاء.

٦- نفي الشفعاء للمجرمين الكاذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾،

كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

٧- شدة إعراض المشركين ونفورهم عن التذكير بالقرآن ومواعظه؛ لقوله تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٩﴾.

٨- شدة عناد المجرمين، وتكبرهم وتجبرهم وتعنتهم، وطلب كل منهم أن ينزل

عليه كتاب خاص به، وتكذيبهم بالآخرة، وعدم خوفهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ

حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُوقَىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا

يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

٩- إثبات وتحقيق أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾.

١٠- إثبات المشيئة للعبد لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ وفي هذا رد على الجبرية

القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله.

١١- الحث على التذكر والاتعاظ بالقرآن الكريم.

١٢- إثبات المشيئة لله عز وجل، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله فما شاء الله

كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وفي هذا رد على

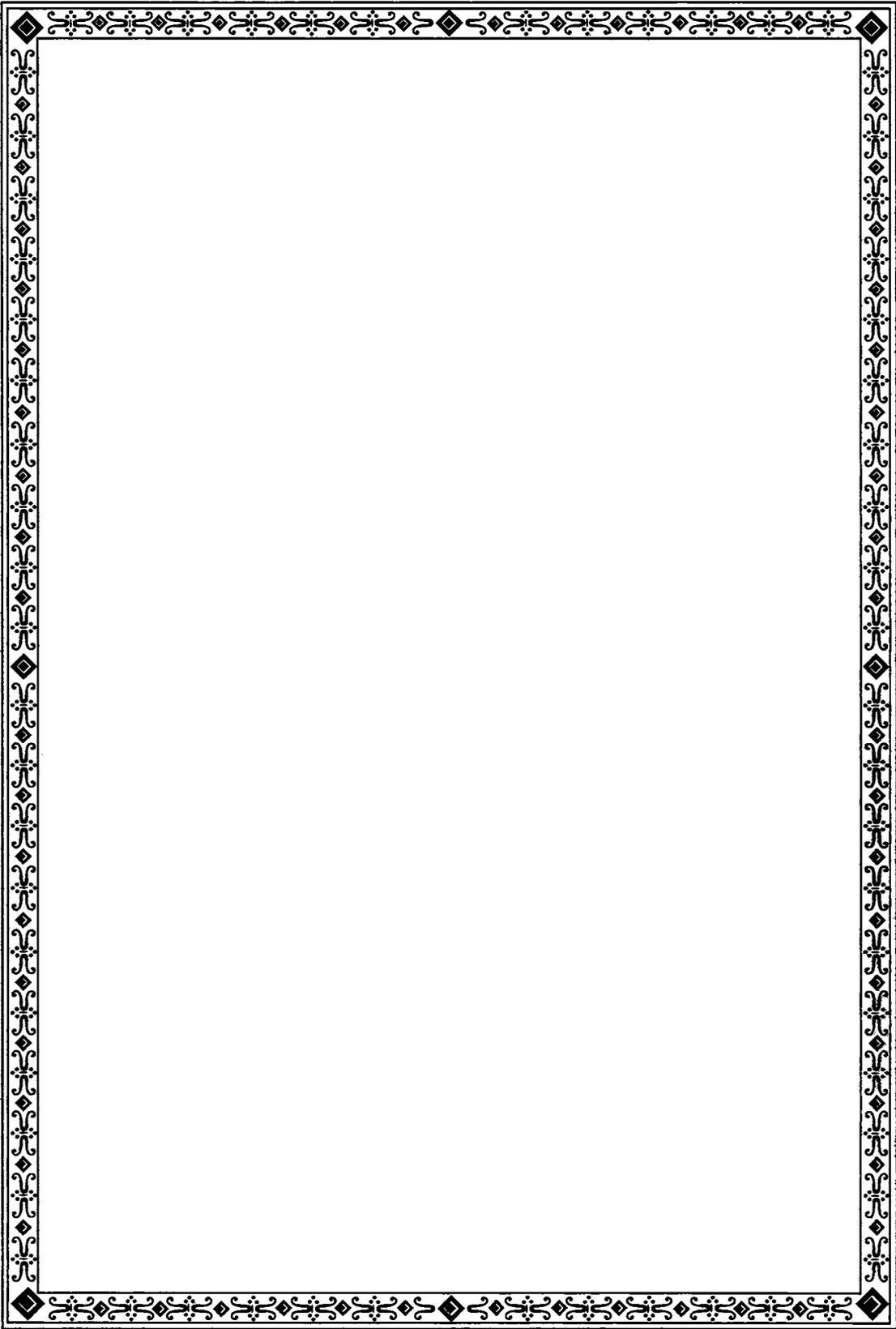
القدرية الذين يرون عدم دخول أفعال العباد تحت مشيئة الله تعالى.

١٣- إثبات عظمة المولى عز وجل، وفضله، فهو سبحانه أهل أن يتقى ويخاف

فيطاع، وأهل للفضل والتجاوز عن عباده ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ

وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ﴿٥٦﴾.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت «سورة القيامة» بهذا الاسم؛ لإقسام الله عز وجل بالقيامة في مطلعها بقوله

تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة لا أقسم».

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- موضوعاتها:

١- أقسم الله تعالى في مطلعها على تمام قدرته على بعث الناس من قبورهم: ﴿لَا

أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣﴾ بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ ۝٤﴾.

٢- التخويف من أهوال يوم القيامة: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمٍ

الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ۝١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ بَلَىٰ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِرَهُ ۝١٥﴾.

٣- نهي ﷺ أن يحرك بالقرآن لسانه؛ ليعجل به، وتكفله عز وجل بجمعه وقرآنه

وبيانه: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ بِقُرْآنِهِ ۝١٨﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾.

٤- التحذير من محبة الدنيا وترك الآخرة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۝٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ أَلَتْرَبُّكَ تُطَفِّئُهُ مِنْ مَتْنِي يُعْمَىٰ ۝٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَاخِلٍ فَسْوَىٰ ۝٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيِّئَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ. ۝٣  
 بَلْ قَدَرِينَا عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ. ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. ۝٥ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝٦ فَإِذَا رَأَى الْبَصُرَ ۝٧  
 وَخَسَفَ الْقَمَرَ ۝٨ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ۝٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ  
 الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يَلْبِثُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ. ۝١٥﴾.

قوله: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾: «لا»: في الموضوعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لنفي المقسم عليه.

قال ابن قتيبة<sup>(١)</sup>: «فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما نقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول».

وقال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «المقسم عليه متى كان منتفياً جاز الإتيان بـ«لا» قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد».

وقال السعدي<sup>(٣)</sup>: «ليست «لا» ههنا نافية ولا زائدة، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح».

فأقسم عز وجل بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن البعث وإحياء الموتى حق. ويوم القيامة - هو يوم بعث الناس من قبورهم، وسمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأَشْهَادِ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا لا يتكلمون كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۝٥١﴾

(١) في «تأويل مشكل إعراب القرآن» ص ٢٤٦.

(٢) في «تفسيره» ٣٠٠ / ٨.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥٢١ / ٧.

لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٤٨﴾ [النبا: ٣٨]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ﴿٤١﴾ [إبراهيم: ٤١].

والنفس اللوامة: أي التي من طبيعتها أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وكل نفس لوامة، فالنفس الخيرة: تلوم صاحبها على فوات الخير أو عدم الاستزادة منه، وتلومه على فعل الشر أو قوله، وتندم على ما فات من خير أو ما وقع من الشر، لو فعلت كذا، أو لو لم أفعل كذا، وبضدها النفس الخبيثة. قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا نَبِيَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق، فحج آدم موسى»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك. وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء، وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاققتها وضرورتها إلى من يعرفها بالخير والشر ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر، مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة».

ولم يذكر جواب القسم، إما لدلالة السياق عليه والعلم به، فقوله بعده: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ ﴿٢﴾ بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ سُورَى بِنَانِهِ ﴿٤﴾ يدل على أن المقسم عليه كون البعث وإحياء الأبدان حق.

قال ابن القيم<sup>(٣)</sup>: «ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩ ومسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/٧٢-٧٣، ٨٤-٨٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/٧٣، ٧٤.

به وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا».

وقال أيضًا: «فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء».

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ﴾، أي: أيظن الإنسان أن لن نقدر على بعثه وجمع عظامه بعد تفتتها وتفرقتها وصيرورتها رميمًا، كما قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

رُوي أن عمر بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: «حدثني عن يوم القيامة، متى يكون، وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك، فقال: لو عاينت ذلك لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»<sup>(١)</sup>.

﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ﴾، أي: بلى قادرين على ما هو أدق وأعظم وأدل على كمال قدرتنا، وهو تسوية أطراف أصابعه كما كانت- مع ما فيها من دقة البصمات واختلافها بحيث لا تتشابه بصمات شخص ببصمات شخص آخر- وكذا سائر أطرافه وعظامه. وذلك مستلزم لجمع عظامه وجميع أجزاء بدنه، وأن قدرته- عز وجل على ذلك من باب أولى وأحرى.

وقال بعض المفسرين: المعنى: بلى قادرين على أن نسوي في الدنيا أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار بعد أن كانت متفرقة، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا. وإذا كان عز وجل قادرًا على تسوية وجمع أصابع يدي الإنسان ورجليه في الدنيا بعد أن كانت متفرقة، فهو قادر على جمع عظامه في الآخرة بعد تفرقتها بالموت والبل.

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده،

(١) انظر «أسباب النزول للواحدي» ص ٢٩٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٧٤/٥.

ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني- أنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت».

وقال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَدِيرِينَ﴾ حال من قوله: ﴿يَجْمَعُ﴾، أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه- وهي أطراف أصابعه- مستوية».

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾، المراد بالإنسان هنا الكافر. والفجور: الكفر والمعاصي والكذب المتعمد والعناد.

أي: بل يريد الكافر أن يمضي قدمًا في التكذيب والكفر والمعاصي ويدوم على فجوره لا ينزع عنه ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده والاستمرار على ذلك.

ويحتمل أن المعنى: بل يريد الإنسان لِيُكَذِّبَ بما أمامه من البعث والقيامة؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يسأل متى يوم القيامة مستبعدًا ومكذبًا بوقوعه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ [الذاريات: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾.

(١) في تفسيره ٣٠١/٨.

أقسم عز وجل بالقيامة وأنها حق ثم ذكر بعض أهوالها.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «برق» بفتح الراء.

وقرأ الباقون: ﴿بَرَقَ﴾ بكسرها.

أي: فإذا كانت القيامة برق البصر، أي: شخص فلا يطرف، وحر وانبهر وذل

وخشع لما يشاهد من أهوال القيامة، التي كان يكذب بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ

تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَابُ سَمَاوَاتٍ

[إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾، أي: ذهب ضوءه ونوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ جمع بينهما في تكويرهما، وذهاب ضوءتهما.

يجمعها الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها فصارت رميماً، ولم

يجتمعاً قبل ذلك قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

فَلَاقٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس: ٤٠].

فيخسف القمر، وتكور الشمس، ويقذفان في النار، ليرى العباد أنها مخلوقان

مسخران، وليرى الذين عبدوهما من دون الله أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾، أي: يقول الكافر إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة «أين

المفر؟»، أي: أين المهرب والخلص والفكاك؛ يريد أن يهرب ويتخلص من الهول

والعذاب، ولكن هيهات.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر وتهديد، ﴿لَا وِزْرَ﴾: لا ملجأ ولا منجى ولا ملتجأ لأحد

دون الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾

[الشورى: ٤٧].

﴿إِن رَّبِّكَ يُؤَمِّدُ الْمُنْفِرَ﴾، أي: إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق مصير الخلائق

ومنتهاهم ومرجعهم ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾

[ق: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ [النجم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ۗ﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الإخبار بأمر عظيم مهم، و «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: يُخبر الإنسان في ذلك اليوم، يوم القيامة، بجميع الذي قدمه من أعمال ونحوها، وبجميع الذي أخره من أعمال ونحوها فلم يعملها، صغيرها وكبيرها خيرا وشرها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ لِمَ لَمْ يَأْتِنَا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَنَا وَاللَّيْلِ لَمَّا أَصْبَحْنَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ۗ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۗ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۗ﴾، «بل» للإضراب، أي: هو بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة، حسيب على نفسه شهيد عليها، يشهد عليه سمعه وبصره وجلده ولسانه ويده ورجله، كما قال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا مَا جَاءَهَا وَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۗ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۗ﴾ [الإسراء: ١٤].

وكما جاء في حديث تقرير العبد بذنوبه «أتذكر ذنب كذا وكذا، فيقول: نعم يارب»<sup>(١)</sup>.

(١) سبق تخرجه.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «أتدون مم أضحك؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب: ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجزى عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتين عليك شهوداً. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلي بينه وبين الكلام. فيقول: بُعداً لكنّ وسحقاً! فعنكنّ كنت أناضل!»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرُهُ﴾، أي: ولو ألقى المعاذير وقدمها عن نفسه فهو بصير بها، عالم بأعماله، مهما جادل واعتذر أو أنكر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَالْقَوْلُ السَّامِعُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامِعُ﴾ [النحل: ٨٧].

وكل هذه المعاذير لا تقبل، ومهما اعتذر الإنسان عن نفسه أو أنكر وجادل عنها فهو عالم بأعماله؛ ولهذا يقرر بأعماله فيقر بها، كما في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤] فيقرؤه ولا يستطيع أن ينكر منه شيئاً كما قال المجرمون ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرُوكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

فالإنسان بصير على نفسه عالم بخفاياها وعيوبها. ولكنه قد يغفل عن نفسه ويتبصر بعيوب الآخرين، فيكون حاله كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «عجبت من الرجل يفر من القدر، وهو واقعه، ويرى القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه»<sup>(٢)</sup>.

(١) سبق تخرجه.

(٢) انظر: «الأدب المفرد» ص ٣٠٥، «القضاء والقدر» للبيهقي ص ٣٠٩.

وقد أحسن القائل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه      ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى  
ولو كان ذا عقل لما عاب غيره      وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى<sup>(١)</sup>

وأيضًا فإن الإنسان بما أعطاه الله من عقل وبصر وحنكة يحتال في تدبير أموره وأحواله ما استطاع كما يقال: «الأحذب يعرف كيف ينام» بل إن الحيوانات عندها شيء من التدبير لأحوالها حسب ما أعطها الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، أي: هداه لما خلق له، ومن هنا ترى النمل يدخر قوت الشتاء في الصيف، وتغذو الطيور أول النهار خصا في طلب العيش، وتروح آخر النهار إلى أوكارها مليئة البطون.

#### الفوائد والأحكام:

- ١- إقسام الله - عز وجل - بيوم القيامة والنفس اللوامة - على أن البعث وإحياء الموتى حق؛ لقوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿٢﴾﴾، والله - عز وجل - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢- في إقسامه - عز وجل - بالقيامة تعظيم لشأنها وأمرها، وفي إقسامه بالنفس اللوامة توجيهه إلى التأمل في طبيعتها وكثرة تلونها وتلومها، ومن ثم حملها على ما فيه صلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.
- ٣- استبعاد المكذبين للقرآن بعث الأجساد وإنكارهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ﴾.
- ٤- إثبات قدرة الله - عز وجل - على بعث الأجساد وجمع أجزائها جميعًا معها دقت، ومن ذلك أطراف الأصابع والبصمات؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَاهُ﴾.
- ٥- رغبة الكافر بالاستمرار على الكفر والفجور وتكذيبه بيوم القيامة وسؤاله عنه استبعادًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِفَجْرٍ آمَامَهُ﴾، ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.
- ٦- شخوص البصر وحيرته وانبهاره من شدة أهوال يوم القيامة، ومنها خسف

(١) انظر: «نفع الأزهار» ص ٦٠، «السحر الحلال» ص ٨٢.

القمر وجمع الشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾.

٧- طلب الكافر المكذب المفر والمهرب في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾، ولكن هيهات لا مفر ولا محيد ولا ملجأ ولا منجى في ذلك اليوم من الله إلا إليه، إليه المستقر والمعاد وهو لجميع الخلق بالمرصاد.

٨- إثبات الربوبية الخاصة والعامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾.

٩- إخبار الإنسان في ذلك اليوم بما قدم من أعمال صالحة، وما آخر منها فلم يعملها، وما قدم من أعمال سيئة، ومجازاته على ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْئُتُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾.

١٠- أن الإنسان بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأفعاله، حسيب على نفسه شهيد عليها، مهما التمس لها الأعذار وجادل عنها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ **فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴿١٨﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴿١٩﴾ **كَلَّابٌ خَفِيضٌ فَالْجَالِةُ** ﴿٢٠﴾ **وَنَذْرُونَ الْأَخْرَةَ** ﴿٢١﴾ **وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ** ﴿٢٢﴾ **إِلَّا رِيحًا نَافِثَةً** ﴿٢٣﴾ **وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ** ﴿٢٤﴾ **تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** ﴿٢٥﴾ .

### سبب النزول:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفثيه فأنزل الله - عز وجل - : ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ - كما قرأه» (١)

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقي منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفثيه، يتلقى أوله ويحرك شفثيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾» (٢).

قوله: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، «لا» ناهية، والخطاب للنبي ﷺ، والضمير في «به» في الموضعين يعود إلى القرآن الكريم، وهو غير مذكور - فيما تقدم من السورة، لكنه معلوم.

والمعنى: لا تحرك بالقرآن لسانك؛ لأجل الاستعجال به، وأنصت واستمع لما يلقي إليك منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٤﴾ [طه: ١١٤].

وقد كان ﷺ إشفاقاً منه وحرصاً - يبادر إلى أخذه من الملك ويسابقه في قراءته، ويحرك لسانه وشفثيه؛ ليحفظه خشية أن يضيع منه شيء، أو يفوته، فنهاه الله - عز

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥، ومسلم في الصلاة - الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ١/٣٤٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٨٧.

وجل - عن ذلك وتكفل له بجمعه فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، أي: إن علينا جمعه في صدرك وحفظه فيه، وتيسير قراءته وتلاوته عليك كما أنزل - كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٢٣، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾، أي: إذا قرأه عليك جبريل عن الله عز وجل، وأكمل قراءته: ﴿فَاتَّبَعْ قُرْآنَهُ﴾، أي: فاقراه بعده كما أقرأك، فأمر ﷺ بالمتابعة، ونهي عن العجلة والموافقة. والمتابعة مجيء الشيء بعد الشيء، والموافقة: مجيء الشيء مع الشيء.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي: ثم بعد جمعه في صدرك وتلاوتك له كما أنزل، فإن علينا تفسيره وبيان معانيه، وما فيه من الأحكام والحكم والآداب والأخلاق وغير ذلك. وبهذا تكفل الله - عز وجل - لرسوله ﷺ بتيسير تدبر القرآن له، حفظاً وتلاوة لألفاظه، وفهماً لمعانيه، وتطبيقاً لأحكامه؛ ولهذا بين ﷺ لأمته هذا القرآن أتم بيان بأقواله وأعماله وتقريراته.

كما أمر عز وجل الأمة بتدبره، فقال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَنِ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) [محمد: ٢٤].

ويؤخذ من هذا التأي والتثبت في طلب العلم، وأنه ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويستمع إلى معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يقاطعه أو يبادره قبل فراغه.

كما يؤخذ منه أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه. ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) ﴿وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمة والكسائي وعاصم بالخطاب في: ﴿تُحِبُّونَ﴾، و ﴿وَتَذُرُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيب فيهما.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما ترعمون أن لا بعث ولا حساب.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، «بل»: للإضراب، أي: بل تحبون الدنيا العاجلة الفانية فتعملون لها وتتنافسون فيها؛ لأن لذاتها ونعيمها عاجل، والإنسان مولع بحب العاجل وإيثاره على الآجل.

﴿وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾، أي: وتركون العمل للآخرة الباقية والمصارعة والمسابقة إليها والمنافسة فيها؛ لأنها متأخرة وأجلة، فحملكم حب الدنيا العاجلة الفانية على الفجور والتكذيب، وشغلكم عن الاستعداد للآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأساس كل بلية وسبب كل رزية، فما حصل من كفر وتكذيب فبسببها، وما حصل من ذنوب ومعاصي فبسببها، وما حصل من عداوة وبغضاء حتى بين الأقارب فبسببها؛ ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»<sup>(١)</sup>.

وقد ذم الله - عز وجل - الدنيا وبين حقارتها ودناءة منزلتها، كما امتدح الآخرة وبين عظم منزلتها بما فيه الكفاية لأولي العقول والبصائر لكن حب الدنيا يعمي ويصم:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٦- من حديث عمرو بن عوف - رضي الله عنه.

كم واثق بالعمر أفنيتيه وجامع بددت ما يجمع (١)

قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

بين عز وجل في الآيتين السابقتين أن مما حمل على الفجور والتكذيب إثارة الحياة الدنيا على الآخرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما يدعو لإثارة الآخرة على الدنيا بذكر الفرق بين حال المنعمين وحال المعذنين في ذلك اليوم.

قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾، «ناصرة»: من النضارة والحسن والبهاء، أي: وجوه يومئذ حسنة بهية مشرقة متهللة مسرورة عليها رونق ونور لما هي فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

وقال ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على هيئة البدر» (٢).

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، «ناظرة»: من النظر، أي تنظر إلى ربها وتراه عياناً، كما قال -ﷺ: «إنكم سترون ربكم عياناً» (٣).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كذلك» (٤).

وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «نظر رسول الله ﷺ - إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على

(١) البيتان لحظة. انظر: «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للتوحي ١٩٨/٤، «المجموع الليف» ص ٤٦٤، «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» ٥٥٠/٢.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٢٣٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٥ - من حديث جرير بن عبد الله - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧٤، ومسلم في الإيثار - معرفة طريق الرؤية ١٨٢.

صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»<sup>(٢)</sup>.

وعن صهيب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يتجلى للمؤمن يضحك يعني في عرصات القيامة»<sup>(٤)</sup>.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»<sup>(٥)</sup>.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الصريحة في الدلالة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. وعليه يدل مفهوم قوله تعالى في الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن كثير<sup>(٦)</sup>: «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله - عز وجل - في الدار الآخرة في

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٣٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان - إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٨، ومسلم في الإيمان ١٩١.

(٥) أخرجه أحمد ١٣/٢، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٣٠.

(٦) في «تفسيره» ٣٠٦/٨.

الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها». وبعد أن ذكر بعض هذه الأحاديث قال: «وهذا بحمد الله يجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام». وقال السعدي في الكلام على الآية (١): «أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر الذي ليس كمثلته شيء».

﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِأْسِرَةٍ﴾، أي: ووجوه في ذلك اليوم «بأسرة»، أي: عابسة كالحلة كاشرة مسودة حزينة خاشعة ذليلة، وهي وجوه الكفار، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ﴾ (٤١) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (٤٢) [عبس: ٤٠-٤٢]. وقال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خٰشِعَةٌ﴾ (٢) ﴿عَامِلَةٌ نٰصِبَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا حٰمِيَةً﴾ (٤) [الغاشية: ٤-٤].

﴿نَظَرُ أَنْ يُفَعَلَ بِهَا قَفَرَةٌ﴾، أي: تستيقن أن يفعل بها داهية وأمر عظيم مهلك يقصم فقار الظهر ويقطعها، أي: تستيقن أن مصيرها ومآلها إلى عذاب النار وبئس المصير.

### الفوائد والأحكام:

١- نهي الله - عز وجل - لنبية ﷺ عن تحريك لسانه استعجالاً بالقرآن وحرصاً منه ﷺ وخوفاً من فوات شيء منه، وتكفل الله - عز وجل - له بجمعه وقراءته وبيانه له؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

٢- ينبغي أن يقرأ المتعلم للقرآن بعد نهاية قراءة معلمه، وينبغي التثبت والتأني في طلب العلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨).

٣- بيان الله - عز وجل - لنبية ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩).

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٥٢٦-٥٢٧.

- ٤- التنديد بمن يحبون الدنيا العاجلة الفانية، فينشغلون بها عن الآخرة الباقية والتهديد والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.
- ٥- تحقير الدنيا، ورفع شأن الآخرة.
- ٦- نضارة وحسن وجوه أهل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهُ يُومِذِنَاصِرَةٌ﴾.
- ٧- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.
- ٨- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.
- ٩- بسور وجوه الكفار ومساءتها من شدة الهول والعذاب، وتوقع ما هو أدهى وأعظم وأشد؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهُ يُومِذِنَبَاسِرَةٌ﴾ ﴿٢٤﴾ تَطُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ لَهَا رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَاللَّتِي السَّاقُ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَلَفَ وَلَا صَلَٰءَ ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلَنَّا ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِيهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُن مِّن مِّن مِّنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُّخَالِقًا فَسَوَىٰ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ۞

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة انقسام الناس في الآخرة إلى مسرور منعم، ومحزون معذب، ثم ذكر ما يسبق ذلك من حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال والفرع، ثم توعد عز وجل من خالف أمره وكذب وتولى، ثم ختم السورة بما بدأها به وهو إثبات البعث والمعاد والقيامة.

قوله: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، «كلا»: للردع والزجر والتهديد، أي: سيعلمون سوء عاقبة أمرهم في تلك الحال ويندمون حين لا ينفع الندم. ويحتمل كونها بمعنى: حقًا، أي: حقًا عندما يحصل ما ذكر وتقبض الروح فإن المساق إلى الله.

أي: كلا إذا انتزعت الروح من الجسد وبلغت التراقي. والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين النحر والعاتق «وهي قريبة من الحلقوم؛ ولهذا قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَّنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الآيات: ٨٣-٨٧].

وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ - بصق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم أتى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأتّى أوان الصدقة»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد ٤/٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، أي: مَنْ راقٍ يرقى، وَمَنْ طبيب شاف يداوي. مِنْ رقى يرقى كرمى يرمي، ومصدره: «رقية».

قال السعدي<sup>(١)</sup>: «أي: مَنْ يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت عنهم الأسباب العادية فتعلقوا بالأسباب الإلهية».

وقيل مَنْ يرقى بروحه من الملائكة؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ مِنْ رقى يرقى كشفى يشقى، ومصدره «رُقِيَّ» فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. والأظهر القول الأول.

﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾، أي: وأيقن وجزم أن الذي نزل به هو الفراق للأهل والولد والمال، وللدنيا كلها والانتقال للآخرة.

﴿وَالنَّفْسِ السَّاقِطِ بِالسَّاقِ﴾، أي: التوت والتصقت واجتمعت ساقا الميت إحداهما بالأخرى بعد موته ولفه في الكفن.

والنفت عليه شدة الدنيا وشدة الآخرة في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وعظم الأمر وصعب الكرب.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، أي: إلى ربك يا محمد ورب كل مخلوق ذلك اليوم السوق والمرجع والمال والمآب، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ مُرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجنات: ٢٦].

وفي حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - في قبض روح العبد المؤمن قوله ﷺ: «فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥٢٧/٧.

السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبي في عليين وأعيدوه إلى الأرض.. الحديث<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۗ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۗ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّي ۗ (٣٣)﴾.  
إخبار من الله - عز وجل - ووصف لحال الكافر في الدنيا.

قوله: ﴿فَلَا صَدَقَ ۗ﴾، أي: فلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما يجب الإيمان به من المغيبات، وبما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَلَا صَلَّىٰ ۗ﴾، أي: ولا صلى الصلوات المفروضة وغيرها، وخص الصلاة من بين الواجبات؛ لعظم مكانتها في الإسلام فهي الصلة بين العبد وبين ربه، وأعظم العبادات البدنية وأهمها، وهي عمود الإسلام.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۗ﴾، أي: ولكن كذب بقلبه ما جاء من الحق عن الله ورسوله، وما أخبر به الكتاب والسنة من المغيبات.

﴿وَتَوَلَّىٰ ۗ﴾: أعرض بجوارحه عن الصلاة وغيرها مما جاء من الحق فلم يعمل به.  
قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه، متوليًا عن العمل بقلبه، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا».

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّي ۗ﴾، أي: يتبختر ويختال في هيئته ومشيته أشرا وبطرا، فكها مسرورا، غير وجل ولا خائف مما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۗ (٣١)﴾ [المطففين: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۗ (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۗ (١٤) بَلَّغَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۗ (١٥)﴾ [الانشقاق: ١٣-١٥].

بل إن هؤلاء الكفرة المكذبين من كبرهم وغرورهم يطمعون أن يكونوا أحسن من غيرهم في الآخرة، كما قال قائلهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتَ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ

(١) سبق تخرجه.

(٢) في «تفسيره» ٣٠٧/٨.

لَلْحُسْنَىٰ فَلَنْتَبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْدَيِّقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ [فصلت: ٥٠].

وكما قال صاحب الجنة: ﴿وَلَيْنَ زُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

[الكهف: ٣٦].

وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ

الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾

[مريم: ٧٧-٧٩].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إذا مشت أمتي

المطيبياء، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط شرارها على خيارها»<sup>(١)</sup>.

﴿أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ زجر وتهديد شديد، ووعيد أكيد لمن جمع بين تكذيب الحق بقلبه

والإعراض عنه بجوارحه، وبين الاختيال والأشر والبطر والسرور بما هو عليه من الشر.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال

في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

[الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَنَعُوا لِقِيلِ الْإِنكِرِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله: ﴿فَاعْبُدُوا

مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].»

﴿ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ تأكيد للتهديد ووعيد على إثر وعيد.

وقد قيل إن هذه الآيات نزلت في أبي جهل.

﴿أَيْحَسِبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أيطن الإنسان- يعني

الكافر- أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيثاب أو يعاقب، فهذا ينافي

حكمة الله- عز وجل- في خلقه له، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ

لَا تَرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾

[المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٦١، وابن المبارك في «الزهد» ١٨٧ وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) في «تفسيره» ٣٠٨/٨.

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب، فإن الله سبحانه - أنكر على من حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبه إليه، ونفي منكر على من حكم به وظنه».

﴿الزَيْكُ نُطْفَةٌ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: بلى، لقد كان الإنسان هكذا.

و«النطفة» هي الماء القليل، أي: لقد كان الإنسان «نطفة» أي ماءً قليلاً مهيناً كما

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَلَقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿مِنْ مَّيِّمٍ﴾، أي: من ماء الرجل.

﴿يُمْنِي﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: ﴿يُمْنِي﴾ بالياء على التذكير، وقرأ

الباقون: «تمنى» بالتاء على التأنيث.

ومعنى ﴿يمنى﴾، أي: يصب ويراق في أرحام النساء، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ

مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

﴿يُمُّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾، أي: ثم كان علقه من الدم تعلق في جدار الرحم،

﴿فَخَلَقَ﴾، أي: فخلق العلقه مضغمة، ثم خلق المضغمة عظاماً ثم كسا العظام لحماً، ثم

أنشأه خلقاً آخر.

﴿فَسَوَّى﴾، أي: فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه على أحسن حال، تام الأعضاء، معتدل

القامة، ناطقاً سمعياً بصيراً.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢﴾

[الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا

الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥ / ٨٣.

أَيُّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وفي حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقه مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»<sup>(١)</sup>.

﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾، أي: الصنفين والجنسين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾.

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾، أي: أليس الذي خلق الإنسان ونقله في هذه الأطوار المختلفة قادراً على إحياء الموتى وبعثهم.

والاستفهام كسابقه: للتقرير.

والجواب عن الاستفهامين بأن يقال: «بلى» أو «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»

أو بلى إنه على كل شيء قدير.

أي: فالقادر على خلق الإنسان بعد أن كان عدماً من هذه النطفة مروراً بمراحل الخلق بعدها حتى صار خلقاً سوياً قادر من باب أولى وأحرى على أن يحيي الموتى بعد موتهم، وهذا أهون عليه كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُاَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ. وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، وكمال قدرته وحكمته، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثاً، ويتركها سدى بعد كمال خلقها».

وعن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ

ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ﴿٤٠﴾؟ قال: سبحانك، فبلى، فسأله عن ذلك، فقال: سمعته

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي

في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٩٠/٥.

من رسول الله ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وروي عن أبي هريرة- رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَكَمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾؟ فليقل: بلى ومن قرأ ﴿وَأَلْتَرَسَلْتِ﴾ فبلغ: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ فليقل: آمنا بالله»<sup>(٢)</sup>.

وعن قتادة قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبيلى»<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾؟ فقال: «سبحانك، فبلى»<sup>(٤)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- التذكير بساعة الاحتضار والفراق والرجوع إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ﴾<sup>(٦)</sup>.

٢- إذا نزل الموت ضاق الفضاء، وبطلت الحيل، ولم تجد الأسباب.

٣- جواز الرقية وطلب الاستشفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

الْمَسَاقُ﴾<sup>(٣٠)</sup>.

٥- الردع والزجر والوعيد والتهديد للكافر الذي لم يصدق بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ ولم يصل لله، بل كذب بقلبه وتولى بيده وجوارحه، ومشى بين الناس

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- باب الدعاء في الصلاة ٨٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٣٨٩/١٠. قال ابن كثير في «تفسيره» ٣٠٩/٨. «: تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- مقدار الركوع والسجود ٨٨٧، والترمذي في تفسير سورة التين ٣٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٥٢٨/٢٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٣٨٩/١٠.

مختللاً متكبِّراً معجباً بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۖ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَقَتَلٰٓءَ ۗ ثُمَّ أَهْلَيْهِ يَتَمَطَّىٰ ۚ ۞﴾ (٣٢) ﴿أُولٰٓئِكَ فَآوَىٰ ۖ ثُمَّ أُولٰٓئِكَ فَآوَىٰ ۚ ۞﴾ (٣٤).

٦- أن الصلاة أعظم العبادات في الإسلام، وتركها كفر لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۖ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَقَتَلٰٓءَ ۗ ثُمَّ أَهْلَيْهِ يَتَمَطَّىٰ ۚ ۞﴾ (٣٢).

٧- الحذر من عدم التصديق بما جاء عن الله وترك الصلاة والتكذيب والتولي والكبر والاختيال والإعجاب؛ لأنها صفات الكفار.

٨- إثبات البعث والحساب والجزاء، وبيان أن اعتقاد الكافر أنه متروك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيجازى بعمله ينافي حكمة الله عز وجل في خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۚ ۞﴾ (٣٦).

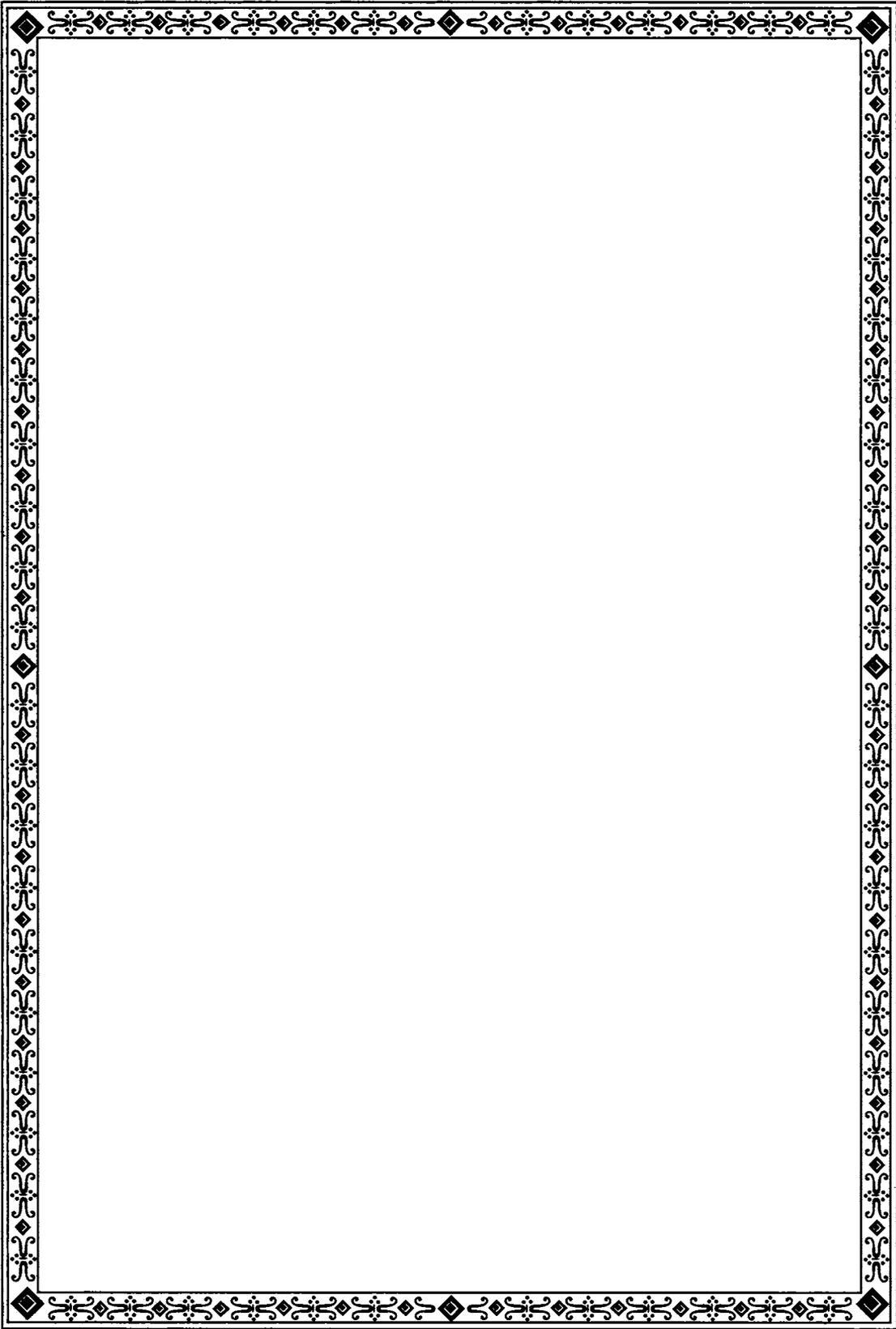
٩- تقرير الإنسان وتذكيره بنعمة الله - عز وجل - عليه في إيجادهِ ونقله في أطوار خلقه وضعفه إلى أن صار بشراً سوياً سميعاً بصيراً؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي كَفَّ نَفْسَهُ مِن مِّمِّي يَعْنِي ۚ ۞﴾ (٣٧) ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَمَخْلَقَ فَسَوًى ۚ ۞﴾ (٣٨) ﴿فَجَعَلْنَا مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنثَىٰ ۚ ۞﴾ (٣٩).

١٠- إثبات قدرة الله - عز وجل - التامة على البعث وإحياء الموتى؛ لأن الذي خلق الخلق من العدم قادر على إعادة خلقهم من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ ۞﴾ (٤٠).

\* \* \*



# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الإنسان»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١).

وتسمى: «سورة هل أتى على الإنسان»، كما تسمى أيضًا: «سورة الدهر»، و«سورة الأبرار»، و«سورة الأمشاج».

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ﴿الْمَرَّ (١) تَنْزِيلًا﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ (١).

## د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر نعمة الله تعالى على الإنسان في إيجاده بعد العدم، وفي كيفية إيجاده وإمداده بالحواس، وهدايته السبيل ببيان طريق الخير وطريق الشر: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣).

٢- التهديد والوعيد للكافرين: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْتَدْنَا وَسْعِيرًا﴾ (٤).

٣- بيان عظم ما أعد الله للأبرار من ألوان النعيم وامتداحهم والثناء عليهم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٦) ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينَتُنَا وَإِنَّمَا﴾ (٨)

(١) أخرجه البخاري في الجمعة - ما يقرأ في يوم الجمعة ٨٩١، وسلم في الجمعة ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح

٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

تُطْعِمُكُمْ لَوْجِهِ اللَّهُ لَا تَرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ  
الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا  
شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٢٢﴾.

٤- الامتنان على النبي ﷺ بتنزيل القرآن عليه، وتسليته وتقوية قلبه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا  
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٣٤﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً  
وَأَصِيلًا ﴿٣٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٦﴾.

٥- تخويف الكافرين يوم القيامة وأهواله: ﴿إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ  
وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾.

٦- إثبات الاختيار للإنسان وأن مشيئته تبعاً لمشيئة الله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ  
اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ  
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ  
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾  
قوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

«هل»: حرف استفهام للتقرير بمعنى «قد»، أي: قد أتى على الإنسان وقت طويل  
من الدهر لا وجود له ولا ذكر، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ  
يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧].

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يُذكر لحقارته وضعفه».

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: أوجدناه من نطفة، وهي المنى، كما قال تعالى:  
﴿الْوَيْكُ نُّطْفَةٌ مِّن مَّيِّ يُمْنِي ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿أَمْشَاجٍ﴾، أي: أخلاط من عناصر مختلفة، من ماء الرجل وماء المرأة، ثم ينتقل  
من طور، إلى طور ومن حال، إلى حال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن  
طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً  
فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ  
الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، أي: نختبره بالتكاليف، أيعمل بما خلق له أم لا، كما قال عز وجل:  
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ  
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، أي: كملنا خلقته وحواسه، ومنها السمع والبصر، والتي  
هي من أهم ما أنعم الله به على الإنسان بعد العقل - لأنها طريقا المعرفة إليه، فبالسمع  
يسمع الإنسان الآيات الشرعية، وبالبصر ينظر في آيات الله الشرعية والكونية.

(١) في «تفسيره» ٨ / ٣١٠.

وقد يكون السمع والبصر نقمة على الإنسان إذا استعملها في سماع الباطل والنظر إليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾، أي: دللناه على طريق الحق وأرشدناه إليه بما أنزلنا من الوحي في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي الكريم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٠﴾  
[البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٤﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنَّمَا شَاكِرًا﴾، «إما»: أداة تفصيل، أي: إما شاكراً لله - عز وجل - نعمه العظيمة عليه، بخلقه وإيجاده من العدم، ومنحه السمع والبصر، ودلالته وإرشاده إلى طريق الحق، وذلك بسلوك طريقه المستقيم، والإقرار والاعتراف بنعمه عليه واستعمالها في طاعته - عز وجل.

﴿وَأَمَّا كَفُورًا﴾ بربه جحوداً لنعمه، مستعملاً لها في معصيته، معرضاً عن الحق بقلبه متولياً عنه ببدنه.

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكراً، وإما كفوراً»<sup>(١)</sup>  
وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٨﴾ قَدْ أَلْحَمْنَا مِنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وكقوله - ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»<sup>(٢)</sup>.

وقد تضمنت هذه الآيات الثلاث أول أحوال الإنسان ووسطها ومنتهاها. فقد كان عدماً، ثم خلقه الله وأوجده وأتم خلقه، ثم بين له طريق الخير وطريق الشر في كتبه وعلى السنة رسله عليهم الصلاة والسلام، فانقسم الناس إلى شاكر لنعم الله قائم

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة - فضل الوضوء ٢٢٣ - من حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه.

بحقوقه، وإلى كفور بربه وبنعمه، ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريقين في الآخرة وجزائهم.

### الفوائد والأحكام:

- ١- امتنان الله - عز وجل - على الإنسان في إيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾.
- ٢- أن الإنسان خلق من ضعف، من نطفة وأخلاق من ماء الرجل والمرأة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار إنساناً سوياً سمياً بصيراً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾.
- ٣- أن الله - عز وجل - خلق الإنسان وأوجده للابتلاء والامتحان، لينظر أيشكر أم يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ۝٣﴾.
- ٤- أن نعمة السمع والبصر من أعظم النعم فعلى الإنسان أن يستعملها فيما ينفعه في دينه ودنياه.
- ٥- لا عذر للإنسان ولا حجة له، فقد بين الله عز وجل له طريق الخير وأمره بسلوكة وبين له طرق الشر وحذره منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ۝٤﴾.
- ٦- أن العبد فاعل مرید بمشيئة الله تعالى، لا يستقل بفعله، وليس مجبراً على أفعاله، فله أن يختار طريق الشكر، وله أن يختار طريق الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ۝٥﴾، وفي هذا رد على القدرية والجبرية.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ وَبِسَاتٍ مَسْكِينًا وَنَبِيئًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَآئِكُمْ إِذَا خَشِيتُمْ مِنَ رَبِّكُمْ إِعْتَادَ الْبُغْيَاءِ ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَطَافَ عَلَيْهِم بِمَائِدَاتٍ مِّنْ فَضْوٍ وَكُؤُوبٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدْرُوهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمْرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضْرٌ أُخْضِرُ وَإِسْتَبْرَقٌ وَطَلْحُومٌ أُسْوَدٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمُ رُبُّهُمْ شَرَابًا مَّطْهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا ﴿٢٢﴾﴾

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أنه أوجد للإنسان وهداية وأرشدته إلى طريق الحق وهو إما شاكر لربه ونعمه عليه سالك طريق الحق، وإما كفور بربه ونعمه معرض عن الحق، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لكل فريق، وأنه أعد للكافرين السلاسل والأغلال والسعير والعذاب الأليم، وأعد للآبرار أصناف النعيم من نضارة الوجوه وسرور القلوب والمسكن والملابس والحلي والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم المقيم والملك الكبير. ونبه بما ذكر من نعيم الآبرار بعظم نعيم من فوقهم في المنزلة، وهم المقربون، والذين ذكر الله من نعيمهم أنهم يشربون من عين الكافور، كما قال تعالى:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: إنا أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا للكافرين بالله المكذبين لرسله الجاحدين لشرعه.

﴿سَلَاسِلًا﴾ جمع سلسلة، ممنوع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجموع، أي: سلاسل يُسلكون بها ويسحبون في الجحيم.

﴿وَأَغْلَالًا﴾، يغلون ويقيدون بها ويوثقون، وتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم،

ونواصيهم إلى أقدامهم، كما قال تعالى: ﴿ إِذِ الْأَعْلَالُ فِي أَغْتَابِهِمُ وَالسَّلْسَلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ تُرْفَفُ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ تَرَفُّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿الحاقة: ٣٠-٣٢﴾، وقال تعالى: ﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿الرحمن: ٤١﴾، وقال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَوَاقِحُ أَحَدًا ﴿الفرج: ٢٥، ٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ وَسَعِيرًا ﴾، أي: ونازًا مستعرة ملتهبة تسعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْغَدْرِ وَغَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حَبِّهِ وَسِكِّينًا وَبَيْمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله - عز وجل - ما أعدده للكافرين من السلاسل والأغلال والسعير ذكر ما أعدده للأبرار من أنواع النعيم ممتدحًا لهم على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، ليجمع العبد بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ الأبرار: جمع «برّ»، وفي معناه: «بار»، ويجمع على «بررة». و«البرُّ» و«البار» مأخوذ من «البرّ» وهو في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهو الذي تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، كما قال ﷺ: «البر ما سكنت

إليه النفس، واطمأن إليه القلب»<sup>(١)</sup>.

ومنه حسن الخلق، كما قال ﷺ: «البر حسن الخلق»<sup>(٢)</sup>.

والمراد بالأبرار في الآية من فعلوا الواجبات وتركوا المنهيات، ومن ذلك الوفاء بالندى، وإطعام الطعام للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى مع الإخلاص لله تعالى في ذلك، والخوف من عذابه ومن أهوال يوم القيامة، والصبر في ذات الله كما قال تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِيئًا وَبَيْمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لوجهِ اللَّهِ لَا تَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ۝١٠﴾ والمراد بهم أصحاب اليمين<sup>(٣)</sup>.

﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾، أي: من كأس الخمر اللذيذ الذي لا يُنزفون بسببه ولا يُصدعون.

﴿كَانَ مِرْآجُهَا كَأُفُورًا﴾ مزاجها: ما تمزج به، أي: كأس خمر ممزوجة بالكافور ليبرده ويكسر حدته.

والكافور: نبت بارد طيب الرائحة - وفرق ما بين كافور الدنيا وكافور الجنة قال ابن عباس - رضي الله عنهما - «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»<sup>(٤)</sup>.

ولهذا تنتفي عما في الجنة جميع الآفات التي تصيب ما يائها في الدنيا في الاسم، كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَحْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨] فقوله: ﴿مَحْضُودٍ﴾، أي: قد خضد وقطع شوكة وهو آفة السدر في الدنيا يؤذي من يريد قطعه.

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۝﴾ [آل عمران: ١٥]، أي: مطهرة من الحيض والنفاس والبول والغائط وغير ذلك من الأدناس، التي في نساء الدنيا.

(١) أخرجه أحمد، ٤/١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣ من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.  
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩ - من حديث النواس بن سمعان - رضي الله عنه

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى: في سورة الواقعة ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ [الآية: ٢٧].

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/٢٥٧، ١١/٤٨٢، «بدائع التفسير» ٥/٩٨.

وقال تعالى: ﴿ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أي: دار السلامة من الآفات التي في دار الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، «عينًا»: منصوب بدل من «كافورا»، أي: ذلك الكأس اللذيد ممزوج بكافور من معين لا ينضب ولا ينقطع، وهي عين الكافور.

ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشربون ويروون؛ ولهذا قال: «بها»، ولم يقل: «منها»؛ لأن الفعل: «يشرب» ضمن معنى «يروى» ومن هذا قول الشاعر:

شربن بهاء البحر ثم ترفعت متى لجج خضرٍ لهن نسيج<sup>(١)</sup>

والمراد بالعبودية في قوله: ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ العبودية الخاصة، وأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم، والمراد بهم المقربون، وهم خاصة الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ﴾<sup>(٢٧)</sup> عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ ﴿٢٨﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨].

قال ابن تيمية<sup>(٢)</sup>: «وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفاً خالصاً، كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا مع ما في ذلك من مقابلته للسعير».

وقال ابن كثير<sup>(٣)</sup>: «أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج، ويروون بها».

أي: فالأبرار وهم أصحاب اليمين يشربون من كأس ممزوجة بالكافور. والمقربون يشربون صرفاً من عين الكافور.

كما يشرب الأبرار من خمر ممزوج بالتسنيم، ويشرب المقربون صرفاً من عين التسنيم كما قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾<sup>(٢٥)</sup> خِتْمُهُ مِسْكٌ ﴿٢٦﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنْفَسُونَ ﴿٢٦﴾

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/ ٥١، ٥٢.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٣١٢.

وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ [المطففين: ٢٥-٢٨].

﴿يَفْجِرُونَهَا فَجِيرًا﴾، أي: يصرفون جداولها ويقدرون ينابيعها ويجرونها حيث شاءوا، وأين شاءوا من بساتينهم ودورهم وقصورهم ورياض الجنة وغير ذلك، بدون كلفة، ومن غير أحاديث.

﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، أي: من صفات الأبرار: الوفاء بالندر.

والندر: ما أوجبه الإنسان على نفسه من التزامات وعهود. والوفاء به واجب.

قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»<sup>(١)</sup>.

وإذا كانوا يوفون بالندر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم فهم يقومون بالواجبات والفروض الأصلية التي أوجبهها الله عليهم من باب أولى وأحرى.

قال ابن تيمية<sup>(٢)</sup>: «وذكر سبحانه الوفاء بالندر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجب على نفسه التزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو، فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى».

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾، «يومًا» مفعول به منصوب لـ «يخافون»، وهو يوم القيامة.

ولا يصح أن يعرب ظرفًا؛ لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

ونكر «يومًا»: للتعظيم والتفخيم والتهويل، كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَلَقَّبَ فِيهِ

الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ [النور: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ [الإنسان: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧].

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والندور - النذر في الطاعة والندر فيما لا يملك وفي معصية الله ٦٦٩٦، وأبو داود في الأيمان والندور ٣٢٨٩، والنسائي في الأيمان والندور ٣٨٠٦، والترمذي في الندور والأيمان ١٥٢٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٦ - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِرًّا﴾، أي: كان شر هذا اليوم وهوله وكربه وعذابه قاسياً ممتداً طويلاً منتشرًا غاية الانتشار، عامًا لجميع الناس إلا من رحم الله، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

لأن الناس في هوله وكربه على قدر أعمالهم فمنهم من يبلغ العرق إلى ساقيه ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إجمالاً - كما جاء في الحديث (١).

وهم في مرورهم على الصراط كذلك على قدر أعمالهم منهم من يمر كالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يجبو حبواً - كما جاء في الحديث (٢).

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾، أي: في حال محبتهم له، إما لحاجتهم إليه أو لغير ذلك، وذلك منهم تقديماً لمحبة الله - عز وجل على محبة أنفسهم، وإيثاراً لغيرهم من المحتاجين على أنفسهم، وإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق الله وحقوق العباد أبذل قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنْ نَأَلُوا اللَّيْلَ حَتَّىٰ تَنْفِقُوا مِمَّا مَحَبُوبٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ: «خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتحشى الفقر» (٣).

(١) أخرجه مسلم في الإيذان ١٨٣، وأحمد ٣/ ٢٥، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٨، ومسلم في الزكاة - بيان أفضل الصدقة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ١٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنه - مرض فاشتهدى عبناً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفيية - يعني امرأته - فاشتريت عنقوداً بدرهم فاتبع الرسول السائل، فلما دخل به قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت عنقوداً فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفيية إلى السائل. فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به» (١).

﴿مَسْكِينًا﴾ وهو الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله، مأخوذ من المسكنة، وهي الذل والانكسار، وسكون الحركة؛ لأن الفقر - عياداً بالله منه - يذل صاحبه. إن جلس فبمؤخرة المجلس، يؤثر السكوت دائماً؛ لأنه إن تكلم لم يُسمع، وإن سُمع لم يصدق، لا وزن له ولا قيمة عند كثير من الناس الذين يَزِنُون الناس بالدرهم والدينار.

﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الذي فقد أباه وهو دون البلوغ، ولا شيء له، ذكراً كان أو أنثى، مأخوذ من اليتيم، وهو الانفراد فإذا بلغ زال عنه اليتيم، لقوله - ﷺ - «لا يتم بعد احتلام» (٢).

﴿وَأَسِيرًا﴾ وهو: المأسور المحبوس المسجون، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأسير: الرقيق. والظاهر أن الأسير هو المأسور المحبوس حراً كان أو عبداً مسلماً كان أو كافراً. فهو يشمل الرقيق وغيره، بل إن الرقيق أيضاً يدخل ضمن المساكين والأيتام. وفي كونهم يخصصون بالإطعام هذه الأصناف الثلاثة المحتاجة دليل على أنهم لا يريدون بذلك مكافأة - كما يفعل بعض من يعاوضون بإطعامهم وإنفاقهم، بل

(١) أخرجه البيهقي في سننه - فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨ / ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

ويعاوضون بإنصافهم وقولهم كلمة الحق أو سكوتهم عن الباطل - ولهذا قال بعده:  
﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾، أي: قائلين لهم بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً  
وَلَا شُكْرًا﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: «أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من  
قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب»<sup>(١)</sup>.

وما قاله مجاهد وسعيد بن جبير جيد من حيث المعنى؛ لأن حمل الآية على أنهم  
قالوه بلسان المقال فيه بعد من وجهين: الأول: أنه لا يُستحسن أن يقال للمتصدق عليه  
هذا المقال.

والثاني: أنه لا يستحسن أن يقول المتصدق أنا أطعم لوجه الله؛ لأن الله أعلم بنيتة  
وسريرته.

و «إنما» أداة حصر. والمعنى: ما نطعمكم إلا ابتغاء وجه الله، وطلب مرضاته،  
ورجاء ثوابه.

وقوله: ﴿لَوَجْهِ اللَّهِ﴾، أي: لله - عز وجل - ويعبر بالوجه لشرفه.  
﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً﴾، أي: لا نطلب منكم مجازاتنا بالمال على إطعامنا لكم.  
﴿وَلَا شُكْرًا﴾، «شكورا»: مصدر كالقعود، أي: ولا نريد منكم أن تشكرونا بالثناء  
علينا عند الناس بالقول واللسان مقابل ذلك.

فتضمن فعلهم: تقديم محبة الله على محبة نفوسهم، والإخلاص، والإحسان.  
وأركان الشكر في الأصل ثلاثة: الاعتراف بنعمة المنعم، والثناء عليه بها،  
والاستعانة بها على رضاه.

وحيث جمع هنا بين الجزاء والشكور حسن حمل الجزاء على المجازاة بالمال، وحمل  
الشكر على الثناء بالقول.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن في جميع صدقاته وأعماله مخلصًا للعمل لله لا يطلب  
على شيء من ذلك مجازاة من الناس أو شكرًا منهم.

(١) أخرجه عنها الطبري في «جامع البيان» ٥٤٦/٢٣.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾، أي: شديد الجهمة والشر، تعبس فيه وجوه الكفار والعصاة وتكلح. والعبوس: قبض ما بين العينين.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ [الآية: ١٠] فصديقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الآية: ٧].»

﴿قَطَطِيرًا﴾: شديد العبوس، شديدًا هوله، عظيمًا بلاؤه، طويلًا أمده.  
قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر<sup>(٢)</sup>  
فحملهم خوفهم من الله وعذابه في هذا اليوم الشديد على القيام بما يكون سببًا  
لنجاتهم في هذا اليوم من فعل الطاعات والكف عن المعاصي.

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾، أي: حفظهم الله وحامهم وكفاهم شر ذلك اليوم وأذاه  
وعذابه، وسهل عليهم شدائده وكرباته، وأمنهم مما يخافون.

كما قال عز وجل: ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْقَنْعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَهُمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمَكُمُ  
الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا  
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَقَّعْنَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ بين قوله في الجملة السابقة: ﴿فَوَقَّعَهُمُ﴾ وقوله هنا: ﴿وَلَقَّعْنَهُمُ﴾،  
جناس بليغ.

وقدم قوله: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ على قوله: ﴿وَلَقَّعْنَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ وما بعدها  
من الآيات في ذكر نعيمهم؛ لأن التخلية قبل التحلية.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَّعْنَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾، أي: وأكرمهم وأعطاهم ومنحهم نصارة  
وحسنًا وبهاء وبهجة في وجوههم، وسرورًا وفرحًا واستبشارًا في قلوبهم، كما قال تعالى:

(١) انظر «دقائق التفسير» ٢٣/٥.

(٢) انظر «معاني القرآن» للفرأء ٢١٦/٣، «جامع البيان» ٥٤٧/٢٣، «لسان العرب» مادة «قمطر».

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن، وبين النعيم الحسي والمعنوي. نسال الله تعالى من فضله.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه».

وقال أيضًا: «فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَنَّهُمْ

نَصْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ فالنصرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي

وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ الرَّعِيْبِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤].

وسرور القلب هو سبب نضارة الوجه واستنارته، ونضارة الوجه واستنارته هي

علامة سرور القلب، لهذا قدمها لأنها هي العلامة الظاهرة على السرور.

قال كعب بن مالك - رضي الله عنه -: «سلمت على رسول الله ﷺ - وهو يبرق

وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر،

وكنا نعرف ذلك منه»<sup>(٢)</sup>.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ - مسرورًا تبرق

أسارير وجهه»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَجَزَّوْهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ الباء: سببية، و «ما» مصدرية.

والصبر في اللغة: الحبس والمنع. وهو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن

التشكي، والجوارح عما حرم الله.

أي: وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله - عز وجل - وعن معاصيه، وعلى

أقداره المؤلمة.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٢٢ / ٥.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة - حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه ٢٧٦٩،

والترمذي في التفسير ٣١٠٢، وأحمد ٤٥٦ / ٣ - ٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب - صفة النبي ﷺ ٣٥٥٥، ومسلم في الرضاع - العمل بإلحاق القائف الولد

١٤٥٩، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٩٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٩،

وابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٩.

﴿جَنَّةٌ﴾، أي: بستانًا ودارًا فسيحة ومنزلًا رحبًا، فيها ألوان النعيم والعيش الرغيد، وغير ذلك مما أعده الله لأولياته. والمراد بقوله «جنة» جنس الجنات.

﴿وَحَرِيرًا﴾، أي: ولباسًا من حرير، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٢٣].

قال السعدي<sup>(١)</sup>: «ولعل الله إنما خص الحرير؛ لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه».

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٣) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَطْوْفُهَا نَذِيلًا﴾ (١٤) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِبَنَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾ (١٦) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (١٧) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (١٨) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا﴾ (١٩) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ (٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ آسَاوِرٌ مِّنْ فَضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١) ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَّشْكُورًا﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآيتين السابقتين وقايته للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة والسرور وإثابتهم بسبب صبرهم بالجنة والحرير. ثم أخذ في تفصيل أحوالهم في الجنة وما أعد لهم فيها من ألوان النعيم.

قوله: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، أي: متكئين في الجنة. والاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهة، كالتمرق، وهو الجلوس مع الاتكاء على المرفق، وكالتربع في الجلوس، والاضطجاع.

وفي الحديث قوله ﷺ: «أما أنا فلا أكل متكئًا»<sup>(٢)</sup>.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرر.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥٣٤ / ٧.

(٢) أخرجه البخاري - في الأطعمة - الأكل متكئًا ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة - ما جاء في الأكل متكئًا ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة - ما جاء في كراهة الأكل متكئًا ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة - الأكل متكئًا ٣٢٦٢، وأحمد ٤ / ٣٠٨، ٣٠٩ - من حديث أبي جحيفة - رضي الله عنه.

فجلوسهم على هذه الأسرة جلوس المطمئن المنبسط المسرور المرتاح.  
﴿لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا﴾، أي: لا يرون في الجنة شمسًا يزعجهم ويؤذيهم حرها.  
﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الزمهير: البرد، أي: ولا يرون فيها بردًا يؤلمهم.  
فجوها في غاية الاعتدال في ظل ظليل، كما قال تعالى: ﴿أَكُلُوهَا ذَائِبًا وَظِلُّهَا﴾  
[الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَدَّخِلْهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾، أي: وقرية منهم ظلال أشجارها، وقرية إليهم أغصانها.  
﴿وَذُلَّتْ﴾، أي: جعلت مذلة منقادة ﴿قُطُوفُهَا﴾: ما يقطف ويلتقط من جناها  
وثارها، أي: جعلت ثارها مذلة منقادة لهم.

﴿نَدِيلًا﴾، أي: غاية التذليل والانقياد، متى اشتوها تددت عليهم من أغصانها،  
يأخذونها على أي حال كانوا، قائمين أو جالسين أو مضطجعين، لا يردهم عنها بُعد  
ولا شوك، كما قال تعالى: ﴿وَحِجَى الْجَنَّةِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا  
دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ﴾، أي: ويطوف عليهم الولدان والخدم بأوان من فضة  
فيها طعامهم، كما قال تعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة ﴿﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ  
مُّخَلَّدُونَ﴾﴾، وقال تعالى: ﴿﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ يَا كُوفٍ وَابْرِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾  
[الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأْسٌ لُّوْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور:  
٢٤]، وقال تعالى: ﴿﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿﴿ يُطَافُ  
عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أيضًا من فضة فيها شرابهم.  
والأكواب: هي الكيزان والجرار والأقداح التي لا عرى لها ولا خراطيم.  
﴿كَانَتْ﴾، أي: كانت هذه الأكواب، ﴿فَوَارِيرًا﴾: جمع قارورة. والقارورة تكون من  
الزجاج، أي: إن هذه الأكواب التي يشربون بها في بياض الفضة وصفاء قوارير  
الزجاج، شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup>: «فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفة الزجاج وشفافته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾».

﴿قَدَرُوهَا نَقْدِيرًا﴾، أي: قدروها بأنفسهم فجاءت كما قدروها، أو قدرها لهم من يطوف عليهم من الولدان والخدم.

والتقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص فجاءت هذه الأكواب مقدره، من حيث ما فيها من شراب بكونه قُدْر لهم من غير زيادة ولا نقصان، ومن حيث حجمها بكونها بقدر الكف، ومن حيث لذتها فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

قال ابن القيم<sup>(٣)</sup>: «فقدت الصناعات هذه الآنية على قدر ربه لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب فلو نقص عن ربه لنقص التذاده، ولوزاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسامة من الباقي».

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾، أي: الأبرار، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، أو في هذه الأكواب.

﴿كَأْسًا﴾، أي: كأس خمر.

﴿كَانَ مِرْآجُهَا﴾، أي: ما تمزج به وتخلط ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ وهو نبت عظيم الفائدة طيب الطعم والرائحة.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾، ﴿عَيْنًا﴾: بدل من ﴿زَنْجَبِيلًا﴾، أي: عيناً في الجنة ﴿تُسَمَّى

سَلْسِيلًا﴾؛ لسلاسة سيلانها وانقيادها، وسلاستها في الحلق، ولذتها وحسنها.

فالأبرار يسقون كأس الخمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسيل.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/٩٨-٩٩.

والمقربون يشربون من عين السلسيل صرفاً بلا مزج<sup>(١)</sup>.

قال ابن تيمية<sup>(٢)</sup> - بعد كلامه على قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَّ يُشْرَبُ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مِزَاجُهَا كَأْفُورًا﴾ -: «وأخبر سبحانه أن لهم شراباً آخر ممزوجاً من الزنجبيل؛ لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف؛ ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهوراً - أي: مطهراً لبطونهم». وقال ابن كثير<sup>(٣)</sup>: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار؛ ليعتدل الأمر. وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً».

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: ويدور على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وَلِدَانٌ﴾ جمع وليد وهو الصغير، ﴿مُخَلَّدُونَ﴾، أي: باقون على سن الصغر، لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون؛ لأن الصغير هو الأنسب والأصلح للخدمة. وهم أيضاً في غاية الحسن: مقرطون مسورون. قال الشاعر:

ومخلداتٌ باللجين كأنها أعجازهنَّ رواكد الكُثبانِ<sup>(٤)</sup>

وهؤلاء الولدان غلمان أنشأهم الله في الجنة، كما أنشأ الحور العين، وقيل هم أولاد المسلمين الذين يموتون قبل البلوغ والتكليف، وقيل: هم أطفال المشركين.

والأظهر القول الأول فهم غلمان ينشئهم الله لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكُونٌ ﴾ [الطور: ٢٤].

قال ابن القيم<sup>(٥)</sup>: «وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلماناً لهم».

(١) انظر «جامع البيان» ٢٣/٥٦١.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/٢٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/٣١٧.

(٤) البيت ذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» ٤٤٧. وانظر «اللسان» مادة «خلد».

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٠٢.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَوْأَمْشُورًا﴾، أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان في انتشارهم في الخدمة وكثرتهم وحسن خلقتهم وبياض أجسامهم ونضارة وجوههم، ونظافة ثيابهم، وجمال حلبيهم ظنتهم لؤلؤًا مفرقًا غير منظوم في حسن خلقتهم وجماله وبياضه وبهائه.

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «وفي كونه مشورًا فائدتان: إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوادثهم.

والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان مشورًا ولاسيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد».

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ - ولكل من يصلح له.

و ﴿تَمَّ﴾: ظرف مكان، أي: وإذا رأيت هناك في الجنة، أي: رمقت ما عليه أهل الجنة من النعيم الكامل؛ من سعة دورها وقصورها ورياضها وكثرة أنهارها وخضرة بساطينها، وتنوع مأكولاتها ومشروباتها، وما فيها من الحور العين والخيرات الحسان، والغلمان والولدان، والفوز برضى الرحمن، والتمتع بخطابه والنظر إليه في تلك الجنان.

﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، أي: شاهدت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا أعده الله لهم.

وإذا كان الله - عز وجل - عظم هذا النعيم، ووصف هذا الملك بكونه كبيرًا - فلا أحد يقدر عظمة ذلك وكبره، ولا يدرك وصفه وكنهه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه قال: قال النبي - ﷺ: «يقال لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا فيها: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا..»<sup>(٢)</sup>

وعن ابن عمر رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر «بدائع التفسير» ١٠٠/٥.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧١، ومسلم في الإيمان ١٨٦، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ١٣/٢.

وإذا كان هذا هو ملك أدنى أهل الجنة فما بالك بملك من هو أعلى منه، فهو بلا شك أوسع وأعظم. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمة بإسكان الياء وكسر الهاء: عاليهم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء: ﴿عَلَيْهِمْ﴾. وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «خضر» بالخفض: صفة لـ ﴿سُنْدُسٍ﴾ على إرادة الجنس.

وقرأ الباقون بالرفع: ﴿خُضْرٌ﴾: صفة لـ ﴿ثِيَابٌ﴾ وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: عالي أبدانهم يجلل ظواهرهم ويحملها. ﴿ثِيَابٌ سُنْدُسٍ﴾ السندس: هو رقيق الحرير والديباج ورفيعه، ويكون مما يلي أبدانهم كالقمصان ونحوها؛ لنعمته.

كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣]. ﴿خُضْرٌ﴾، أي: لونها أخضر، وهو من أحسن الألوان وأجملها. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم: ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ثِيَابٌ﴾ وقرأ الباقون بالخفض: «إسْتَبْرَقٌ» عطفًا على ﴿سُنْدُسٍ﴾.

والإسْتَبْرَقُ: غليظ الحرير والديباج، مما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر. قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يجمل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال».

﴿وَحُلُوتٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ﴾، أي: ألبسوا في أيديهم أساور من فضة ذكورهم وإناثهم وهؤلاء هم الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

(١) انظر «بدائع التفسير» ٩٦/٥.

وفي الحديث: «في الجنة جنتان آنتهما وما فيها من ذهب للمقربين وجنتان من فضة آنتهما وما فيها لأصحاب اليمين»<sup>(١)</sup>.

قال ابن تيمية<sup>(٢)</sup>: «فإن قيل: فلم اقتصر من آنتهم وحليهم على الفضة دون الذهب؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنتهما وحليتها وما فيها، وجنتان من ذهب آنتهما وحليتها وما فيها.

قيل سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلاً دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم، فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل. وذلك - والله أعلم - لأنهم أعم من المقربين وأكثر منهم؛ ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين. وأيضاً: فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهاً على أن جزاء المقربين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأيضاً: فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر، وأهل الشكر نوعان أبرار أهل يمين، ومقربون سابقون، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

وأيضاً: فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط».

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، أي: وسقاهم ربهم شراباً يطهر بواطنهم ويزينهم.

وأسند الفعل إلى الرب، وأضافه إلى ضميرهم تكريماً وتشريفاً لهم.

فجمل عز وجل ظواهرهم بالحرير والحلي، وجمل بواطنهم بالشراب الطهور الذي يطهرها من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق السيئة والأدناس الحسية والمعنوية، ويتحول إلى ريح كريح المسك يخرج من أبدانهم.

(١) سبق تحريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَن حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٤.

عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾، أي: يقال لهم هذا تكريمًا وتمنئة لهم وإنعامًا معنويًا عليهم. والإشارة في قوله «إن هذا» إلى ما أعطاهم الله من الجنة وألوان النعيم فيها مما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ ﴿١١﴾ وَجَزَّيْتُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَّوهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿١٣﴾ وغير ذلك مما هم فيه من النعيم.

أي: إن هذا النعيم الذي أعطيتموه كان لكم مجازاة وإثابة على ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة، فهي سبب الثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ﴿١٤﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾، أي: وكان سعيكم في الدنيا، أي: عملكم.

﴿مَشْكُورًا﴾، أي: كان عملكم عملاً صالحًا تشكرون عليه، وبمجازيكم الشكور سبحانه على العمل القليل منكم بالأجر العظيم والثواب الجسيم والنعيم المقيم. فجمع الله - عز وجل - هؤلاء الأبرار بين ألوان النعيم الحسي، والنعيم المعنوي بالتمنئة لهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ﴿١٤﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ [الأعراف: ٤٩] وقول الملائكة لهم: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢١﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقول أهل العلم: إن النعيم المعنوي لا يقل عن النعيم الحسي.

قال ابن القيم<sup>(٢)</sup> «فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣١٨/٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ١٠٢/٥.

شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور».

### الفوائد والأحكام:

١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالسلاسل والأغلال والسعير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (٤).

٢- الوعد والبشارة للأبرار بما أعد الله لهم من ألوان النعيم ومن ذلك كأس الخمر المزوجة بالكافور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

٣- إثبات عبودية المقربين الخاصة لله - عز وجل - وأنهم يشربون من عين الكافور صرفاً ويفجرونها تفجيراً؛ لقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٦).

٤- امتداح الله - عز وجل - للأبرار بذكر صفاتهم من الوفاء بالندر وخوف يوم القيامة وشدائده وأهواله، وإطعام الطعام مع محبتهم له، للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى؛ إخلاصاً لله - عز وجل، لا لطلب المجازاة منهم ولا الشكور.

والترغيب في هذه الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْغَدْرِ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَمُوسًا فَطَّرِيرًا (١٠).

٥- إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾، والمراد بوجه الله تعالى: ذاته عز وجل، ويعبر عن الذات بالوجه لشرفه.

٦- وقاية الله - عز وجل - للأبرار شريوم القيامة، ومنحهم النصارة في وجوههم والسرور في قلوبهم ومجازاتهم بصبرهم جنة يسكنونها وحريراً يلبسونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شُرَدَّكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (١١) وَحَرَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢).

٧- اكتمال سرور الأبرار وانبساطهم في مجالسهم في أجمل الأجواء وأعدلها، في جنان ظلها دانية، وثارها مذللة، يطاف عليهم فيها بطعامهم وشرابهم بآنية وأكواب مقدرة من فضة، ويسقون فيها كأس خمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا

كَأَسَاكَانَ مِرْآجِمَاهَا زَجْجِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنَايَا تَسْمَى سَلْسِيلاً ﴿١٨﴾.

٨- دوران الولدان المخلدين والخدم الذين هم كاللؤلؤ المنشور في الحسن والجمال على أهل الجنة بطعامهم وشرابهم وحوائجهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

٩- عظم نعيم الأبرار في الجنة وكبر ملكهم وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

١٠- جمال مظهر الأبرار في الجنة، ومخبرهم ولباسهم وحليتهم الظاهرة والباطنة فلباسهم الحرير وحليتهم أساور من فضة وشرابهم الطهور؛ لقوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَهَلْوَاءٌ مِّنْ لَّيْلٍ أَسْوَدَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾.

١١- الجمع للأبرار بين النعيم الحسي من السكن في الجنان وما فيها من ألوان النعيم من المأكّل والمشارب واللباس والحلي وغير ذلك وبين النعيم المعنوي للقلوب من التهنتة لهم بما أعد الله لهم، وأن هذا جزاء لهم على سعيهم وعملهم المشكور؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة للأبرار، وشكره لهم، وهو الشكور سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كُفُورًا ﴿١٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿١٦﴾

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿١٧﴾ نَحْنُ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢١﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

بعد ما ذكر الله - عز وجل - ما أعده للمكذبين من السلاسل والأغلال والسعير، وما أعده للأبرار من ألوان النعيم امتن على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم، الذي من تمسك به فاز بالنعيم المقيم، ومن أعرض عنه صار إلى العذاب الأليم.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه سبحانه ذو العظمة والكبرياء.

﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾، أي: مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ حُكْمٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: فاصبر لحكم ربك وقضائه الكوني وما قدره من تكذيب قومك وأذيتهم لك وغير ذلك، واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بتكليفك بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الله - عز وجل - وامتنال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي عطف قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ إشارة إلى أن القرآن الكريم والتأمل بما فيه من الدروس والمواعظ والعبر من أعظم ما يعين على الصبر.

كما أن فيه إشارة إلى أنه سوف يناله أذى بسبب إبلاغ هذا القرآن ونشره بين الناس فليستعد لذلك.

﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا﴾ الأثم: الفاجر، كثير الإثم بجوارحه الظاهرة.

﴿أَوْكُفُورًا﴾، «أو»: عاطفة، والكفور: هو الجحود بقلبه، أي: لا تطع هذا ولا هذا، أي: لا تطعهما، ولا تطع واحدًا منهما في مخالفة أمر الله ومعصيته.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور، نهاه عن طاعة هذا وهذا، وأتى بحرف: «أو»، دون «الواو»؛ ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان: إما هذا وإما هذا. فكأنه قيل له: لا تطع أحدهما، وهو أعم في النهي من كونه منهيًا عن طاعتهما، فإنه لو قيل له: لا تطعهما، أو لا تطع آثمًا وكفورًا لم يكن صريحًا في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده».

﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾، أي: اذكر اسم ربك ورب كل مخلوق، وخصه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع أنه عز وجل رب كل مخلوق وذلك - والله أعلم - تذكيرًا له بنعمة الله عليه بربوبيته له الربوبية الخاصة، بل خاصة الخاصة باصطفائه للنبوة والرسالة، وتفضيله على الأنبياء وسائر الخلق.

أي: واذكر اسم ربك بإقامة الصلاة المفروضة وأداء النوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؛ لأن ذكر الله أعظم معين على الصبر.

﴿بِكُرَّةٍ﴾: أول النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾: آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، وهما ينتظمان صلاة الفجر وصلاة العصر. كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وهما البردان.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»<sup>(١)</sup>، أي: صلاة الفجر وصلاة العصر.  
وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته،  
فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»<sup>(٢)</sup>.  
وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»<sup>(٣)</sup>.  
يعني صلاة الفجر وصلاة العصر.  
بل إن هذين الوقتين ينتظران جميع أوقات الصلوات الخمس، فبكرة صلاة الصبح،  
وأصيلاً بقية الصلوات.

وأيضاً: فإن قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ قد يحمل على جميع الأوقات، أي: اذكر اسم  
ربك في جميع الأوقات، كما قال تعالى عن أهل الجنة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:  
٦٢] ورزق أهل الجنة لا ينقطع على الدوام.  
وفي الأمر بذكر اسمه عز وجل بكرة وأصيلاً بعد الأمر بالصبر تنبيه على أن ذكر  
الله عز وجل وطاعته أكبر معين على الصبر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ﴾، أي: ومن أوقات الليل وأنائه فاسجد لربك  
وسبحه، أي: أكثر له من السجود والتسبيح، أي: أكثر من الصلاة له كما قال تعالى:  
﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]،  
وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِنَا اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].  
وخص السجود والتسبيح بالذكر مع أن المراد الصلاة كلها؛ لأن السجود  
والتسبيح من أهم أركان وواجبات الصلاة.

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥ - من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣ - من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١ - من حديث عمارة بن ربيعة عن أبيه - رضي الله عنه.

﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ هذا مقيد مبين في سورة المزمل بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَرْمَلَ ۝١﴾ ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ نَصْفَهُ، أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ أَوْزَدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١-٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۝﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾، أي: إن هؤلاء المكذبين ﴿مُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، أي: يحبون الدنيا العاجلة الفانية، ويعملون لها.

﴿وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾، أي: ويتركون أمامهم، كما في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٨﴾ [الآية: ٧٩]، أي: أمامهم.

﴿يَوْمًا قَلِيلًا﴾، أي: يومًا سيصبرون إليه، ثقيلًا عظيمًا، شديد هولاه مستطير شره عسير على الكافرين، غير يسير، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ على الْكَافِرِينَ غَيْرِيسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩، ١٠].  
لكنه خفيف يسير على المؤمنين، كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»<sup>(١)</sup>.

قال الشاعر:

فيالك من يوم على كل مبطل	فظيع وأهوال القيامة تعضل
تكون به الأطواد كالعهن أو تكن	كثيًّا مهيلًا أهيلًا يتهاهل
به ملة الإسلام تقبل وحدها	وما غيرها من أي دين فيبطل
به يسألون الناس ماذا عملتم	وماذا أجبتم من دعا وهو مرسل
حساب الذي ينقاد عرض مخفف	ومن ليس منقادًا حساب مثقل <sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥- من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٢) الأبيات من قصيدة طويلة بعنوان «القول الأسنى في نظم الأسماء الحسنی» للشيخ حسين بن علي بن

حسين بن محمد بن عبد الوهاب ص ٤٤.

وفي هذه الآية: ذم لمن أحبوا الدنيا العاجلة الفانية فانشغلوا بها عن العمل للدار  
الباقية تقديمًا لداعي الحس على داعي العقل، والناس في هذا بين مقل ومستكثر فينبغي  
الحذر من ذلك.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، أي: نحن أوجدناهم من العدم.

﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، أي: قوينا وأحكامنا خلقهم، وحسنه وسوينا، كما قال

تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢].

قال ابن تيمية: «ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه، بما شد من أسرهم وهو  
ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال وما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض،  
وحقيقته القوة، فلا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط، ومنه الإسار وهو الحبل الذي  
يشد به الأسير»<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾، أي: إذا شئنا بدلنا أشباههم وصورهم، أو ذهبنا بهم

وأتينا بقوم آخرين غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١١]

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠، فاطر: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ خَلَقَ زَيْنًا يَمُرُّ بِالْمَوْتِ

وَمَا مَنْحُنُ الْمَسْبُوقِينَ﴾ [١٠] عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ وَتُنشَأَ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ﴾ ببعثهم يوم القيامة خلقًا جديدًا

بأعيانهم وأمثالهم، أي: أن الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم بعد الموت  
وبعثهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾، أي: إن هذه السورة تذكرة وموعظة.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا ومسلکًا

(١) انظر «دقائق التفسير» ٢٥/٥.

موصلاً إليه فتذكر واتعظ واتبع هدى الله الذي أنزله وصراطه المستقيم المؤدي إليه.  
كما قال - عز وجل ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ اِلَّا اِلَىٰ اِلٰهِ تَصِيْرُ  
الْاُمُوْر ۝٥٣ ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَاِنَّ هٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيْمًا فَاتَّبِعُوْهُ ۗ وَلَا  
تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَلَّا اِنَّهٗ تَذَكَّرٌ ۝٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ، ﴿٥٥﴾ [المدثر: ٥٤]،  
٥٥]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا اِنَّهَا تَذَكَّرٌ ۝١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ، ﴿١٢﴾ [عبس: ١١، ١٢]، وقوله تعالى:  
﴿ذٰلِكَ اَيُّوْمُ الْحٰقِّ ۗ فَمَنْ شَاءَ اَتَّخِذْ اِلٰى رَبِّهٖ مَثٰبًا ۝٣٩﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿وَمَا تَشَاءُوْنَ اِلَّا اَنْ يَّشَاءَ اللّٰهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالغيب: «وما يشاءون»  
وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿وَمَا تَشَاءُوْنَ﴾.

والمعنى: أن مشيئة الخلق تابعة لمشيئة الله - عز وجل - ومشيئته نافذة فيهم، فما شاء  
كان وما لم يشأ لم يكن، أي: فلا يستطيع أحد أن يهدي نفسه، ولا يجلب لها نفعاً أو يدفع  
عنها ضرراً إلا أن يشاء الله ذلك.

والمراد بالمشيئة الإرادة الكونية، فإنه لا يقع في الكون أي حركة أو سكون إلا  
بمشيئته عز وجل وإرادته الكونية.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُوْنَ اِلَّا اَنْ يَّشَاءَ اللّٰهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا  
تَشَاءُوْنَ اِلَّا اَنْ يَّشَاءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ ۝٢١﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿اِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيْمًا﴾، أي: إن الله كان ذا العلم الواسع فيما خلق وقدر وشرع وفي  
غير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٨﴾ [طه: ٩٨].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد  
الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما  
قال موسى عليه السلام - لما سئل القرون الأولى: ﴿عِلْمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتٰبٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي  
وَلَا يَنْسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢].

﴿حَكِيْمًا﴾، أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي،

والحكم الجزائي وذا الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. ومن علمه عز وجل الواسع علمه بمن يستحق الهداية فييسر له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عنها؛ لما له في ذلك من الحكم التام والحكمة البالغة.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، أي: يوفق من يشاء فيدخله في رحمته - الخاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فيدخلهم في رحمته بالإيمان ويسكنهم برحمته فسيح الجنان. ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾: منصوب بإضمار فعل يفسره «أعد» ويقدر بـ«أعد» ونحوه؛ لأن «أعد» لا يتعدى باللام.

والظالمين: جمع ظالم. والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَانِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

وهو أيضاً وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١١٣﴾ [لقمان: ١٣]. أي: والظالمين الذين اختاروا الكفر على الإيمان، والضلال على الهدى.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾، أي: هيأ وجهز لهم، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذاباً مؤلماً موجعاً حساً ومعنى. أي: أنه - عز وجل - لم يوفقهم للهداية، بل قدر عليهم الضلال والكفر، وأعد لهم عذاب النار. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادِي لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

فيهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

### الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله - عز وجل - على الرسول ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه وتشريفه بذلك وبخطابه عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝٢٣﴾.

- ٢- إثبات علو الله - عز وجل - على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.
- ٣- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل وكلامه غير مخلوق. والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.
- ٤- نزول القرآن الكريم منجماً في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث.
- ٥- أمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ بالصبر لحكمه الشرعي بتكليفه بالرسالة والقيام بأمره ونهيه، والصبر لحكمه القدري، وعلى أذى قومه وما يلاقيه من أذى في سبيل الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقوية لقلبه. ولأتباعه في الدعوة إلى الله أسوة به في هذا.
- ٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.
- ٧- نهي الله - عز وجل - لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين أهل الإثم والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ، إِنَّمَا أَوْكُفُورًا﴾، وهو نهي له ﷺ وللمؤمنين.
- ٨- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ بذكره بصلاة الفرائض والنوافل وأنواع الذكر في أول النهار وآخره وفي جميع الأوقات وقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ومن الليل فاستجد له، وسبحه ليلاً طويلاً، وهو أمر له ﷺ ولأُمَّته.
- ٩- ذم الذين انشغلوا بالدنيا العاجلة الفانية عن الاستعداد ليوم القيامة الثقيل وما فيه من الأهوال العظام والفضائح الجسام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.
- ١٠- تذكير المكذبين والناس عامة بنعمة الله - تعالى - عليهم بخلقهم وتقويتهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَحْنُ خَلَقْنَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾.
- ١١- إثبات قدرة الله - عز وجل - على تبديلهم بغيرهم أو إنشائهم خلقاً آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.
- لأن القادر على البداء قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى.

١٢- أن هذه السورة تذكير وموعظة فيها بيان طريق الحق، والأمر باتباعه، وبيان طريق الشر، والنهي عن سلوكه، وبيان ما أعده الله من الجزاء لأتباع كل من الطريقتين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾.

وهكذا كل سور القرآن الكريم وآياته فيها الوعظ والتذكير بهذا.

١٣- أن الإنسان ليس مجبوراً على فعله بل له اختيار ومشية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الخلق مجبرون على أفعالهم.

١٤- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

١٥- إثبات المشيئة التامة النافذة لله - عز وجل -، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

وفي هذا رد على المعتزلة القدرية القائلين بأن الخلق يخلقون أفعالهم، وأنهم قد يشاؤون ما لا يشاؤه الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

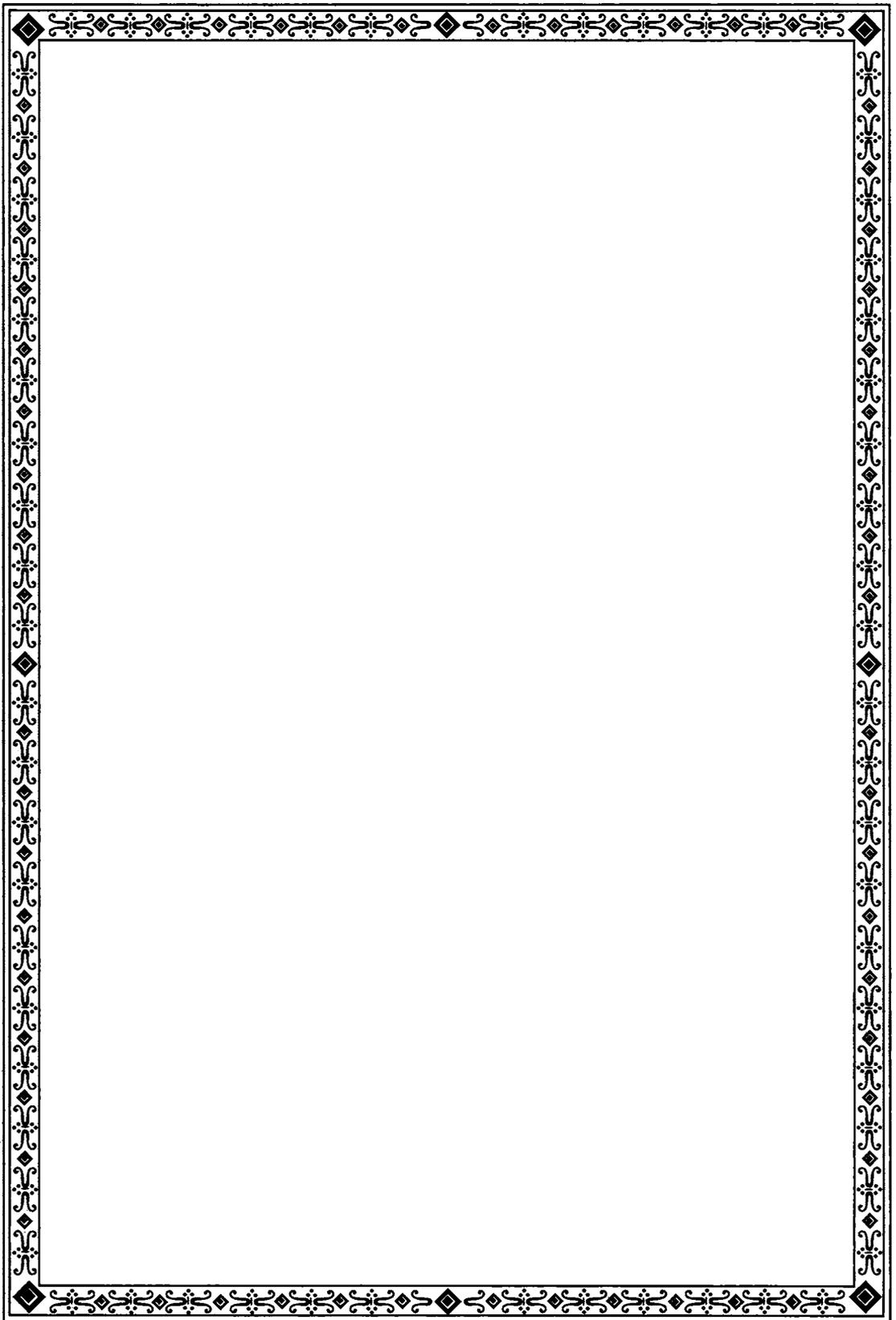
١٦- إثبات العلم التام الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾.

١٧- إثبات الحكم التام النافذ لله عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات الحكمة البالغة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١٨- في اتصافه عز وجل بالعلم الواسع، والحكمة والحكم التامين اجتماع كمال إلى كمال وبلوغه عز وجل غاية الكمال.

١٩- الوعد للمؤمنين بإدخالهم رحمته وجنته، والوعيد للظالمين بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المرسلات»؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع السورة بقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَسْتَ﴾.

وتسمى: «سورة المرسلات عرفاً»، كما جاء في حديث ابن عباس عن أم الفضل رضي الله عنهما، وفي بعض روايات حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَأَلْمَسْتَ﴾ فإنه لیتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرتب بها<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما: «أن أم الفضل- رضي الله عنها سمعته يقرأ: ﴿وَأَلْمَسْتَ عُرْفًا﴾<sup>(١)</sup> فقالت: يا بني ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»<sup>(٢)</sup>.

## د- موضوعاتها:

١- أقسم الله عز وجل في هذه السورة بالمرسلات وما عطف عليها على أن البعث والحساب حق: ﴿وَأَلْمَسْتَ عُرْفًا﴾<sup>(١)</sup> إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ لَوْفِعٍ﴾<sup>(٧)</sup>.

٢- ذكر أهوال يوم القيامة وما فيه من التقريع والتهديد للمكذبين: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾<sup>(٨)</sup> وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ<sup>(٩)</sup> وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ<sup>(١٠)</sup> وَإِذَا الرَّسُلُ أَقْنَتَ<sup>(١١)</sup> لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِلَّتْ<sup>(١٢)</sup> لِيَوْمٍ

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٣٠، وفي بدء الخلق ٣٣١٧، ومسلم في السلام ٢٢٣٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- القراءة في المغرب ٧٦٣، ومسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٦٢، وأحمد ٦/٣٣٨.

الْفَصْلِ ١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ١٤) وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥) إلى قوله تعالى: ﴿وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥)﴾، وقوله: ﴿وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥)﴾ إلى قوله: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ٥٠)﴾.

٣- وعد المتقين بما أعد لهم من الكرامة والنعيم الحسي والمعنوي: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٤٤)﴾.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ٢﴾ وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا ٣﴾ فَأَلْفِرَقَتِ فَرَقًا ٤﴾ فَأَلْمَلِقَاتِ ٥﴾ ذِكْرًا ٥﴾ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ٦﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوْفِعٍ ٧﴾ فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ ٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ١٤﴾ وَيَلْيَوْمِئِذٍ الْمَكْذِبِينَ ١٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ٢﴾ وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا ٣﴾ فَأَلْفِرَقَتِ فَرَقًا ٤﴾ فَأَلْمَلِقَاتِ ٥﴾ ذِكْرًا ٥﴾ .

قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، «المرسلات»: مقسم به مجرور، وكذا ما عطف عليه وهي: العاصفات والناشرات والفارقات والمملقيات. والمراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

فالمرسلات عرفاً هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿عُرْفًا﴾، أي: يتبع بعضها بعضاً، شيئاً فشيئاً.

﴿فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَلِيمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

ووصفت الرياح بكونها عاصفات؛ لأنها تهب وتعصف، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت.

وعطفُ العاصفات بفاء التعقيب على المرسلات يدل على أنها نوع واحد.

﴿وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا﴾: هي الرياح تنشر السحاب في آفاق السماء - كما يشاء الله - عز وجل، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]،

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقد قال بعض المفسرين: المراد بالمرسلات: الملائكة.

والأظهر أن المراد بها الرياح، ويؤيده عطف العاصفات والناشرات عليها. وكذا قيل المراد بالناشرات: الملائكة تنشر كتب بني آدم، أو تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وغير ذلك.

وقيل: المراد بالناشرات الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها.

والأظهر والله أعلم أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

﴿فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا﴾ ﴿٤١﴾ ﴿فَالْمُفَيَّاتِ ذِكْرًا﴾.

المراد بالفارقات: الملائكة تنزل بأمر الله على الرسل، الذي به التفريق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿فَرَقًا﴾، أي: تفريقًا واضحًا، لا لبس فيه، يميز الحق من الباطل والهدى من

الضلال والحلال من الحرام، كما قال عز وجل في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُمْ

بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: بأمر الله الذي أنزله ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيل المراد بالفارقات: الرياح تفرق السحاب ههنا وههنا، لكن عطف:

﴿فَالْمُفَيَّاتِ ذِكْرًا﴾ عليه بفاء التعقيب يضعفه بل يأباه.

﴿فَالْمُفَيَّاتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة تلقي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام الذكر وهو

الوحي الذي أوحاه الله إليهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ

وَسَوْفَ يَسْتَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ منصوبان على المفعول له، و «أو» عاطفة، أي: لأجل الإعذار

والإنذار.

ومعنى ﴿عُدْرًا﴾، أي: إقامة للحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿رُسُلًا

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومعنى ﴿نَذْرًا﴾، أي: تخويفًا وتحذيرًا للخلق من عذاب الله، كما قال عز وجل: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فالله عز وجل أرسل الرسل، وأنزل الكتب للإعذار وإقامة الحجة على الخلق، ولإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله عز وجل وتبشير من آمن منهم بما أعده الله للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ فَدَّجَاءَ كُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوْفِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه فأقسم الله - عز وجل - بهذه الخمس وهي: المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات على أن ما يوعدون من البعث والحساب والجزاء لواقع، أي: كائن لا محالة متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

أي: أقسم عز وجل بالرياح التي فيها حياة الأرض والنبات والأبدان وبالملائكة التي تنزل بأمر الله بالتفريق بين الحق والباطل وتلقي الذكر الذي به حياة القلوب على أن البعث حق.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُحِلَّتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُمَدِّدُ الْمَكَدَّ بَيْنَ ﴿١٥﴾﴾.

أقسم الله عز وجل على أن البعث والقيامة حق ثم ذكر بعض أهوالها في هذه الآية وما بعدها.

قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، أي: ذهب بها ومحي نورها وضوؤها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

والمعنى: فإذا النجوم ذهب ضوؤها وحصلت هذه الأهوال والعلامات المذكورة وقع ما يوعدون.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾، أي: وإذا السماء المحبوكة الخلق التي لا فطور فيها شقت وفطرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال

تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءَ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦].

هكذا تكون حال السماء من عظيم هول ذلك اليوم، وقد كانت محبوبة محفوظة لا فطور فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٢﴾﴾ ثم أَرِجِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ﴾، أي: وإذا الجبال قلعت من أماكنها وألقيت واستوت مع الأرض، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِئِ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: ظاهرة لا جبال فيها. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَّتْ﴾، أي: جعل لهم وقت مؤجل لجمعهم وحان ذلك الوقت كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِنْتُبُ وَجِئَاءَ بِالْبَيْتِئِنَّ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أُتِلَّتْ﴾ الاستفهام: للتعظيم والتفخيم والتهويل، أي: لأي يوم أجل جمعها، ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾، أي: ليوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الرسل وأممهم وبين الحق والباطل وبين العباد في حقوقهم، ويحاسب كلًّا منهم منفصلاً منفردًا كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) [الدخان: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ (١٧) [النبا: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدِهِ رَسُولَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧) يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ تَبْرَزُونَ لِلَّهِ الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾: توكيد وتعظيم وتفخيم وتهويل لأمره، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل هو يوم ثقيل عظيم عسير إلا على من يسره الله - تعالى - عليه.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة تهديد ووعيد وهلاك ويقال: إنه واد في جهنم.

عن معاوية بن حيدة عن أبيه - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له» (١).

﴿يَوْمِيذٍ﴾، أي: في ذلك اليوم يوم الفصل ﴿لِلْمُكْذِبِينَ﴾ للرسول وما جاؤوا به من الحق، أي: ويل لهم من عذاب الله ذلك اليوم، ويا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم. وقد ذكر عز وجل هذا الوعيد والتهديد: ﴿وَيْلٌ يَوْمِيذٍ لِلْمُكْذِبِينَ﴾ عشر مرات في هذه السورة، بعدما أقسم على البعث والمعاد بالرياح والملائكة، وذكر بعض أهوال يوم القيامة وعظمتها واستدل عليه بالخلق الأول ﴿الَّذِينَ خَلَقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وفي ذلك أبين دليل وأظهره على صحة ما أقسم عليه ولهذا كان المكذب به في غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

### الفوائد والأحكام:

١ - إقسام الله - عز وجل - بالرياح والملائكة على أن البعث والجزاء على الأعمال

حق، والله - عز وجل - أن يقسم بها شاء من مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ (١)

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - التشديد في الكذب، ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/٥ - ٦، ٧.

فَالْمَصْفَتِ عَصْفًا ② وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ③ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلَقَّبَتِ ذِكْرًا ⑤ عُدْرًا أَوْ ذُرًّا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوُقْعٍ ⑦ .

٢- كثرة فوائد الرياح، وعظمتها، وفضل الملائكة وعظم أعمالهم.

٣- إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٤- التحذير من عذاب الله- عز وجل، ومن القيامة وأهوالها الشديدة ومنها

انطماس النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا

السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ⑩﴾ .

٥- تحديد وقت لجمع الرسل وأممهم للفصل بينهم أجل ليوم الفصل العظيم

الشديد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬﴾ .

٦- الوعيد والتهديد للمكذابين في ذلك اليوم.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَبَّيْتَهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنَّكَ قَدَرٌ مَعْلُومٌ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسًا شَلُجَةً وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾.

توعد الله المكذبين بالعذاب الأخروي يوم القيامة، ثم توعدهم بالعذاب الدنيوي بأن يوقع بهم ما أوقع بالمكذبين المجرمين قبلهم من الإهلاك في الدنيا.

قوله: ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام ومعناه: التقرير، أي: أما أهلكنا الأولين من المكذبين للرسول من الأمم الماضية بأنواع العقوبات في الدنيا.

كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ثُمَّ نَبَّيْتَهُمُ الْآخِرِينَ﴾ من أشباههم من المكذبين بعدهم. ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الإهلاك نفعل بالمجرمين، أي: نعاقبهم من الأولين والآخرين.

فبين عز وجل أن سنته السابقة واللاحقة إهلاك المجرمين ليعتبر اللاحق بالسابق. ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة بالنار.

وقد يحمل على الوعيد بالعذاب الدنيوي بالإهلاك والعذاب الأخروي بالنار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أما أوجدناكم أيها آدميون من

ماء حقير ضعيف، وهو المني، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥-٧].

وعن بسر بن جحاش القرشي أن النبي ﷺ قال: «يقول الله - عز وجل: أنى

تعجزني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد ٤/٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾، أي: فجعلنا هذا الماء ﴿فِي قَرَارٍ﴾، أي: في مكان استقرار تام، وهو الرحم به يستقر وينمو.

﴿تَمَكِينٍ﴾ متمكن في الرحم، حفيظ لما أودع فيه، في جو معتدل بعيد عن الحر والبرد، وعن المؤثرات.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: إلى وقت مقدر معلوم ومدة معينة تسعة أشهر أو أكثر أو أقل، والغالب تسعة أشهر، وقد يولد لعارض لسته أشهر ويعيش، وقد يولد لأكثر من ذلك. وقد روي أن الضحاك بن مزاحم ولد وله ستان بعدما خرجت أسنانه.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي بتشديد الدال: «فَقَدَرْنَا».

وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿فَقَدَرْنَا﴾.

أي: فقدرنا على ذلك الخلق، وعلى تقديره وغيره.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾: امتداح من الله عز وجل - لنفسه - وهو أهل المدح والثناء والمجد سبحانه، أي: فنعم القادرون نحن على خلق ذلك، وعلى خلق غيره وتقديره، وعلى إعادة الخلق بعد فئاته.

وفي هذه الآيات من قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) إلى قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ

الْقَادِرُونَ﴾ (٢٣) تذكير للخلق بأصل خلقهم وامتنان عليهم، وبيان قدرته عز وجل على إعادة خلقهم بعد فئاتهم؛ ولهذا جاء بعده الوعيد بقوله: ﴿وَلَيْلُ يَوْمِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٤).

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أما جعلنا الأرض كفاتا، أي: كئنا ووعاء للخلق.

﴿أَحْيَاءَ﴾، أي: حال حياتكم على ظهرها في الدور والقصور.

﴿وَأَمْوَاتًا﴾، أي: بعد مماتكم في بطنها في القبور، فهم في حال حياتهم على ظهرها، وبعد مماتهم في بطنها.

فهي مسخرة لهم ومذلة حال حياتهم يسرون عليها ويعمرونها ويسكنون فوقها ويزرعونها ويستخرجون من خيراتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا

فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) [الملك: ١٥].

وهي ستر لهم بعد موتهم تدفن وتوارى في باطنها أجسادهم عن السباع والوحوش، ولثلاثا تتأذى بها البلاد والعباد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِيَ شَلِخَاتٍ﴾، أي: وجعلنا في الأرض جبلاً ثابتات عاليات كبيرة عظيمة الارتفاع، هي لها بمثابة الأوتاد لثلاثا تميد بأهلها وتضطرب، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، لقمان: ١٠، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾، أي: ماءً عذباً زلالاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الأنبياء: ٤٨] لِنُحِىَ بِهِ بِلْدَةَ مَيْتَنَا وَنُسْقِيَهُ، وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر: ١٢].

وفيما ذكر الله عز وجل من قوله: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [الأنبياء: ٥٥] إلى قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾: امتنان على الخلق بتسخير الأرض لهم وجعلها وعاء لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وترسيها بالجبال، ليتمكنوا من العيش عليها، وفي إنزال المطر وسقيهم منه.

وفي ذلك تذكير بعظيم قدرته - عز وجل - وتذكير لهم بوجوب شكره ولهذا قال بعده: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، أي: ويل ذلك اليوم للمكذبين لرسول الله وكتبه الجاحدين لنعمه المنكرين لقدرته.

### الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للمجرمين المكذبين من المتأخرين بإهلاكهم كالمجرمين الأولين، وتقرير أن مصير الجميع الهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٦] ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾.

- ٢- تذكير الإنسان بأصل خلقه ونعمة الله عليه في ذلك، وأنه خلق من ضعف وحقارة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار بشراً سوياً؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.
- ٣- عظم قدرة الله عز وجل، وعنايته بالإنسان وأطوار خلقه، وظهور أثر عنايته به وقدرته- عز وجل- في تقدير قراره في الرحم في بطن أمه إلى قدر معلوم.
- ٤- إثبات قدرة الله عز وجل، التامة على الخلق الأول، وعلى الخلق الثاني من باب أولى وأحرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.
- ٥- تذكير الخلق بنعمه عز وجل- عليهم وبدلائل قدرته حيث جعل الأرض لهم وعاءً حال حياتهم على ظهرها، وفي بطنها بعد مماتهم، وأرساها بالجبال، وسقاها ماءً فراتاً عذباً زلالاً؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسِيَّ سَلْمِخَلَّتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.
- ٦- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذابين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.



قال الله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ .

ذكر الله عز وجل فيما سبق من الآيات بعض علامات القيامة وتوعد المكذبين بالعذاب في ذلك اليوم ثم فصل ما توعدهم به من العذاب في هذه الآيات.

قوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾، أي: يقال لهم، أي: للمكذبين بالبعث والجزاء على الأعمال والجنة والنار ﴿أَنْطَلِقُوا﴾، أي: اذهبوا مسرعين إلى الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، أي: انطلقوا إلى النار.

﴿أَنْطَلِقُوا﴾، أي: امضوا واذهبوا مسرعين إلى ﴿إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾، وهو ظل هب ودخان النار إذا ارتفع وصعد، فمن شدته وقوته ينشعب ويتمايز إلى ثلاث شعب، أي: ثلاث قطع من النار، وهو الذي قال الله فيه ﴿وَوَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُورٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾، أي: أن هذا الظل وهو ظل هب النار والدخان ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ يظل من الحر ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ﴾، أي: ولا يدفع ولا يقي من هب النار لمن هو فيه.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾، أي: النار، تقذف بشرر عظيم يتطاير من هبها ﴿كَالْقَصْرِ﴾، أي: كالبناء والقصور العظيمة.

وقيل المراد بالقصر: الغليظ العظيم من الخشب كأصول الخشب والنخل. ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ قرأ رويس عن يعقوب: «جُمالات» بضم الجيم وألف بعد اللام؛ على الجمع.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿جِمَلَتٌ﴾ بكسر الجيم بغير ألف بعد اللام على الإفراد.

وقرأ الباقر: «جِمالاً» بكسر الجيم وألف بعد اللام؛ على الجمع.  
أي: كأنه الجمال السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، مما يدل على شدة ظلمة  
النار ولهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء.

وقال بعضهم المراد بقوله: ﴿جَمَلَتْ صُفْرًا﴾: حبال السفن.  
ولما ذكر عظم النار وشدة أهواها أتبع ذلك بالوعيد والتهديد فقال: ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾، أي: لا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ  
وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَقَعَ  
الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [٣٦]، أي: ولا يؤذن لهم بالاعتذار، فيعتذرون؛ لأنه لا  
عذر لهم في الحقيقة، بل قد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.  
كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾  
[النساء: ١٦٥].

ولو اعتذروا لم ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ  
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ  
الْعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

ولا ينافي هذا ما جاء في بعض الآيات أنهم يتكلمون، كما في قوله تعالى عنهم:  
﴿وَنَادُوا بِمَنَّا لِكَيْ نَقُصَّ عَلَيْهِم مَّا عَمِلُوا قَالُوا إِنَّا أَنكُرُهُمْ كَمَا نَكُرُهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [١٠٦] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا  
مِنْهَا فَإِنَّا عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [٦٢] أَخَذَتْهُمُ سِحْرِيًّا أَمْ رَآتِ عَنَّهُمُ  
الْأَبْصَارُ﴾ [٦٣] إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [٦٤] [ص: ٦٢-٦٤].  
إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك أن عرصات القيامة حالات ومواقف ففي حالات ومواقف لا ينطقون، وفي حالات ومواقف أخرى يتكلمون، وهكذا.

وبعد أن نفى نطقهم ذلك اليوم وعدم الإذن لهم ليعتذروا أكد الوعيد والتهديد لهم فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، أي: يوم الفصل بين العباد، ففريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل بينهم في المظالم بإنصاف المظلوم من الظالم، حتى إنه ليقصص للشاة الجلهاء من الشاة القرناء كما جاء في الحديث<sup>(١)</sup> ومحاسبة كل منهم منفصلاً منفرداً ﴿جَمَعْتَكُمْ﴾ الخطاب للمكذبين من هذه الأمة.

﴿وَالأُولَئِينَ﴾ المكذبين من الأمم السابقة، يجمعهم الله عز وجل يوم جمع الخلائق كلها في صعيد واحد.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ الكيد: هو الحيلة والمكر بخفية، أي: إن كان لكم حيلة وطريق للتخلص من قبضتي وعذابي فافعلوا، وأنى لهم ذلك.

كما قال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْمَيْنَ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِإِطْلَاقِنَا﴾ [الرحمن: ٣٣].

فقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ مجرد تحذير وتهديد لهم؛ ولهذا أكد التهديد بعده بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وإلا فهو - عز وجل - لا يكيده أحد بل يكيده الكائدين - كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] و﴿وَإَكِيدُوا﴾ [١٦] [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

وقال ﷻ فيما يرويّه عن ربه - عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٢٥٧ - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.

## الفوائد والأحكام:

- ١- تبكيت المكذبين وتعذيبهم في النار حسياً ومعنوياً؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ ﴿٣١﴾ .
- ٢- عظم عذاب النار وحر ظلها وشدة هبها وكبر شررها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ .
- ٣- تأكيد وعيد المكذبين وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ﴾ .
- ٤- إجماع أفواه أهل النار فلا ينطقون وعدم الإذن لهم في الاعتذار فيعتدورن؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ .
- ٥- جمع المكذبين من هذه الأمة ومن قبلهم وتحديهم بأن يخلصوا أنفسهم من عذاب الله وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأُولَىٰ﴾ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ .

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ضَلَالٍ وَعِوِينَ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْاْ وَأَشْرَبُواْ هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوْاْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُواْ لَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ضَلَالٍ وَعِوِينَ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْاْ وَأَشْرَبُواْ هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعدده للمكذبين من ألوان العذاب، ثم ذكر ما أعدده للمتقين من ألوان النعيم - على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه الى الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء

قوله: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أو امره واجتناب نواهيهِ.

﴿فِي ضَلَالٍ وَعِوِينَ﴾، أي: في ضلال الجنة وعيونها، التي ظلها ظليل، وعيونها التسنيم والسلسيل.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدَّخِلُهُمْ ضِلَالًا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِفُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وهذا بخلاف الذي أعد للمكذبين والذي وصفه الله بقوله: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾﴾ ويقوله: ﴿وَضَلَّ مِنْ مِجْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

وبخلاف من قال الله فيهم: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشَقَّى مِنْ عَيْنَيْهِ أَيْنِقَةٌ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٤، ٥].

﴿وَفَوَكَهَ﴾، أي: وفواكه كثيرة مختلفة متنوعة.

﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: من الذي يشتهون، فما طلبوا وجدوا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ

كُلِّ فَاكِهِةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهِةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿كُلُّوْاْ وَأَشْرَبُواْ هَنِيئًا﴾، أي: يقال لهم تكريباً لهم ﴿كُلُّوْاْ وَأَشْرَبُواْ هَنِيئًا﴾ والهنيء: اللذيذ

الطعم، محمود العاقبة، من غير منغص ولا مكدر، فليس فيه آفة من الآفات، ولا ينقطع ولا يزول.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم الصالح؛ لأن العمل سبب لدخول الجنة وليس بعوض عن دخول الجنة، وإنما دخولها برحمة أرحم الراحمين - كما قال ﷺ «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إنا كذلك، أي: كهذا الجزاء والتكريم العظيم نجزي الذين أحسنوا العمل، فجمعوا بين الإخلاص لله - عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، وأحسنوا في عبادة الله - عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله.

وفي قوله - عز وجل لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤٢)</sup> إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ تكريم لهم ونعيم معنوي يخالط شغاف قلوبهم، لا يقل عما هم فيه من النعيم الحسي - نسأل الله - تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾<sup>(٤٥)</sup> كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿﴾<sup>(٤٦)</sup> وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿﴾<sup>(٤٧)</sup> وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْكُرُوا لِمَا بَرَّكْتُمْ أَنْ تَكْفُرُوا ﴿﴾<sup>(٤٨)</sup> وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿﴾<sup>(٤٩)</sup> فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿﴾<sup>(٥٠)</sup>.

قوله: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾: تأكيد لوعيد المكذبين.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين وتهديد لهم ووعيد، أي: كلوا وتمتعوا مدة قليلة وهي بقية أعماركم في هذه الدنيا الفانية، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾<sup>(٢٨)</sup> [التوبة: ٣٨].

﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ أي: إنكم مرتكبون للجرائم من الكفر وأنواع الجرائم، أي: فليس

(١) أخرجه البخاري في المصنف ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

لكم إلا هذا المتاع القليل الحقير في الدنيا، ثم مصيركم إلى النار؛ ولهذا قال بعده ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِي الْمَكَذِبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٢٤﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦١﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، أي: إذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين صلوا مع المسلمين، وأدوا أعظم العبادات وأشرفها وهي الصلاة، أبوا وامتنعوا كفرًا وعنادًا واستكبارًا؛ ولهذا توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِي الْمَكَذِبِينَ﴾.

﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن - كلام الله - عز وجل - فبأي كلام بعده يؤمنون. أي: أنهم لن يؤمنوا كما قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

رُوي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ﴿١﴾ فقرأ ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل» (١).

### الفوائد والأحكام:

- ١ - جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.
- ٢ - بيان ما أعده الله - عز وجل - للمتقين المحسنين من ألوان وأنواع النعيم الحسي من الظلال والعيون والفواكه والمأكول والمشارب، ومن النعيم المعنوي للقلوب من التهنتة والترحيب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهَ مَعَايِشْتَهُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٢٥.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ .

٣- الترغيب بتقوى الله - عز وجل - والإحسان في عبادته وإلى عبادته؛ لقوله

تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ .

٤- توبيخ المجرمين وتهديدهم ووعيدهم، فهم وإن أكلوا وامتعوا قليلاً فمردهم إلى

العذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَوْمِذِي الْمَكْدِينِ ﴿٤٥﴾ كَلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ .

٥- امتناع المكذبين المجرمين من الصلاة والركوع والسجود لله - عز وجل وهذا

من أعظم أسباب عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ كما في

قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ لَرْنَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

٦- أن القرآن الكريم هو أفضل كتب الله - عز وجل - وأبلغها أثراً في الدعوة إلى

الإيمان، وأن من لم يؤمن بالقرآن فلا سبيل له إلى الإيثار؛ لقوله تعالى: ﴿فِي آيَاتِ حَدِيثِ

بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ .

\* \* \*

## فهرس الموضوعات

- ٥..... تفسير سورة الملك.
- ٧..... المقدمة
- ٧..... أ- اسم السورة:
- ٧..... ب- مكان نزولها:
- ٧..... ج- فضلها:
- ٨..... د- موضوعاتها:
- ١٠..... تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ...﴾ الآيات [١-٥].
- ٢١..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ...﴾ الآيات [٦-١١].
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ...﴾ الآيات [١٢-١٥].
- ٢٨.....
- تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ...﴾ الآيات [١٦-١٩].
- ٣٦.....
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ نَهَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ الآيات [٢٠-٢٧].
- ٤٠.....
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ...﴾ الآيات [٢٨-٣٠].
- ٥٠.....
- ٥٣..... تفسير سورة القلم.
- ٥٥..... المقدمة
- ٥٥..... أ- اسم السورة:
- ٥٥..... ب- مكان نزولها:
- ٥٥..... ج- موضوعاتها:
- ٥٧..... تفسير قوله تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٧].
- ٧٢..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾...﴾ الآيات [٩-١٦].
- ٨٢..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...﴾ الآيات [١٧-٣٣].
- ٩٢..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ...﴾ الآيات [٣٤-٤١].

- تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ...﴾ الآيات [٤٢-٤٧] ..... ٩٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَكِ لِرَيْكِ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ...﴾ الآيات [٤٨-٥٢] ..... ١٠١
- تفسير سورة الحاقة ..... ١١١
- المقدمة ..... ١١٣
- أ- اسم السورة: ..... ١١٣
- ب- مكان نزولها: ..... ١١٣
- ج- موضوعاتها: ..... ١١٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾ الآيات [١-١٢] ..... ١١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَجِدَّةً ۝١٣﴾ الآيات [١٣-١٨] ..... ١٢٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَكَ كُنْبَهُ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ...﴾ الآيات [١٩-٣٧] ..... ١٢٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨﴾ الآيات [٣٨-٥٢] ..... ١٣٣
- تفسير سورة المعارج ..... ١٤٣
- المقدمة ..... ١٤٥
- أ- اسم السورة: ..... ١٤٥
- ب- مكان نزولها: ..... ١٤٥
- ج- موضوعاتها: ..... ١٤٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ الآيات [١-١٨] ..... ١٤٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ الآيات [١٩-٣٥] ..... ١٥٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُلِّبَتْ مَهْطَعِينَ ۝٣٦﴾ الآيات [٣٦-٤٤] ..... ١٦٦
- تفسير سورة نوح ..... ١٧٣
- المقدمة ..... ١٧٥
- أ- اسم السورة: ..... ١٧٥
- ب- مكان نزولها: ..... ١٧٥
- ج- موضوعاتها: ..... ١٧٥

- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ...﴾ الآيات [١-٤] ..... ١٧٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا...﴾ الآيات [٥-٢٠] ..... ١٨٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّا يَزِيدُهُ مَالُهُ، وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا...﴾ الآيات [٢١-٢٨] ..... ١٨٩
- تفسير سورة الجن ..... ١٩٧
- المقدمة ..... ١٩٩
- أ- اسم السورة: ..... ١٩٩
- ب- مكان نزولها: ..... ١٩٩
- ج- موضوعاتها: ..... ١٩٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...﴾ الآيات [١-١٠] ..... ٢٠١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مَنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ...﴾ الآيات [١١-١٧] ..... ٢٠٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا...﴾ الآيات [١٨-٢٤] ..... ٢١٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا...﴾ الآيات [٢٥-٢٨] ..... ٢٢٢
- تفسير سورة المزمل ..... ٢٢٧
- المقدمة ..... ٢٢٩
- أ- اسم السورة: ..... ٢٢٩
- ب- مكان نزولها: ..... ٢٢٩
- ج- موضوعاتها: ..... ٢٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّمْلُ...﴾ الآية [١-٩] ..... ٢٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا...﴾ الآيات [١٠-١٩] ..... ٢٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ...﴾ الآية [٢٠] ..... ٢٤٧
- تفسير سورة المداثر ..... ٢٥٩
- المقدمة ..... ٢٦١

- أ- اسم السورة: ..... ٢٦١
- ب- مكان نزولها: ..... ٢٦١
- ج- موضوعاتها: ..... ٢٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّةُ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-١٠]﴾ ..... ٢٦٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾... ﴿الآيات [١١-٣٠]﴾ ..... ٢٧٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ ۝٣٧﴾... ﴿الآيات [٣٧-٣١]﴾ ..... ٢٧٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾... ﴿الآيات [٣٨-٥٦]﴾ ..... ٢٨٤
- تفسير سورة القيامة ..... ٢٩١
- المقدمة ..... ٢٩٣
- أ- اسم السورة: ..... ٢٩٣
- ب- مكان نزولها: ..... ٢٩٣
- ج- موضوعاتها: ..... ٢٩٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾... ﴿الآيات [١-١٥]﴾ ..... ٢٩٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦﴾... ﴿الآيات [١٦-٢٥]﴾ ..... ٣٠٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَ ۝١٦﴾... ﴿الآيات [٢٦-٤٠]﴾ ..... ٣١٠
- تفسير سورة الإنسان ..... ٣١٩
- المقدمة ..... ٣٢١
- أ- اسم السورة: ..... ٣٢١
- ب- مكان نزولها: ..... ٣٢١
- ج- فضلها: ..... ٣٢١
- د- موضوعاتها: ..... ٣٢١
- تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾... ﴿الآيات [١-٣]﴾ ..... ٣٢٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾... ﴿الآيات [٤-٢٢]﴾ ..... ٣٢٦

٣٤٦	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا عَلَيْكَ الْفُرْقَانَ تَتَرِيلًا﴾... ﴿٣٣﴾... ﴿الآيات [٢٣-٣١]﴾.....
٣٥٥	تفسير سورة المرسلات.....
٣٥٧	المقدمة.....
٣٥٧	أ- اسم السورة:.....
٣٥٧	ب- مكان نزولها:.....
٣٥٧	ج- فضلها:.....
٣٥٧	د- موضوعاتها:.....
٣٥٩	تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾... ﴿١﴾... ﴿الآيات [١٥-١]﴾.....
٣٦٥	تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَلَكَ الْأُولَى﴾... ﴿١٦﴾... ﴿الآيات [٢٨-١٦]﴾.....
٣٦٩	تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْظِلْهُمُ إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾... ﴿٢٩﴾... ﴿الآيات [٤٠-٢٩]﴾.....
٣٧٣	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾... ﴿٤١﴾... ﴿الآيات [٥٠-٤١]﴾.....
٣٧٧	فهرس الموضوعات.....

\* \* \*





دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958